نظرات حول الإعداد الروحي

تأليف

الشهيد الشيخ حسين معن

نظرات حول الإعداد الروحي

نبذة مختصرة عن حياة المؤلف الشهيد رحمه اللّه

نظرات عامة حول الاعداد الروحي

الفصل الأول

المقصود من الجانب الروحي

منهج التقييم

١ - الاتجاه الصوفي

٢ - الاتجاه الفكري والسياسي

٣ - الاتجاه التربوي المتكامل

مناشئ الاهتمام بالتربية الروحية

لماذا الاعداد الروحي ؟

الجانب الروحي والممارسات العبادية

جنايات على التربية الروحية

عناصر الجانب الروحي

هوامش الفصل الأول

الفصل الثاني

الإيمان (الوعي الكوني والرؤى الفكرية)

الوعي الفكري والفهم

مراحل الاعتقاد

«ذكر الله»

«من عطاء الذكر»

«المكانة الشعورية للحياة في نفس المؤمن»

«ذكر الموت والإحساس بالآخرة»

«الوعي الكوني»

«الوعي التاريخي»

«الوعي الذاتي»

هوامش الفصل الثاني

الفصل الثالث

الوجدان (العاطفة المبدئية والانفعال الرسالي)

دور الوجدان في الحياة الإنسانية

مبدآن إسلاميان للحياة الوجدانية

الضغط على العواطف الرسالية في حياة القادة

حب اللّه

حب المؤمنين أو الحب في اللّه

المشاركة الوجدانية

خوف اللّه ورجاؤه، وتعلق القلب به

من آثار تعلق القلب باللّه تعالى

الرضا بقضاء اللّه وقدره

«الزهد»

«الزهد تحرر وانعتاق»

«الزهد معنى نفسي»

«الزهد تحرر، والصبر ارادة»

«طمأنينة الوجدان الإسلامي»

«العلاقة الوجدانية بالرسالة ونجاح الدعوة»

«الحد من العلاقة الوجدانية بالدعوة»

الغضب الرسالي

هوامش الفصل الثالث

الفصل الرابع

العبودية (الإرادة الحازمة والعمل الخالص)

«الشخصية الإسلامية والشخصية المزدوجة»

الازدواج، والنفاق

الازدواج الصريح والازدواج الخفي

كيف تتحقق الحاكمية العامة للارادة الربانية؟

الالتزام العملي بخط الإسلام في الحياة (الطاعة)

الاستقامة والفكر التبريري

الصبر

الصبر عند البلاء

الصبر عند الاهواء

الإخلاص

الإخلاص هو المقياس للقيمة الحقيقية للعمل

صعوبة الاخلاص لله تعالى

شمول العبادة، وسعة الاخلاص

التوكل.. تعزيز لارادة المسلم

اذهب أنت وربك فقاتلا

فإذا عزمت فتوكل

الاتكالية. الاعتماد على الذات. التوكل

التوكل والتخطيط

التعقل بعد آخر للارادة المسلمة

تعقل بلا ارادة، وارادة بلا تعقل

هوامش الفصل الرابع

الفصل الخامس

«وسائل التربية الروحية»

المعاناة في سبيل التربية الروحية

أولاً قيام الليل

الأثر التربوي لصلاة الليل

إعداد الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه من خلال قيام الليل

(٢) - ذكر اللّه كثيراً

صورتان تربويتان

(٣) - تلاوة القرآن الكريم التدبر فيه

القرآن الأساس الفكري والروحي

تلاوة القرآن الكريم

(٤) - الاجواء الايمانية

الأخ الصالح في الله

الأزمنة الخاصة للعبادة والتربية

(٥) - الثقافة الايمانية

(٦) - مخالفة الاهواء - الصوم

(٧) - المحاسبة، والنقد الذاتي

(٨) - الاعتكاف

(٩) - نظرة عامة في الأساليب التربوية(٢٣)

«الختام»

هوامش الفصل الخامس

نظرات حول الإعداد الروحي

تأليف

الشهيد الشيخ حسين معن

مقدمة بقلم سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أكثر ما نحرص عليه – خلال الزوبعة الفكرية – التي نجتازها هو أن نأخذ الفكر الاسلامي نقياً ومن منابعه الاصيلة وعلى يد علماء امناء على دين الله تعالى.

ولم ينل اعداء الاسلام من هذا امراً اخطر من نقاوة واصالة الفكر، كما لم يجاهد العلماء العاملون لامر أهم من المحافظة على سلامة الفكر الاسلامي من الانحراف والتشويش، وقد دخل في فكرنا الكثير من الفكر الدخيل الذي لا يمتّ الى الاسلام بصلة واصبح من الصعب معه تمييز ما هو من الاسلام عما ادخل عليه، وقد نبت في تربة هذا الفكر الهجين المختلط

الكثير من المذاهب والآراء والتصورات المنحرفة في التأريخ الاسلامي، سواء في المجال العقائدي او الفقهي او الاخلاقي او السياسي.

ولهذا السبب كانت المحافظة على نقاوة وأصالة الفكر الاسلامي وتطهيره عما ادخل عليه من اهم الادوار والاعمال التي قام بها اهل البيت عليهم السلام ومن بعدهم العلماء الذين ساروا على هديهم.

وكانت قيمة العالم في أدوار الفكر الاسلامي المختلفة في مقدرته على مكافحة الفكر الدخيل والمنحرف والمذاهب الدخيلة والمنحرفة عن الاسلام وتثبيت الفكر الاصيل النابع من منابعه النقية الصافية.

اقول ذلك بمناسبة التقديم للكتاب الذي بين يدي للشهيد السعيد والعالم الجليل والعبد الصالح الشيخ حسين معن، رحمه اللّه، فقد تناول في هذا الكتاب موضوعاً شديد الحساسية، كبير الاهمية في حياتنا الاسلامية، وهو الاعداد الروحي والتربية الروحية، والبحث في هذا الموضوع يؤدي كثيراً بالباحثين إلى تصورات غير مكتملة، وناقصة تنزع نحو الرهبانية ومشاركة الدنيا، واعتزال الحياة الدنيا، والحياة الاجتماعية وابتغاء وجه اللّه تعالى في ذلك كله.. أي بعكس التصور الاسلامي الصحيح الوارد في الكتاب والسنة تماماً.

وقد نشأ في ظل هذا التصور المنحرف للتنمية الروحية والتربية النفسية مذاهب منحرفة قامت على اساس بعد واحد فقط من أبعاد الاسلام الاصيلة، وتكون لهذا الانحراف تاريخ، وثقافة، ومؤسسات، وامتدادات، وعلماء، ومفكرون. وكل ذلك حصل نتيجة الفهم التجزيئي غير الكامل لأصول وآفاق هذا الدين.

ومن خلال قراءتي لهذا البحث رأيت ان المؤلف الشهيد رحمه اللّه يتناول هذا الموضوع الخطير من خلال الرؤية الاسلامية الاصيلة والمتكاملة وينظر الى الاعداد الروحي من زاوية الحركة، والجهاد، والعمل، والدعوة الى اللّه تعالى ويضع هذه المسألة موضعها الطبيعي من هذا الدين، وهو الجو الحركي والسياسي والجهادي، ويدرسه من خلال هذا الجو بالذات على عكس الاتجاهات الفكرية المنحرفة التي تحاول ان تعزل هذا الموضوع الحساس والخطير عن واقع الحياة، والاجواء الحركية، والسياسية، والجهادية.

{ ٦ }

فيحاول المؤلف قدس اللّه سره ان يمزج بين هذين الشطرين من الفكر الاسلامي ويؤلف بينهما ويجعل منهما طيفاً فكرياً واحداً يكمل بعض الوانه بعضاً كما يطلبه الاسلام تماماً في منهجه التربوي والحركي لاعداد الدعاة الى الله تعالى..

وفي قبال الاتجاه الانحرافي الذي يعزل مسألة الاعداد الروحي عن جو الحركة والجهاد، هناك سلوك وتوجه آخر معاكس لهذا التوجه في عزل العمل السياسي والحركي والجهادي عن التربية الروحية والزهد في التربية الروحية وتقليل قيمة التهذيب ودوره في الساحة الحركية والجهادية وهذا اتجاه سلوكي خطير لا يقل خطورة عن الاتجاه الأول.. وهذا ليس اتجاهاً فكرياً كما كان الامر في الاتجاه الاول، وانما هو غفلة لدى بعض الغافلين عن أهمية البناء الروحي، والتربية النفسية في ساحة العمل السياسي والجهادي، أو غرور يصيب بعض الناس الذين يتحركون على الساحة السياسية الاسلامية احياناً، فيتصورون ان العمل السياسي والجهادي والحركي الاسلامي يغني عن البناء الروحي والتربية النفسية والمداومة على ذكر اللّه تعالى والتنفل والتهجد، أو ليس هذا ولا ذاك وانما تلهيهم مسائل العمل ومشاغل الحركة

والجهاد عن الانصراف الى البناء الداخلي وما يتطلب من جهد ومداومة على الرياضة النفسية والتهذيب والتزكية.

ومهما تكن اسباب هذه الظاهرة، فهي ظاهرة انحرافية لا يقل خطرها عن الانحراف الاول.. فإن حاجة الانسان الذي يتحرك على ساحة العمل الاسلامي والدعوة الى اللّه تعالى الى البناء الداخلي والاعداد الروحي تفوق حاجة الآخرين الذين لا تتجاوز اهتماماتهم شؤون معيشتهم الخاصة مع

الالتزام بالحد الادنى من التدين.

فإن الشيطان لا يتربص بهؤلاء الدوائر ولا يعمد الى اغرائهم ووسوستهم كما يعمد الى اغراء ووسوسة اولئك الذين يعملون في صفوف مواجهة الاستكبار، واذنابه، ولا يتعرض اولئك لمزالق ومخاطر الطريق ولا تشبه خطورة سقوط واحد من عامة الناس خطورة سقوط انسان يعمل على الخط الحركي على الساحة الاعلامية والسياسية داخل الامة فإن الانسان الذي يعمل في وسط الامة وعلى خط الدعوة والثورة والحركة السياسية اذا سقط لا يسقط وحده وانما يسقط معه امة من الناس ويجر معه جمعاً من الخطوط الانحرافية والانشقاق ولأمر ما يقال : (اذا هلك العالِم هلك العالم) (بالفتح)...

ولكل هذه الاعتبارات، ولغيرها من الاعتبارات والحيثيات، تفوق حاجة العاملين في صفوف الحركة والثورة الاسلامية والعاملين في الساحة السياسية والاعلامية الاسلامية حاجة غيرهم من الناس الى الاعداد الروحي والبناء الداخلي والتربية النفسية.

لذلك نجد ان القرآن الكريم يؤكد على أهمية البناء الروحي للعاملين بشكل خاص ويربط بين هذين الجانبين من شخصية الداعية ربطاً وثيقاً.

ونستعجل هنا تلاوة هذه الآيات من كتاب اللّه قبل ان نقرأها في العرض القرآني الرائع التي يذكرها المؤلف رحمه اللّه ضمنه.

(ان اللّه اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل

اللّه* فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً* في التوراة والانجيل والقرآن* ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به* وذلك هو الفوز العظيم التائبون* العابدون* الحامدون* السائحون* الراكعون* الساجدون* الآمرون بالمعروف* والناهون عن المنكر* والحافظون لحدود اللّه* وبشر المؤمنين)(١).

ترى كيف يتم هذا الاقتران الرائع بين القتال والجهاد في سبيل اللّه ومبايعة اللّه ورسوله، وبين التوبة والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود..

(محمد رسول اللّه والذين معه اشداء على الكفار* رحماء بينهم* تراهم ركعاً سجداً* يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود* ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل)(٢).

ترى هؤلاء القوم الذين وصفهم اللّه تعالى بأنهم اشداء على الكفار وكأنهم زبر الحديد في مواجهة الكفار صلابة وقوة. كيف يرتسم على وجوههم أثر السجود، وكيف ترق قلوبهم محبة وشفقة على المؤمنين وكيف

يكون خشوعهم وتضرعهم بين يدي اللّه تعالى..

ثم نقرأ الآيات التي يخاطب اللّه تعالى بها نبيه صلى الله عليه وآله داعياً اياه الى الاستقامة في الدين، والصبر على المواجهة والاذى والصلابة في الموقف من الكافرين وألا يركنوا الى الذين ظلموا من الجبابرة والمستكبرين، ثم تنتقل هذه الآيات الكريمة من هذا الجو المشحون بالصلابة والقوة والاستقامة الى جو عبق بالصلاة والذكر، طرفي النهار وزلفاً من الليل، وكأنما الآيات الكريمة تتحدث عن وجهي حقيقة واحدة عندما تنتقل من ذلك الجو السياسي الجهادي المعبأ بالعمل والتحرك والصمود، الى هذا الجو العبادي الخاشع بين يدي اللّه تعالى..

(فاستقم كما أمرت* ومن تاب معك* ولا تطغوا* انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار* وما لكم من دون اللّه من اولياء ثم لا تنصرون* واقم الصلاة طرفي النهار* وزلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين)(٣).

واليك طرفاً من سيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وسنته في عباداته واقباله على اللّه تعالى في زحمة اعماله السياسية والجهادية في مكة والمدينة، ونبذاً من سيرة اهل بيته ومن اهتدى بهديهم وسنتهم.

(كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر اللّه)(٤).

(وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه)(٥).

وروى الطبرسي في الاحتجاج عن موسى بن جعفر(ع) قال : (كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يبكي، حتى يبتل مصلاه من خشية اللّه عز وجل..).

وفي المناقب (كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يبكي حتى يغشى عليه فقيل له : (أليس قد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً).

وروى الديلمي في الارشاد : (ان ابراهيم (ع) كان يسمع منه في صلاته أزير كأزير المرجل، من خوف اللّه تعالى وكان رسول اللّه كذلك).

وعن الشيخ ابي الفتوح في تفسيره عن ابي سعيد الخدري قال : (لما نزل قوله تعالى :

(واذكروا اللّه ذكراً كثيراً)

اشتغل رسول اللّه صلى الله عليه وآله بذكر اللّه حتى قال الكفار انه جن)(٦).

وفي الكافي عن ابي عبد اللّه (ع) قال : (كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يتوب في كل يوم سبعين مرة).

وفي التهذيب عن معاوية بن وهب قال : سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول : (كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله ينام ما شاء اللّه فاذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره في السماء، ثم تلا الآيات من آل عمران :

(ان في خلق السماوات والارض)

ثم يستن، ويتطهر، ثم يقوم الى المسجد، فيركع اربع ركعات على قدر قراءته.. ركوعه وسجوده على قدر ركوعه. يركع حتى يقال متى يرفع رأسه ؟ ويسجد حتى يقال متى يرفع رأسه ؟ ثم يعود الى فراشه فينام ما شاء اللّه ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم الى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين ثم يخرج الى الصلاة)(٧).

وعن عروة بن الزبير قال : (كنا نتذاكر في مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم اعمال اهل بدر وبيعة اهل الرضوان فقال ابو الدرداء : الا اخبركم بأقل القوم مالاً واكثرهم ورعاً واجتهاداً في العبادة ؟ قالوا: من ؟ قال : علي بن ابي طالب (ع) رأيته في حائط بني النجار يدعو، ثم انغمر في الدعاء فلم أسمع له حساً وحركة، فقلت : غلب عليه النوم لطول السهر، اوقظه لصلاة الفجر فأتيته، فاذا هو كالخشبة الملقاة، فلم يتحرك، فقلت : إنا للّه وإنا إليه راجعون مات واللّه علي بن ابي طالب (ع).

فأتيت منزله مبادراً انعاه اليهم، فقالت فاطمة (ع) : يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته فأخبرتها الخبر فقالت : هي والله يا أبا الدرداء الخشية التي تأخذه من خشية اللّه، ثم أتوه بماء فنضحوا على وجهه فافاق، ونظر

الي وانا ابكي، فقال ما بكاؤك يا أبا الدرداء ؟ فقلت : بما أراه تنزله بنفسك فقال (ع) :

«كيف بك اذا رأيتني ادعى الى الحساب، وأيقن اهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ شداد وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار واسلمتني الاحباب، ورفضني اهل الدنيا لكنت أشد رحمة بي بين يدي من لا تخفى عليه خافية»(٨).

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد قتل امير المؤمنين (ع) (فقال : صف لي علياً ؟ فقال : أعفني فقال : أقسمت عليك لتصفنه.

قال : اما اذا كان ولا بد فانه كان واللّه بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنفلق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب

كان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه ونحن واللّه مع تقريبه لنا وقربه منا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له.

يعظم اهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله..

واشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد ارخى الليل سدوله وغارت

نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم(٩) ويبكي بكاء الحزين يقول :

(يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إليّ تشوقت ؟ هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير، وخطرك كبير وعيشك حقير آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق..».

فبكى معاوية وقال : رحم اللّه أبا الحسن، قد كان واللّه كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ فقال : حزن من ذبح ولدها في حجرها، فهي لا يرقى دمعها ولا يخفى فجعها)(١٠).

(ودخل ابو جعفر (ع) على ابيه السجاد (ع) فاذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه احد، فرآه، وقد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانخرم انفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام للصلاة.

قال أبو جعفر : فلم أملك نفسي حين رأيته بتلك الحال من البكاء، فبكيت رحمة له، واذا هو يفكر فالتفت اليّ بعد هنيهة وقال :

يا بنّي اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن ابي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده وقال : من يقدر على عبادة علي بن ابي طالب (ع)(١١).

وكان اذا توضأ يصفر لونه فيقول له اهله : ما هذا الذي يغشاك فيقول أتدرون لمن أتاهب للقيام بين يديه)(١٢).

وعن جعفر بن محمد الصادق (ع) قال : (كان ابي علي بن الحسين رضي اللّه عنه اذا حضرت الصلاة يقشعر جلده ويصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويقف تحت السماء ودموعه على خديه، وهو يقول: لو علم العبد من يناجي ما انفتل..

ولقد برز يوماً الى الصحراء فتبعه مولى له فوجده وقد سجد على حجارة مسحنة(١٣)، قال مولاه : فوقفت وانا اسمع شهيقه وبكاؤه فأحصيت الف مرة وهو يقول :

(لا اله الا اللّه تعبداً ورقاً، لا اله الا اللّه ايماناً وصدقاً).

ثم رفع رأسه من سجوده، وأن وجهه ولحيته قد غمرا بالتراب ودموع عينيه منحدرة على خديه)(١٤).

وقال الباقر (ع) (ان ابي علي ابن الحسين (ع) ما ذكر نعم اللّه عليه الا سجد، ولا قرأ آية من كتاب اللّه عز وجل فيها سجود الا سجد، ولا دفع عز وجل عنه سوءاً يخشاه او كيد كائد الا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة الا سجد، ولا وفق لاصلاح بين اثنين الا سجد، وكان اثر السجود في جميع مواضع سجوده فيسمى السجاد لذلك)(١٥).

وعن أبي حمزة عن أبيه : (رأيت علي بن الحسين (ع) في فناء

الكعبة من الليل وهو يصلي فأطال القيام حتى جعل مرّة يتوكأ على رجله اليمنى ومرة على رجله اليسرى ثم سمعته يقول بصوت كأنه باك : يا سيدي تعذبني وحبك في قلبي ؟ اما وعزتك لئن فعلت لتجمعن بيني وبين قوم طالما عاتبتهم فيك)(١٦).

وان تعجب فعجب ان تحرص سيدتنا زينب بنت علي (ع) ان لا تفوتها نافلة الليل حتى ليلة الحادي عشر من محرم على مقربة من الاجساد الطاهرة.

فقد روي ان سيدتنا زينب بنت امير المؤمنين (ع)(١٧) ما تركت تهجدها للّه تعالى طوال دهرها حتى ليلة الحادي عشر من المحرم.

وروي عن زين العابدين (ع) قال : (رأيتها تلك الليلة تصلي من جلوس).

وعن الفاضل البيرجندي عن بعض المقاتل المعتبرة عن مولانا السجاد (ع) انه قال : (ان عمتي مع تلك المصائب والمحن النازلة بها في طريقنا الى الشام ما تركت نوافلها الليلية)(١٨).

وقالت فاطمة بنت الحسين (ع) : (واما عمتي زينب فأنها لم تزل قائمة في تلك الليلة (اي العاشر من المحرم) في محرابها تستغيث الى ربها، فما سكنت لنا عين ولا هدأت لنا رنة).(١٩).

وروى الشيخ جعفر النقدي رحمه اللّه عن بعض المتتبعين للامام السجاد (ع) انه قال :

(ان عمتي زينب كانت تؤدي صلاتها من قيام الفرائض والنوافل وعند سير القوم بنا من الكوفة الى الشام وفي بعض المنازل كانت تصلي من جلوس فسألتها عن سبب ذلك فقالت : اصلي من جلوس لشدة الجوع لانها كانت تقسم ما يصيبها من الطعام على الاطفال)(٢٠).

وما زلنا نتحدث عن عبادة سيدتنا زينب (ع) وانقطاعها الى اللّه في مسيرتها الى كربلاء ثم الى الشام والمدينة فلا بأس ان نعرض هذه الصور الرائعة التي يذكرها المؤرخون لاصحاب الحسين (ع) ليلة العاشر من المحرم، يقول المؤرخون :

(وبات اصحاب الحسين (ع) في تلك الليلة، ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد)(٢١).

سمة العبيد من الخشوع عليهم***للّه ان ضمتهم الاسحار

واذا ترجلت الضحى شهدت لهم***بيض القواضب انهم احرار

***

وفي تاريخنا الجهادي والحركي نلتقي كثيراً بهذه المشاهد الرائعة من اقتران الجهاد البطولي في ساحات الوغى والدعوة الى اللّه بالعبادة وتهذيب النفس والابتهال والتبتل والتهجد وقيام الليل.

ومن اروع هذه المشاهد مشاهد التهجد والتنفل على جبهة القتال لجند الاسلام، حيث يرابط جند الاسلام على ثغور الدولة الاسلامية يستقبلون شظايا القنابل ورصاص العدو بصدورهم..

يقف هؤلاء الابطال في الليالي الظلماء خلف الدبابات على خط النار بين يدي ربهم عز وجل، يناجونه ويتضرعون اليه ويسجدون على تراب الجبهة ويطيلون السجود والبكاء حتى تبتل ارض الجبهة بدموعهم.

ولئن كان هؤلاء الابطال لا يتركون صلاة الليل على خط النار وفي مواجهة العدو فإنهم يقتفون في ذلك خطى قائدهم الامام الخميني حفظه اللّه.

يقول الشيخ الانصاري أحد المقربين الى الامام في ترجمة حياة الامام حفظه اللّه:

(لم يترك الامام صلاة الليل منذ خمسين سنة) فالامام يتهجد في كل ليلة، في المرض، وفي الصحة، وفي السجن وخارج السجن، وفي حالة الابعاد، وحتى على سرير مستشفى القلب في الليلة التي أمر الاطباء بنقل الامام من قم الى مستشفى القلب في طهران لم يترك الامام صلاة الليل في تلك الليلة، كانت ليلة عسيرة وكان الثلج قد نزل بكميات كبيرة وبقي الامام في سيارة الاسعاف على تلك الحالة عدة ساعات ومع ذلك عندما استقر الامام على سرير مستشفى القلب في طهران بادر الى صلاة الليل وفي الليلة التي انتقل فيها الامام من باريس الى طهران صعد الى الطابق العلوي من الطائرة وصلى هناك صلاة الليل.

(لا يترك الامام تلاوة القرآن في كل فرصة مناسبة وعادة يقرأ القرآن بعد صلاة الصبح، وقبل صلاة الظهر والعصر، وقبل المغرب والعشاء، ويتفق كثيراً عندما ندخل نحن على الامام نجده يقرأ القرآن)(٢٢).

وبعد فلا أريد ان استرسل اكثر من هذا المقدار في هذه المقولة واحب ان اذكر اخواني الدعاة الى اللّه تعالى، قبل ان اقطع هذا الحديث بضرورة الاهتمام بهذا الجانب من شخصيتهم، فان شخصية الداعية لا تتكامل ولا تنمو النمو اللازم لها، ما لم يحاول الداعية ان ينقطع الى اللّه تعالى في حياته، ويشرب قلبه بحب اللّه وما لم يأنس بذكر اللّه، واقامة الصلاة في الليالي الداجية الظلماء، فأن البكاء، والتهجد، وتلاوة القرآن في سكون الليل وظلماته يحيي القلوب الميتة، ويشرح الصدور، ويبعث النور في حياة الانسان.

واذا كان هذا البعد ضرورياً في حياة كل انسان ففي حياة الدعاة اكثر ضرورة واهمية.. والدعاة اولى من غيرهم بالاهتمام بهذا الجانب الحيوي والاساسي في شخصيتهم.

ان توثيق العلاقة باللّه تعالى والانقطاع اليه عز وجل يؤمن سلامة المسير والسداد للداعية ويقيه عن المزالق والمخاطر ويربط على قلبه في الهزات والزلازل..

ان ثبات الداعية على ارض المعركة والمواجهة، واستقامته، ومقاومته للتحديات وصبره باتجاه الازمات والمتاعب، وقدرته في تجاوز العقبات.. لا يأتي فقط نتيجة الوعي والفهم، والممارسة، والتجربة والخبرة، وانما يمده اللّه تعالى بها، ويشرح صدره، فيفرغ عليه صبراً، ويثبت له على أرض المعركة قدماً، وينصره على اعدائه..

وهذا المدد الالهي اكثر ما ينزل على العبد، ينزل عليه في ساعات

التضرع، والبكاء، والانقطاع اليه تعالى.

والتضرع والبكاء ورقة القلب من افضل الفرص التي تؤهل الانسان لهبوط الرحمة من جانب اللّه تعالى.

فلا ينال الانسان رحمة اللّه تعالى ولا يكون قريباً من اللّه تعالى كما يكون كذلك عندما يرق قلبه، وتجري عيناه بالدموع، ويخشع قلبه، ويقف بين يدي ربه قائماً، او يطرح نفسه على الارض ساجداً..

وهذه الحالة هي اهم مصادر التسديد والتوفيق والثبات والاستقامة في حياة الدعاة..

والشيطان يكمن للدعاة في كل مكمن ويتربص بهم الدوائر في كل فرصة للايقاع بهم، وتثبيطهم وزرع اليأس في نفوسهم، وتحريفهم عن المسير، وتلبيس الامر عليهم..

وليس للداعية في هذه المزالق التي يترقب فيها الشيطان الدعاة غير اللّه تعالى، ينقطع اليه، ويتضرع بين يديه ويسترحمه..

وبقدر ما ينقطع الداعية اليه عز وجل يمده منه بالرحمة والتأييد والثبات والصبر والسداد..

***

وبعد فلا يسعني في هذه المقدمة ان لا اتحدث شيئاً عن مؤلف هذا السفر الجليل : الشهيد السعيد، والعبد الصالح، الشيخ حسين معن رحمه

اللّه، الذي اختطفته ايدي الاجرام البعثية من بيننا وهو بعد في غضاضة شبابه الطاهر النقي.

إن قراءة سريعة وعابرة لهذا الكتاب يكشف عن ان كاتب هذا الكتاب لا يتحدث فيه عن دروس ونظريات وافكار قرأها وسلم بها، وانما يتحدث عن معاناة، وان هذه الاشواط التي يصورها المؤلف في الكتاب لتحرك الانسان الى اللّه تعالى.. قد قطعها المؤلف غالباً فجاء الكتاب تعبيراً عن معاناة ومعايشة.

وهذه الناحية من اهم خصائص المؤلف الشهيد رحمه اللّه، حيث كان بفضل اللّه تعالى يضم الى الذهنية الخصبة والفكر الوقاد، والنبوغ المبكر، والرؤية النافذة.. قلباً واعياً وبصيرة نافذة، وصدراً شرحه اللّه تعالى، ونوراً في القلب، وانقطاعاً الى اللّه، وتبتلاً وابتهالاً ويقيناً باللّه..

والى هذا وذاك، كان يضم رحمه اللّه معاناة الداعية، وخبرة وتجربة العاملين في سبيل اللّه، ولا يمل هم الدعوة، ويسعى في تحقيق اهدافها بنفس صابرة مطمئنة لا يعرف التعب والكلل ولا يمل من العمل ولا يتسلل الى روحه الكبيرة اليأس ولا يجزع من ساحة العمل في حالة من الاحوال.

كانت مدرسته محرابه، ومحرابه ساحة عمله وجهاده، وكان يجمع بشكل يبعث على الاعجال بين هذه السوح الثلاث، ويعمل فيها جميعاً بتوازن عجيب، فهو عالم ضليع يراهق الاجتهاد رغم شبابه الغض.

وكان يطرح فيه استاذه الكبير الشهيد الصدر رحمه اللّه آمالاً كبيرة

لمستقبله في الفقاهة والعلم، وفي نفس الوقت كان يتميز بروحه الشفافة النقية والصافية، وانقطاعه الى اللّه تعالى، وتهجده، ودعائه، ومداومته على ذكر اللّه، ثم كان الى جنب ذلك من خيرة الدعاة الى اللّه تعالى في الساحة الاسلامية في العراق، في السراء والضراء لا يكل ولا يتعب ولا يعرف اليأس والخوف طريقاً الى قلبه، يتقد نشاطاً وعملاً، ويبعث في نفوس اخوانه الهمة، والنشاط، والامل والحركة.. وقليل من الناس كذلك وذلك من فضل اللّه تعالى.

واذا علمنا ان الشهيد السعيد الشيخ حسين معن قد استطاع ان يجتاز هذه الاشواط البعيدة في العمل ويحقق هذه المكاسب ويبلغ هذه القمم الرفيعة من العلم والعمل وهو بعد في سني الشباب لم يتجاوز العشرينات من عمره كان ادعى للاعجاب.

***

ومن الحق ان نقول في هذا الشهيد السعيد وفي الدعوة المباركة التي التزمها، وامتزجت بدمه، وروحه، وعقله واحاسيسه، فكانت جزءاً لا يتجزأ من وجوده.. ان الدعوة الاسلامية هي التي فجرت هذه الكفاءات والمواهب والقدرات في نفس شهيدنا السعيد وانه مدين الى الدعوة بالكثير من الكفاءات والقابليات والمنح..

ان الدعوة الاسلامية لا تبدع هذه الكفاءات، وانما يبدعها اللّه تعالى بفضله، ويودعها حيث يشاء في نفوس عباده، ولكن الدعوة الاسلامية، وساحات العمل والجهاد تكتشفان هذه المواهب، والكفاءات، وتفجرانها

وهذه سنة اللّه تعالى في حياة العاملين. فان العمل والجهاد كما يأخذان من العاملين يعطيانه ايضاً، وما يعطيان اكثر مما يأخذان منه.

وقد تفتحت مواهب هذا الشاب وقدراته في ربيع عمره في هذا الحقل المبارك فاتى ثماره طيبة شهية مباركة..

ولقد هيأ اللّه تعالى لشباب العراق بشكل خاص في الدعوة الاسلامية المباركة فرصة مباركة للنمو والانطلاق والتحرك، بعد سنوات عجاف من الخمول والضياع والحيرة والقلق والسقوط.. مرت على العراق وعلى العالم الاسلامي جميعاً.

فانطلقت هذه المسيرة تكتسح من امامها رواسب سني التخلف، وتبعث الحركة والوعي والقوة والعزم في نفوس الشباب..

وفي هذا الوسط الحركي المبارك نشأ جيل من الشباب يتطلع الى اقامة حكم اللّه على وجه الارض، وتعبيد الانسان للّه، وكسر كبرياء الطاغوت وهيبته واعادة الاسلام الى صلب الحياة، واعطاء الاسلام الدور القيادي الفعال في حياة الانسان.

وتحرك هذا الجيل بهذا الاتجاه وعمل على تطهير المجتمع الاسلامي في العراق من رواسب سنوات التخلف ونفوذ الاستكبار، ومقاومة الحكام العملاء الذين كانوا يمثلون مصالح

الاستكبار في المنطقة، ومواجهة التحديات بصبر وايمان، فكان جو الدعوة الاسلامية في العراق مزيجاً من الايمان والفكر والجهاد.

{ ٢٣ }

وشاء اللّه تعالى ان تنطلق هذه المسيرة المباركة من النجف الاشرف بالذات، قاعدة الفقاهة ومدرسة اهل البيت منذ الف سنة، وشاء اللّه تعالى ان تكون بداية هذه الحركة على يد عدد من كبار الفقهاء وعلماء هذه الحوزة المباركة، وشاء اللّه ان يكون الرعيل الاول من ابناء هذه المسيرة خليطاً من طلاب الحوزة العلمية في النجف الاشرف وطلبة الجامعات، تصافحاً وتعانقاً في جو الدعوة، وانطلقا في موكب هذه المسيرة.

والذي يعرف ما بذلت اجهزة الاستكبار العالمي وعملاؤه من جهد لعزل هذين القطاعين المؤثرين في المجتمع الحوزة والجامعة.. يعرف قيمة الدعوة الاسلامية ودورها الكبير في كسر الحواجز النفسية والاجتماعية، والسياسية بينهما وتشكيل مسيرة واحدة منهما..

واستمرت هذه المسيرة المباركة، حتى التحمت بمسيرة الثورة الاسلامية في ايران، بقيادة الامام الخميني حفظه اللّه.. في مثل هذا الجو المزدوج العبق : الحوزة العلمية، والدعوة الاسلامية، نشأ الشهيد الشيخ حسين معن، رحمه اللّه، وتفتحت كفاءاته وامكاناته، وانطلق باتجاه العمل الاسلامي، وتحرك، ودعا، وكتب، ودرّس، وحاضر، وخطب في الجماهير، وربى، وجاهد، وكافح جلاوزة البعث، وسُجن، وعُذب في اللّه، ثم استشهد، رحمه اللّه، وختم اللّه حياته بمسك الشهادة وآثره بها.

***

واذا ذكرنا الشيخ حسين معن رحمه اللّه، فلا يسعنا ان لا نذكر الجهود التي بذلها أستاذه الكبير الفقيه والمفكر الاسلامي الرائد السعيد السيد

الصدر رحمه اللّه في تربية واعداد الشهيد.

فقد لمح السيد الشهيد الصدر رحمه اللّه في هذا الشاب ملامح الذكاء والنبوغ المبكر والاصالة والنجابة فاحتضنه برعايته الخاصة وأسبغ عليه عواطفه الابوية المباركة، وتبنى تربيته، وكان يضع فيه ثقته وآمالاً كبيرة..

وكان الشهيد الشيخ حسين معن يحفظ لأُستاذه الكبير الى آخر حياته احتراماً وحباً خالصاً.. فرحم اللّه الاستاذ والتلميذ، وحقق اللّه تعالى آمالهما بسقوط اعمدة الكفر وقيام حكم اللّه على ارض الرافدين وسلام عليهما يوم ولدا ويوم استشهدا ويوم يبعثان حيين.

محمد مهدي الآصفي

٢١ / صفر / ١٤٠٥ هـ

هوامش المقدمة : -

---

(١) - سورة التوبة / ١١٢

(٢) - سورة الفتح / ٢٨

(٣) - سورة هود / ١١٢ - ١١٥

(٤) – سنن النبي ص ٣٥٦ عن المناقب ومجمع البيان

(٥) – سنن النبي عن البحار ج ٥٣ ص ٣٣٩

(٦) – سنن النبي ص ٣٤

(٧) – سنن النبي ص ٣٤

(٨) – سنن النبي ص ٢٤٠ عن التهذيب ٢ / ٣٣٤ والكافي ٣ / ٤٤٥

(٩) – الانوار العلوية للشيخ جعفر النقدي

(١٠) – السليم : الملدوغ

(١١) – الانوار العلوية ٤٠٥ – ٤٠٦

(١٢) – كشف الغمة للاردبيلي ٢ / ٢٩٧

(١٣) – حجارة يسحق عليها الطيب

(١٤) – حلية الابرار هاشم البحراني ج ٢ ص ١٣

(١٥، ١٦) – نفس المصدر ج ص ٢٤

(١٧) – حلية الابرار ص ٢ / ١٤

(١٨) – زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي

(١٩) – مثير الاحزان للشريف الجواهري ص ٥٦٠

(٢٠) – زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي ص ٦٣

(٢١) – مثير الاحزان ص ٥٦

(٢٢) – خصائص حياة الامام الخميني ٢٠، ٢١، ٢٢

نبذة مختصرة عن حياة المؤلف الشهيد رحمه اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تنطلق العبقرية والعظمة من اماكن معينة او حيز محدود فحسب، سواء كان هذا الحيز عائلياً او دراسياً او ما الى ذلك، بل قد تنطلق من كوخ متواضع في قرية نائية او من عائلة مغمورة وغير مشهورة بالعلم او الحكم او السياسة..

في قرية صغيرة من قرى كربلاء الدم والشهادة والثورة كانت تسكن عائلة الحاج ناصر – احد المتنفذين في عشيرته (البوحِسن) – وكان الشاب (معن) اكبر اولاده متطلعاً منذ نعومة اظافره لطلب العلم ومتشوقاً للدراسة الدينية ولكن والده يرفض ذلك بشدة فاذا رأى هذا الشاب طلاب العلم يؤمون كربلاء للدراسة يبقى متحسراً لحرمانه من نعمة العلم فاذا عرض طلبه على والده زجره بشدة واخيراً إعتمد على نفسه فتعلم القراءة والكتابة من زملائه في القرية، وقرأ القرآن الى أن صار معلماً فيه.. وعندما رزقه الله ولداً كانت الامنية الكبرى في نفسه : ان يرى ولده طالب علم فلما اكمل ولده الصف السادس الابتدائي منعه من مواصلة الدراسة في المدارس الرسمية.. وعندما بلغ سن التكليف ذهب به الى الحوزة العلمية في كربلاء.. وهكذا بدأ شهيدنا حياته الدراسية، ولم تمض عليه في حوزة كربلاء الا عدة شهور.. وبينما كان الوالد يستقبل زوار الامام الحسين (عليه السلام) من المشاة في الزيارة الشعبانية، حيث كان يفتح

بيته لزوار الامام الحسين (عليه السلام) في هذه المناسبة استضافه احد طلاب العلم (٢٣) في النجف الاشرف، ودار الحديث حول الدراسة في الحوزة، فاقترح عليه ان ينقل ولده الى الحوزة العلمية في النجف الاشرف، بعد ان رأى فيه علائم الذكاء والنبوغ، رغم صغر سنه فما كان اليوم الثاني الا واصبح الوالد في النجف الاشرف ليدخل ولده في مدرسة العلوم الاسلامية.

ومن هنا برزت معالم النبوغ في شخصية شهيدنا، فجلب ذكاؤه نظر المجدين من طلاب العلم فحظي باهتمامهم ورعايتهم لما يتسم به من ذكاء خارق، وذهن ثاقب، وجدية منقطعة النظير، حتى كان الامام الشهيد الصدر يسميه بالطالب المجد.. ومن جديته ان الكتاب ما كان ليفارقه ابداً حتى في المجالس العامة مع اخوانه فبينما كانوا يتفكهون في مجالسهم تراه منشداً الى كتابه، واذا اشكلت عليه مسألة من مسائل الفقه والاصول تجده يعيدها مرات ومرات ولا يتركها حتى يفهمها، ويهضمها جيداً، وهكذا استمر شهيدنا بجدية متناهية حتى قطع مرحلة السطوح في سنوات لا تتعدى اصابع اليد ليلتحق بالدراسات العليا المعبر عنها ب(البحث الخارج) وما مضت سنوات حتى لمع نجمه في حلقات الدرس العليا..

ومما زاد في جديته وفاعليته انتماؤه لحزب الدعوة الاسلامية عام ١٣٩٠هـ، وظل مندكاً في هذا التيار المبارك، رغم الهجمة الشرسة، التي شنتها سلطات البعث الكافر في بغداد، على الدعوة المباركة، سنة ١٣٩٤هـ ، فطورد شهيدنا الغالي على اثرها مطاردة عنيفة جداً، مما حمله على تغيير زيه، لمواصلة عمله.. وبالرغم من هذا، لم يكن ليوقفه عن تحصيله،

{ ٢٩ }

فكان يكلف زملاءه، بتسجيل محاضرات الامام الشهيد الصدر والسيد الخوئي ليتابعها يوماً بيوم فلما ضاق به الامر اضطر لأن يخرج من النجف الاشرف ليختفي في محافظات اخرى وبالرغم من هذا الحرج والمضايقة لم ينقطع عن العمل الرسالي فكان يلتقي بإخوانه في اماكن محددة ليتدارس معهم ظروف الدعوة فيوصلوا له الاخبار ويأخذوا منه التوجيهات والطروحات الرسالية..

اما الساعات التي ينفرد فيها وحده في المكتبة فقد كنت أرى منه : العجب العجاب في الجدية والتهام الكتب بمختلف انواعها.. كنت أراقبه عن كثب فاذا انبلج النهار ثنى ركبتيه وانكب على المطالعة الى وقت الظهر وهكذا بقية الليل والنهار لا يتوقف عن البحث والدرس وقد كنت احصي الساعات التي يقضيها في القراءة والبحث حتى كانت تصل الى (١٦) ساعة في الليل والنهار وربما بلغ في بعض الاحيان اكثر من ذلك وغالباً ما كنت أراه منكباً على الورقة والقلم حتى يطلع الفجر.. حتى اذا اعترضت عليه يوماً لكثرة اتعابه قال :

(ان هدفنا اوسع واكبر من اعمارنا ونحن يجب علينا في اوقات المطاردة واستحالة التحرك ان ننقطع الى الدرس والبحث واذا فسح لنا المجال للعمل فيجب ان ننطلق بكل ما أوتينا من قوة لاقامة الدولة الاسلامية..)

وبناء على هذا الفهم الحركي نجده في فترة اختفائه وعلى وجه التحديد بعد اعدام كوكبة الدعوة الاولى سنة ١٣٩٤ ه – ١٣٩٥ ه انتج عدة بحوث

{ ٣٠ }

في ظرف خمسة اشهر منها :

١ – الحرية في الاسلام.

٢ – بحث ضخم بعنوان (العلاقة الفقهية في الاقتصاد الاسلامي).

٣ – شرح الاسس المنطقية للسيد الصدر.

وكتب اخرى لا اذكرها جيداً.. ولما هدأت العاصفة الهوجاء وخف الطلب، عاد مرة اخرى الى النجف الاشرف ليواصل عمله بصورة اوسع وهنا تجلت خصاله الرسالية وبرزت شخصيته العلمية، واستطيع ان اوجزها بالنقاط التالية :

١ – الاستماتة في سبيل اللّه :

كان شعاره (المستميت لا يموت) وكان يقول : اننا نحن الدعاة يجب ان لا نفكر بشيء اسمه الحياة حتى قيام الحكومة الاسلامية في العراق، اننا وقود الثورة الاسلامية والتفكير بغير هذا غير صحيح فما علينا الا ان نتحرك بجد وفاعلية ونشاط ونبذل كل شيء في سبيل هذا الهدف العظيم حتى تسفك دماؤنا في سبيل اللّه تعالى..

وكم كان اصدقاؤه يحذرونه من سطوة الظالمين لحقدهم عليه، وحبذوا له الخروج من العراق الا انه رفض ذلك بشدة واصر على مواصلة عمله في العراق وان ادى ذلك الى استشهاده.. وكم مرة قال : اننا باقون ها هنا تسفك دماؤنا.. ولتركز هذا العنصر في شخصيته ما كان الخوف ليعرف الى

نفسه طريقاً ابداً .. ذلك لانه أعطى نفسه للّه.. وكان يرى انها ملكه يتصرف بها كيف يشاء.

٢ – الجدية والدأب على العمل :

كان دائب العمل ليل نهار على الصعيدين الفكري والاجتماعي بلا انقطاع ولا توقف.. بين دراسة وتدريس وبحث، ودعوة الى اللّه متواصلة لا تفتر، ولا تلين. وكنت أرى منه العجب فهو كلما إزدادت الصعاب، والمصائب يزداد عزيمة، ومضاء، ومواصلة للعمل. إن انبعاثه للعمل بهذه الدرجة يدل على أن نفسه وصلت الى حد اليقين في إيمانها بصحة الفكر الذي نذر نفسه له، حتى عاد لا يرى في الوجود قوة مؤثرة غير القوة المطلقة التي آمن بها..

كل هذا كان يستوحى من سلوكه، وصموده، واصراره على العمل، كانت تصله اخبار سيئة جداً فلا تعيقه عن عمله ولا تؤثر فيه، بل كان يعتبر ذلك امراً طبيعياً وخلاصة القول : ان الرجل كان دؤوباً مجداً في عمله بمستوى قلّ نظيره في اوساط المجدين..

٣ – الابتكار والتفنن في اسلوب العمل والبحث :

منذ سنة (١٣٩٤ هـ) وقوى الظلم والعدوان تواصل البحث عنه في كل حدب، وصوب. وما تركت مكاناً تتوقع ان تجده فيه، الا اقتحمته، وبأساليب متباينة، الا انها لم تفلح الا بعد ست سنوات، ولم يكن هو المقصود وانما كان من باب الصدف.

لقد اكتسب مهارة كبيرة في العمل السري، والتملص من الاعداء،

والتخفي عنهم الى حد إنه دخل السجن باسم مستعار وحكم عليه بالسجن المؤبد، ونقل الى أبي غريب الى ان كشفه اعتراف احد الموقوفين سامحه اللّه..

واما اسلوبه في البحث، والمناظرة فقد كان مبتكراً وجامعاً ومانعاً حيث انه كان واسع الثقافة في العلوم الحديثة على شتى اصعدتها. اضافة الى تخصصه في العلوم الاسلامية.. كان دقيقاً وادبياً في المناظرة رأيته وقد ناظر الشيوعيين، ودعاة الاشتراكية، ومروجي الحضارة

الغربية يستمع اليهم الى ان يفرغوا ما في جعبهم.. وبعد ذلك اراه ينقضّ على افكارهم مفنداً، وناسفاً وما يقومون عنه الا وهم قد نبذوا ما جاءوا به..

قصده احد دعاة الوجودية يوماً، وبقي فترة يتحدث له عن الفلسفة الوجودية، ولما انتهى، اخذ الشيخ الشهيد يشرح له عن الفلسفة الوجودية ابتداءاً بتأسيسها ومروراً بأهدافها وانتهاءاً بأسرارها وابعادها فبقي ذلك الرجل متعجباً وظن انه وجودي مثله، وبعد ان شرحها له وشده اليه انقض على الفلسفة الوجودية واخذ ينسفها لبنة لبنة الى ان انتزعها من ذهنه وقام عنه بعد مجلس طويل، وهو يقول عنه عجيب امر هذا العالم ما اعمق ثقافته ! انه لم يكن كلاسيكياً، انه عميق الفكر.

٤ – العمق الثقافي :

كان شهيدنا واسع الباع في العلوم الاسلامية عميق الغور فيها، وخصوصاً : الفقه والاصول والمنطق والفلسفة على ما وصفه عارفوه من زملائه طلاب العلم.

{ ٣٣ }

وقد حضرت دروسه في تدريس المنطق وكتاب فلسفتنا واقتصادنا فكان كالسيل المنحدر من جبل شاهق لا يتوقف في مسألة ولا تشكل عليه قضية، وكان يشرح كتب السيد الشهيد ويزيد عليها وقد اشار مرة الى ان اقتصادنا وفلسفتنا – بالرغم من اكباره لهما – بعد ان قطعا فترة عشرين سنة من الكفاح الفكري أصبحا الآن بحاجة الى المزيد من التوسيع لما استجد من بحوث فكرية في الرأسمالية والماركسية والاشتراكية..

كنت اراه دائماً يركز على بحث الفلسفات الاجنبية الشرقية منها والغربية وكذلك في العلوم الاقتصادية بكل اشكالها. مضافاً الى عمقه الفكري في العلوم الاسلامية. وكان ينوي القيام ببحث مقارن بين القوانين الغربية والدساتير الاسلامية..

كان دائم الاطلاع على ما يستجد من بحوث العلوم الحديثة بصورة مستمرة قلما يفوته كتاب يصدر في ذلك، وعندما تتمعن في مكتبته يأخذك العجب، وتتصور ان صاحب هذه المكتبة فيلسوف ماركسي او يوناني..

وعلى كل فان أبا سجاد كان عالماً، ومفكراً رسالياً بكل ما للكلمة من ابعاد وكان يؤكد دائماً على زملائه وطلابه بقراءة الفكر الاسلامي اولاً واستيعابه، وهضمه، وتمثيله، فاذا وصل الى درجة لا يدخل الشك في نفسه من أي جانب من جوانب الفكر، انتقل الى قراءة الفكر المادي بشقيه الشرقي والغربي.. واخذا الجوانب الايجابية ومقارنته مع الفكر الاسلامي لابراز معالم القوة في شريعة السماء..

{ ٣٤ }

٥ – عمق الوعي الحركي :

اتسم شهيدنا بروح حركية عالية لا تفتر ولا تلين ابداً في كل الظروف ولهذا لم يكن يهدأ له بال دون عمل وخدمة متواصلة للمبدأ السامي رغم تعالي روح الحركية وسيطرتها على نفسه لم يكن ارتجالياً في اعماله بل كان دقيقاً في التخطيط والتنفيذ، وقلما سلك طريقاً او قام بعمل قبل أن يحسب له الف حساب. ولهذا واصل عمله في العراق طيلة ست سنوات من المطاردة العنيفة، المتواصلة في كل مكان، ولكن لم يثبت على نفسه أي اثر ولم يعط أي مستمسك يطمع السلطة الغاشمة فيه. كان عالي الانضباط دقيق التحرك بين بغداد، والنجف، وديالى، والبصرة متنكراً، وحاملاً هوية مزورة يعبر بها نقاط التفتيش.

وكان عميق الغور كتوماً الى حد كبير بحيث انني عشت معه فترة طويلة، ولم استطع ان اقف على حقيقة انتمائه للدعوة المباركة، الا بعد ان عرفتها من بعض اصدقائه وزملائه. ونتيجة لتفانيه وذوبانه في مبدئه الحركي كان يخرج في ايام المحنة من الصباح، ولا يرجع حتى منتصف الليل متنقلاً من فرد الى آخر يقضي حاجة هذا ويوجه ذاك وينقذ الثالث من ورطته.

٦ – انشداده للثورة الاسلامية في ايران :

عندما انفجرت الثورة الاسلامية في ايران ملكت على شهيدنا كل احاسيسه، ومشاعره، ووقته. لذا كنا نراه دائم التفكير فيها، ويتابع احداثها ساعة بعد ساعة، ويرفد اخوانه بالموقف السياسي، والتحليل

العميق للأحداث، ويؤكد للمؤمنين بما يبعث الامل في انتصار الاسلام، ويقول : (ان الامام الخميني سيعود الى ايران، ويقود المسيرة، ويحطم كل عروش الطاغوت، وان الانتصار حتمي ان شاء اللّه وعلينا ان نكون الامتداد الطبيعي للثورة الاسلامية المظفرة وان نعمل بكل جهودنا على انجاح تجربة الجمهورية الاسلامية في ايران اكثر من اهتمامنا في العراق، لانه لا سامح اللّه لو انتكست هذه الثورة، فلا يقوم للاسلام قائم حتى قيام صاحب الامر.. وعلينا ان نعمل بكل توجيهات الامام حفظه اللّه.. ولذلك كان حريصاً كل الحرص في بيان ابعاد الثورة واهدافها، وعظمتها، ولذا رأيناه يشد الناس الى قيادة الامام، ويعمل على تحصيل صور الامام ليوزعها في النجف الاشرف وخارجه..).

وكثيراً ما كان يجلب لنا اكثر من كتاب كان ممنوعاً في العراق يومذاك، وكانت هذه الكتب قد تهرأت وتلف بعض موضوعاتها من كثرة تداولها.

ولا انسى ذلك الموقف الذي كان يتتبع فيه عناوين الكتب في مكتبتي وافرز مجموعة من الكراسات منها كتب قد حصلت عليها من دار التوحيد وكان مثل هذه الكتب قليلاً ومحذوراً في العراق آنذاك، وطلب مني ان يأخذها لينتفع بها الاخوة الدعاة، فلما قلت له : ارجو المحافظة

عليها وارجاعها قال : ان الدعوة المباركة قد علمتنا ان الداعية لا يملك شيئاً هذه الاشياء مثل تساهم في تغيير الامة وان طلابنا بحاجة اليها فينبغي ان لا نبخل عليهم(٢٤).

٧ – الايثار ونكران الذات :

في ايام المحنة الاخيرة سنة ١٩٧٩ برزت على شهيدنا سمة نكران الذات، وذوبان المصلحة الخاصة في مصلحة الاسلام الى حد لا يصدق. فقد كان الدعاة المشردون من المحافظات الاخرى يأوون الى النجف الاشرف للتخفي فكان ابو سجاد يبذل كل جهده لتأمين اختفائهم وراحتهم ووصلهم بحلقات العمل.. ولهذا تراه يخرج من بيته ويسكن فيه عائلة، او عائلتين من المطاردين ويذهب هو ليفتش عن مأوى له ولاطفاله، ولقد رأيته واللّه يشهد يدور على الطلبة ليأخذ من هذا صحناً، ومن ذاك قدراً ومن ثالث فراشاً، ليؤمن استقرار الدعاة المشردين حتى خرج من ثلاث بيوت أجرها لنفسه وبقي هو وعائلته في بيت ليس فيه غير فراش لا يكفي لشخص واحد، وتوسد هو وزوجته حجراً في ذلك البيت بعد ان امن مأوى اكثر من عشرين عائلة من عوائل الدعاة في النجف الاشرف، وكنت اراه فاقد الراحة اذا عرف بأن احد الاخوة الدعاة في حاجة شيء.. ولا يهدأ له بال حتى يؤمنها اما هو وعائلته فلا يهمه ان وفرها، او لم يوفرها..

٨ – السمو الروحي :

كان شهيدنا عميق التدين، قوي الانشداد الى اللّه تعالى. يتجلى ذلك بدقة التزامه في الاحكام الشرعية.. بصورة واعية تامة.. فاذا ما انفتل الى صلاته تراه خاشعاً خاضعاً باكياً.. واما اذا سكن الليل واختلى بربه تراه ناحباً متوسلاً داعياً.. وكان يتستر على اعماله هذه بحيث يحاول ان لا

يعرفها احد.. واما تكتمه على اعماله، وعدم ذكرها ابداً، فقد كان بدرجة عالية جداً فما سمعته يوماً قال انا الذي قمت بالعمل الفلاني، او تحدث عن انجاز قام به، او عن هدف حققه، او خطوة خطاها.. كان لا يحب ان تذكر اعماله ابداً، ويحرم على الشخص الذي عرفها ان يذكرها. وكان يبني اعداده الروحي على الحب، والخوف والرجاء. كما ذكر ذلك في كتابه الاعداد الروحي.

٩ – تطلعه الى الشهادة :

اذكر يوماً كنا جالسين في النجف مع مجموعة من الاخوة من طلبة العلم وبعض الدعاة.. واخذ كل منهم يتحدث عن إعتقاله وتعذيبه ومواقفه وكان ابو سجاد صامتاً يستمع بدقة لعرض الاخوة فتبسم وقال: (اظن ان اللّه لا يحبني ولذا فاني الوحيد منكم لم يبتلني اللّه بما ابتلاكم) فضحكنا وعلقنا بفكاهة على كلامه وكثيراً ما سمعته يقول، وهو ساجد : اللهم ارزقنا الشهادة

في سبيلك.. وكان يؤكد دائماً ان التطلع للشهادة من العناصر الرئيسية التي يجب ان تتجلى في شخصية الداعية، ومن هذا المنطلق كتب في ختام وصيته : (وأوصي والدَيَّ اذا رزقني اللّه الشهادة ان يجعلا يوم شهادتي كيوم عرسي) وفعلاً عندما سلمت جثته الطاهرة وقفت والدته المثكولة به لتطلق نغمات الفرح التي اطلقتها يوم عرسه..

١٠ – الهم الرسالي

كان الهم بامر الاسلام، وحال المسلمين ووضع الامة واوضاع العاملين، هو الحالة الملازمة لابي سجاد حتى كان يسأل عن كل الامور

المتعلقة بذلك، ويتابع الاخبار والاحداث ويهتم بجميع التفاصيل، ولطالما رأيته يفكر فيما ينبغي ان نعمله، ونسعى اليه للنهوض بحالة الامة وتغييرها بالاسلام، حتى رأيته يستنكر على العامل في سبيل اللّه ان تكون له ساعات يخلد فيها الى الراحة والدعة عن العمل، ومتابعته..

كان في إحدى المرات وفي شهر رمضان المبارك تواقاً لزيارة الاماميين العسكريين في سامراء ولكنه قال : ان الغياب عن العمل ولو لفترة قصيرة هو تفريط وتقصير فلا بد لي ان لا اسافر سفرة كهذه وان كان ذلك السفر طاعة تتحقق فيها زيارة الامامين (عليهما السلام) ولكن ظروف العمل لا تسمح بذلك، ولقد كان يتابع حالة اخوانه، ويتابع شؤونهم المعاشية، وطبيعة اعمالهم الرسالية، فهو يسأل عن طبيعة الاعمال التي قام بها اخوانه من علماء المناطق، وعلاقة المؤمنين بهم، ويسعى جاهداً لتسديدهم ومناصحتهم(٢٥).

١١ – التقشف والزهد(٢٦) :

لم يكن الشيخ ابو سجاد يُرى الا وهو في حالة الكادحين المستضعفين حتى ان احد الاخوة ممن كان يراه في بيتي قد ظن انه عامل، لانه لم ير عليه، الا مظهر ضعاف الناس.

ولقد صحبته مدة تزيد على السنة وهو يرتدي نفس الثوب الذي كثيراً ما ألححت عليه بتركه وطلبت منه ان يتقبل مني هدية لاستبداله، لأنه بالي فرفض بشدة وكان يجيب إنه يكتفي به وهو يسد حاجته.

وحتى الكتاب الذي هو رأس مال طالب العلم، وقد يفرط في كل

شيء، ولكنه لا يفرّط في كتابه، ولا يمكن ان يبيعه او يهديه لاحد، الا ان شهيدنا السعيد الشيخ حسين معن كان يشتري مجموعة من الكتب التي هو بحاجة اليها ثم يسرع في قراءتها. واستخراج ما هو محتاج منها اليه ثم يرسلها الى صاحب المكتبة ليبيعها، او يستبدلها بكتب اخرى ينتفع بها بنفس الطريقة او يحتفظ بما هو مهم منها، ويضعه تحت تصرف العاملين.

١٢ – صموده :

استمر شهيدنا في جهاده، حتى نصب له فخ كافر وقع فيه وادخل السجن باسم مستعار.. وضرب في السجن ارقى آيات الصمود والثبات والمهارة في التخلص من التهم الموجهة اليه.. الا ان احكام البعثيين تصدر جزافاً، وحسب المزاج وإلا كيف حكم عليه بالسجن المؤبد باسم مستعار غير معروف، وحامله مجهول، ونقل الى ابي غريب كسجين حتى كشفت الشخصية الحقيقية. وكان يوماً مشهوداً في دوائر الامن حتى اقيمت الافراح في مديرية الامن العامة عندما اكتشفوا ان هذا الشخص هو الشيخ حسين معن، الذي قضوا ست سنوات في التفتيش عنه وفي هذا الوقت اعتقلت عائلته، والده وزوجته وطفلاه سجاد وعارف.

يروي لنا احد الموقوفين معه انه حين صدر عليه حكم الاعدام عقدوا له مجلساً مع أساتذة عمل النفس والسياسة والاجتماع باشراف مدير الامن المجرم سعدون شاكر واخذوا يوجهون له اسئلة حول حزب البعث وحزب الدعوة فانطلق يبين لهم مبادئ الدعوة الاسلامية واصالتها، وفساد حزب البعث، وعمالته فقال له فاضل الزركاني :

– يا شيخ حسين. لو بقيت معهم ساعتين لجعلتهم دعاة.

فرد عليه شهيدنا البطل قاتلاً :

– اعطني نصف ساعة أخرى لأجعلهم دعاة.

***

وهكذا مضى أبو سجاد الى ربه، مضرجاً بدمه الثائر مسطراً احرفاً من نور، لتبقى تضيء الدرب للأجيال السائرة في طريق ذات الشوكة اللاحب.

فسلام عليك يا ابا سجاد !

يوم ولدت.

ويوم جاهدت.

ويوم وقفت تتحدى الظالمين، وانت تحمل نور السماء.

والسلام عليك :

يوم تقف بين يدي اللّه تعالى.

مخاصماً اعداء الاسلام.

***

يا ابا سجاد.. وعارف !

.. إنّ حزني عليك لا ينقضي..

ولا يمكن ان أنساك..

فأذكرنا عند ربك..

فإننا إخوتك.

وعلى الدرب سائرون..

الحاج ابو حسين الربيعي

١ ربيع الاول ١٤٠٥ هـ

---

(٢٣) – احد الطلاب المهاجرين في الجمهورية الاسلامية

(٢٤)، (٢٥)، (٢٦) – تفضل بكتابة هذه النقاط الشيخ ابو محمد الرفاعي

نظرات عامة حول الإعداد الروحي

للشهيد الشيخ حسين معن

{ ٤٣ }

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيّها المزمل* قم الليل الا قليلاً* نصفه او إنقص منه قليلاً* او زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً* انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً* ان ناشئة الليل هي اشد وطئاً واقوم قيلاً* ان لك في النهار سبحاً طويلاً* واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً)

١ – ٨ / سورة المزمل.

(إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم* التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود اللّه وبشر المؤمنين)

(١١١ – ١١٢ / سورة التوبة)

الفصل الأول المقصود من الجانب الروحي

{ ٤٥ }

لا نقصد بالجانب الروحي في شخصية الانسان المسلم كثرة الصلاة والصيام والتعبد.. وان كان لكثرة التعبد والتنفل صلة وثيقة بالجانب الروحي في الشخصية..

ولا نقصد بالجانب الروحي كذلك حسن التعامل مع الناس والاخلاق الحسنة : كالشجاعة، والعفة، والكرم، والحكمة، والاحسان، وما شاكل ذلك وان كان للاخلاق صلة وثيقة بالجانب الروحي.

وانما نقصد بالجانب الروحي في شخصية المسلم – والذي يعتبر جوهرها ومضمونها – الصلة الداخلية للمؤمن باللّه تعالى وانشداده النفسي والعاطفي به تعالى من حيث الايمان

والحب والاخلاص، وما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسية من خوف، ورجاء، وتواضع... الخ ان المضمون الداخلي المرتبط باللّه تعالى هو الجانب الروحي وهو الذي يشكل الاساس الذي يقوم صرح الشخصية الاسلامية بالكامل وتصدر عنه عناصرها الاخرى، وسماتها، وخصائصها المميزة عن الناس وعلاقة الايمان باللّه، وخوفه، ورجائه، والتواضع له والاخلاص.. بالعبادة الخارجية من صلاة وصيام واذكار علاقة تأثير متبادل يؤثر المضمون الداخلي للمؤمن فينتج عبادة وتنفلاً وصياماً وقياماً، وتؤثر العبادة الخارجية فتزيد في الايمان والحب، والاخلاص، والخوف، والرجاء، وكذلك الحال في الاخلاق والتربية الروحية هي بالنتيجة بناء هذه العلاقة الداخلية للمؤمن باللّه، وتنميتها،

وتحصينها، والحفاظ عليها.

واذا تحددت الآن بصورة مجملة هوية الجانب الروحي والتربية الروحية فبامكاننا ان نطرح السؤال التالي حولها:

ما هي درجة الاهتمام التي يلزم ان نعطيها للجانب الروحي، والتربية الروحية ؟ وهل تستحق التربية الروحية لانفسنا، وللآخرين جهداً معيناً، وما هي درجة هذا الجهد ؟.

وبكلمة اخرى : ما هو موقع التربية الروحية من العمل الاسلامي ومكانتها فيه ؟

توجد في الجواب على هذا السؤال اتجاهات ثلاثة يسجلها التاريخ الاسلامي وهي :

(١) الاتجاه الصوفي.

(٢) الاتجاه السياسي والفكري.

(٣) الاتجاه الاسلامي المتكامل.

منهج التقييم

وقبل ان نستعرض هذه الاتجاهات بشيء من التفصيل من اجل تقييمها والتعليق عليها علينا ان نلمح الى المنهج الذي يحكم ويجب ان نحتكم اليه في تقييم الافكار التي تنتسب الى الاسلام وتحسب عليه..

في كل خلاف فكري او مهمة فكرية عامة علينا ان نرجع الى المقاييس التي وضعها الاسلام ونحتكم اليها ونستلهم منها.. كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله واهل البيت الذين اذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وسيرتهم العطرة الطاهرة، فعن علي (ع) :

«اما اني سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول : ستكون فتن قلت : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب اللّه، كتاب اللّه فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل هو الذي من تركه من جبار قصمه اللّه ومن ابتغى الهدى في غيره

أضله اللّه.. هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم»(١)

وقال تعالى :

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللّه ان اللّه شديد العقاب)(٢).

وقال صلى الله عليه وآله :

(اني تركت فيكم من ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي : كتاب اللّه حبل ممدود

من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفونني فيهما ؟).

والرجوع الى المقاييس التي وضعها الاسلام في معرفة مفاهيمه وعقائده وتشريعاته امر طبيعي لاننا لا يمكن ان نتعرف على افكار أي شخص او جهة الا من خلال ما يعد من اساليب وطرق في تحديد افكاره ومواقفه ومن خلال ما يضعه من مقاييس في معرفتها.

والتصور الفكري والثقافي عن القرآن الكريم والسنة المطهرة – قولاً وفعلاً وتقريراً – والاحتكام اليهما في الخلافات لا يتم إلا بشرطين :

(١) الجهد الفكري بالتتبع والاستقراء لكل ما يتصل بالمسألة من آية، او حديث، او رواية، أو موقف. وعدم تسجيل المواقف، واتخاذ القرارات الفكرية الا بعد الدراسة الجادة، والتتبع المناسب لهذين المصدرين الاساسيين.

(٢) الانفتاح النفسي على الكتاب والسنة وأن تكون لدى الباحث فيهما (روح التلقي) منها، وعدم التجاسر، والتأويل والتدخل من خلال فرض الاهواء والمسبقات. فان (المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه) كما ورد عن أمير المؤمنين (ع) وعن الامام الباقر (ع) في خبر صحيح : (واللّه إن أحب اصحابي اليَّ أورعهم وافقههم واكتمهم لحديثنا، وان اسوأهم عندي حالاً.. وامقتهم الذي اذا سمع الحديث ينسب الينا ويروى عنا فلم يقبله. اشمأز منه وجحده وكفَّر من دان به وهو لا يدري

لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجاً عن ولايتنا)(٣).

وعلينا ان نتذكر بصدد تطبيق هذا المنهج، ان اللّه سبحانه خلقنا في هذه الحياة للمحنة، والابتلاء،

وليس الابتلاء، الذي خلقنا من اجله هو ابتلاء أخلاقيتنا وعبوديتنا للّه سبحانه في اطار الطاعة، والاستقامة على الخط الذي يشترعه للناس فقط، وانما ايضاً في مجال (تلقي) هذا الخط

وتفهمه ووعيه، ومن هنا فإنه سبحانه عندما أنزل الرسالة بيّنها للناس. وهداهم الى خطها وبصرهم بمفاهيمها وتشريعها، ولكن لم يكن هذا البيان من قبله حاسماً حدياً بل كان قابلاً للأخذ والرد، والتملص والركون، والنفي والاثبات.. لم يجعل اللّه تعالى البيان حاسماً حتى تكون فتنة واستجابات مختلفة من الناس ووضع المقاييس لكي يقيم الحجة على الفهم السليم ولكي يحيى من حي عن بيّنة..

ومن هنا كانت الفكرة مسؤولة وكان الانسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده كما هو مسؤول عن عمله.

(ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا)(٤).

وكان هناك الناجح في فتنة التلقي.

(وبشر عبادي الذين يستمعون القول

فيتبعون احسنه)(٥).

والفاشل فيها.

(ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه)(٦).

والآن نعود الى البحث في الاتجاهات العملية الثلاثة في مسألة التربية الروحية، وندرسها بشيء من التفصيل.

(١) الاتجاه الصوفي

تلقى الاتجاهات الصوفية الآن إهتماماً بالغاً من قبل المستشرقين، والكتاب المسلمين التابعين لهم او المستقلين عنهم في التفكير، وتدرس في العادة من التصوف موضوعات عديدة.. منها : لفظته، واشتقاقها، ونشأته وعواملها، وتطوره عبر القرون، ومفاهيمه التربوية والفلسفية والادب المتأثر او المعبر عنه.. الخ وتتوزع المواقف التقييمية – كالعادة – بين رافض للتصوف غاضب عليه، وبين مدافع عنه ومؤيد له ولا يقتصر المؤيدون للتصوف والاتجاهات الصوفية على بعض الباحثين الاكاديميين أو المستشرقين المعجبين بل نجد من له شأن يذكر في مجال العمل الاسلامي، وخدمة الاسلام من يدافه عن الاتجاهات الصوفية، ويعتبر الروحية الخاصة أساساً للعمل الجهادي، ويربط تاريخياً بين المنظمات الصوفية، وبين الدعوة الاسلامية، ومن هؤلاء أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية) الذي نشره كما يقول : (قياماً بالواجب، واعترافاً بالجميل،

ودفاعاً عن جماعة تدين لها بعض الاجيال، وبعض الاقطار بالدخول في الاسلام، او البقاء عليه) واكد فيه ان الجناية على التصوف جاءت من قبل المصطلح وكثيراً ما يجنى على الافكار والمفاهيم بسبب المصطلحات.

والواقع انه اذا كان يقصد من الصوفية التأكيد على الجانب الروحي والمضمون الداخلي الباطن، وكثرة العبادة، والزهد في الدنيا، ومجاهدة النفس، وذكر اللّه كثيراً. لذلك تكون المنظمات الروحية القائمة على هذا الاساس داخل الاطار الاسلامي شريعة، واخلاقاً فكل هذا من الاسلام حث عليه الاسلام وربى اجيالاً عليه واما اذا كان يقصد من الاتجاه الصوفي هذا الاتجاه الذي نعرفه في التاريخ الاسلامي والذي نضج في القرنين الثالث والرابع الهجريين فهو اتجاه ينطوي على بعض نقاط الضعف من الناحية الاسلامية وانتهت به – عند بعض الصوفيين – الى انحرافات واضحة، لسنا ننكر من هذا الاتجاه كثرة العبادة، وعملية التحرير الداخلي للنفس من اسر الشهوة، والرضى والتوكل، فقد قلنا ان هذا كله من الاسلام انما ننكر منه كاتجاه تربوي امرين الاول : انه يركز على التربية الروحية والعلاقة باللّه منعزلاً عن التأكيد على الجوانب الاخرى الضرورية في الشخصية الاسلامية، والعمل التربوي الاسلامي يجب ان يهتم ببناء الشخصية الاسلامية مضموناً، من حيث العلاقة باللّه وحبه وخوفه ورجائه.. الخ، واطاراً، من حيث الخلق والانفتاح الاجتماعي والعطاء والجهاد في سبيل اللّه، ومعرفة احكام الشريعة، ومفاهيمها.. ولا يركز على جانب دون آخر.. وبالخصوص فأن التأكيد على التربية الروحية عبر الرياضات، والافكار، والمجاهدات – باعتبار ان التعامل مع الغيب

يصعب على الانسان ان يكون مستقيماً فيه من دون نهج إلهي يسير عليه في ذلك بمعزل عن الجوانب الاسلامية الاخرى من السهل أن ينتهي الى الانحراف والخروج عن خط الاسلام السلوكي والفكري في الحياة كما سوف نلاحظ ذلك في النتائج التي انتهت اليها الصوفية..

(الثاني) ان (هدف) التصوف لم يكن بناء الانسان العابد المطيع للّه تعالى، الملتزم بشريعته المنزلة منه الى عباده هدىً، ونوراً، ونهجاً، وحياة، وانما كان هدفه الوصول الى (مذاقات الاتصال بالوجود المطلق) و(الفناء) في الحقيقة المطلقة (اللّه)، أو ادراك الحقائق ادراكاً بالعيان، والقلب، و(الكشف)، و(العرفان) وغير ذلك من المعاني التي ان صحت من الناحية العلمية، ولم تكن اوهاماً ضائعة، فهي لا تصح هدفاً لعمل تربوي واسع ينطلق من الاسلام وللاسلام..

ونتيجة لنقطتي الضعف هاتين في الاتجاه الصوفي، برزت انحرافات عديدة عند الكثير من اهل التصوف على امتداد تأريخه الطويل، وهذه الانحرافات يتنكر بعض المتصوفة لبعضها ويتنكر بعض آخر منهم لبعض آخر منها ولكننا نعتبرها نتيجة طبيعية لروح ومضمون الاتجاه

الصوفي.. ومن هنا لم يخل من بعض هذه الانحرافات حتى التصوف السني الذي يمثله الغزالي.. وفي (كتابه احياء علوم الدين) والذي يعتبر اقربها الى الشريعة.

وترجع الانحرافات التي ابتلي بها الاتجاه الصوفي الى انحرافات في الممارسات، وانحرافات في النتائج والافكار، ومن هذه الانحرافات العزلة، وتطليق الحياة الاجتماعية وممارسة السماع والرقص، والحزن، وتعطيل

احكام الشريعة باعتباره الوصول الى درجة ترتفع معها التكاليف والهجوم المتكرر على العلوم الشرعية القائمة على أساس السماع لا الكشف، والاشراق، واشكال الانحراف العقائدي من حلول، وفناء، واتحاد، واللغة الخارجة عن حدود الأدب الشرعي مع الله تعالى، والطابع المستعلي على الرسالة الاسلامية الذي لا يفرق بينها، وبين غيرها من الشرائع.. الى آخر ما هنالك من انحرافات سجلها التأريخ على الاتجاه الصوفي..

ولا اظن اننا بحاجة الى تفصيل الكلام في هذه الاخطاء والانحرافات والرجوع الى تأريخ التصوف فيها..

شجب الرسالة لإرهاصات التصوف :

ان حركة التصوف تعتمد على ميل نفسي في كيان الانسان يؤدي عند تنميته، وتغذيته الى الانحراف.. وقد ادت تراكمات كثيرة الى ظهور حركة التصوف في التأريخ الاسلامي (الانحلال) الاخلاقي في العالم الاسلامي دخول الكثيرين من غير المسلمين في الاسلام مع احتفاظهم بترسباتهم الفكرية، والروحية، والفلسفة اليونانية والاتجاهات الغنوصية فيها الخ..

الا ان كل ذلك لم يكن ليعطي أثره لولا امران :

(١) – الانحراف بالميل الانساني الفطري الى التعامل مع الغيب واكتشاف المجهول.

(٢) – سوء فهم تأكيد الاسلام على الصلة بالله والمعاني الروحية،

والاخلاقية الاخرى.. فكان من الانسان أن (اندفع) من خلال ميله الفطري الى العزلة والتصوف و(برز) ذلك باسم القرآن الكريم، والسنة المعاصرة مع (صياغات) و(تأثرات) بالتيارات الفكرية والدينية التي تلاقحت عندما تزاوجت الحضارات الانسانية في الاسلام.

وبسبب الميل الفطري، والتأثر غير المتوازن بتعليمات القرآن الكريم، والرسول صلى الله عليه وآله ظهرت هنا، وهناك بوادر الاعتزال، وتطليق الحياة الاجتماعية من أجل العبادة ولكن ائمة الهدى كانوا يقفون امام هذه الحالات، ويحولون بينها، وبين التطور الى ما لا ينسجم مع خط الاسلام في الحياة.

(١) – قال المفسرون : (جلس رسول الله يوماً فذكّر الناس ووصف القيامة فرق الناس، وبكوا، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي واتفقوا على ان

يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الودك، ولا يقربوا النساء، والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الارض، وهمّ بعضهم ان يجب مذاكيره، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله .. فقال لهم : ألم انبئكم انكم انقطعتم على كذا وكذا ؟ قالوا بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وما أردنا الا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اني لم آمر بذلك ثم قال : ان لانفسكم عليكم حقاً فصوموا، وافطروا وقوموا وناموا فاني اقوم وانام واصوم وافطر، وآكل اللحم، والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني).

ثم جمع الناس (وهذا أمر له دلالة) وخطبهم وقال :

{ ٥٥ }

«ما بال اقوام حرموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم وشهوات الدنيا اما اني لست آمركم ان تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم، ولا النساء، ولا اتخاذ الصوامع، وان سياحة امتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد».

«اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا واعتمروا، واقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا ليستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فاولئك بقاياهم في الديارات والصوامع، فأنزل الله تعالى الآية.

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان اللّه لا يحب المعتدين)»(٧).

(٢) – ونذكر حالة فردية في زمان الامام علي (ع) وهي :

دخل أمير المؤمنين (ع) على العلاء بن زياد الحارثي في البصرة – وهو من اصحابه – يعوده، فلما رأى سعة داره قال (ع) :

(ما كنت تصنع بسعة هذا الدار في

{ ٥٦ }

الدنيا، وانت اليها في الآخرة احوج ؟ وبلى ان شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها فاذا انت قد بلغت بها الآخرة).

فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين، اشكو اليك اخي عاصم بن زياد، قال (ع) : وما له ؟ : قال : لبس العبادة وتخلى عن الدنيا قال علي (ع) علي به فلما جاء قال (ع) :

(يا عدي نفسه : لقد استهام بك الخبيث اما رحمت اهلك وولدك، اترى اللّه قد احل لك الطيبات، وهو يكره ان تأخذها؟ انت اهون على الله من ذلك).

قال : يا أمير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك قال : ويحك اني لست كأنت ان الله فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره.(٨)

وفي زمن الامام الصادق (ع) اصبح (الزهد) تياراً لشيء من الانحراف، وحاربه الامام (ع) ايضاً يقول احد اصحابه كما في الرواية (لاقعدن في بيتي ولاصلين ولاصومن ولاعبدن ربي فأما رزقي فسيأتيني فقال ابو عبد الله (ع): هذا احد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

{ ٥٧ }

وسأل عن رجل فقير اصابته الحاجة قال : فما يصنع اليوم ؟ قيل في البيت يعبد ربه قال فمن اين قوته ؟؟ فقيل : من عند بعض اخوانه، فقال ابو عبد الله (ع) : والله للذي يقوته اشد عبادة منه).

٢ – الاتجاه الفكري والسياسي

قد لاحظنا ان التصوف يركز بطريقته الخاصة على التربية الروحية ولكن المنعزلة عن ذاتها.. والمتوقع لها ان تخرج باستمرار افواجاً من المنحرفين عن الخط الاسلامي في الحياة سلوكاً، وافكاراً.. وقد ساعد على ظهور هذا الاتجاه كما سبق ان اشرنا اليه.. التحلل الاخلاقي، وتلاقح الفلسفات، والديانات مضافاً الى الميل الفطري، والنزوع الذاتي للتعامل مع الغيب وحث الاسلام على التربية الروحية، وتطهير النفس وتحريرها.

وفي المقابل ادى التحدي الثقافي الغربي، وهجمة التيارات الفكرية والاجتماعية المادية على العالم الاسلامي، وفقدان السيادة الاسلامية، والاستعمار العسكري والاقتصادي للبلاد الاسلامية ادى ذلك كله الى (رد) فعل اسلامي يؤكد على الجوانب الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية في الاسلام، وتنبيه المسلمين الى صلاحية الاسلام للتطبيق والانتهاج، وقدرته على اسعاد البشرية، وبناء المجتمع القائد من جديد.. كما فعل في الامس. ويؤكد أيضاً على محاربة الاستعمار، والفكر الاستعماري، والادوات الاستعمارية في البلاد المسلمة.

ولان هذه الاهداف بالمنظور الحسي انما تتحقق، بالتوعية الفكرية، والعلمية على الاسلام، وتحسيس المسلم بأوضاع المسلمين، وتخلف العالم

الاسلامي في كل الميادين.

ولان الغرب تحدانا فكرياً وفي المنهج الاجتماعي وثقافتنا المعاصرة للكثير من المسلمين هي (رد فعل) للتحدي الغربي اقول : لهذا، اكد بعض الناس في عملهم التربوي على جانب التوعية الفكرية، والعلمية واهملوا التربية الروحية، وبناء العلاقة بالله في نفوس المؤمنين بالاسلام، والعاملين في سبيل الله والمستضعفين في الارض..

وهذا يؤدي عملياً الى التورم الفكري، والعلمي، وعدم التوازن في شخصية الانسان المسلم، وتغليب الاطار على المضمون، والفكر على الروح..

والانسان المسلم – كما هو الحال في المجتمع المسلم – قد يمر بحالات يكون فيها نشاطه العلمي، ونشاطه العقلي رد فعل لتيارات معادية.. ولكنه على العموم ينطلق من شخصية اصيلة، وثقافة اصيلة، وتاريخ اصيل.. وسرعان ما يعيد النظر في اوضاعه، ويبنيها لا على اساس (الرد)، وانما على اساس (الفعل) الاصيل الذي يمليه الانتساب الى السماء، والارتباط المطلق بالله، والرسالة الخالدة ذات الشخصية المتميزة بين الرسالات.. ومن هنا كان عباد الرحمن يمشون على الارض هوناً.. وينشطون هوناً لا يُستثارون، ولا يستفزون، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.. كيف ؟ لانهم لا تبعثهم المخاطبة الجاهلية الى الرد.. وانما هم (سلام)

الى حين تقرر رسالتهم فيه الحرب.. وهم (سلام) لا يثأرون لانفسهم ولا ينتقمون لانفسهم، وشخصيتهم.. ولا يردون على التحديات رداً تستلب فيه ذاتهم

{ ٥٩ }

الرسالية، وشخصيتهم المستقلة..(٩)

ولما كان كل عمل.. وكل تفكير.. انما هو من املاء الرسالة لا املاء سواها.. فعلينا باستمرار ان نرجع اليها، وننطلق منها لنؤكد بذلك نسبنا الاصيل، وشخصيتنا الاسلامية... وعبوديتنا الكاملة لله تعالى.. ونحن في مراجعة الرسالة كتاباً، وسنة، وتاريخاً.. نجد للتربية الروحية موقعاً اكبر.. واركز في طريقة العمل الاسلامي واهدافه.. ولكن في ضمن الاطار الاسلامي.. والاهداف الاجتماعية للاسلام..

٣ – الاتجاه التربوي المتكامل

ويعطي هذا الاتجاه التربوي الروحي – بناء العلاقة الداخلية بالله من حيث الحب، والايمان، والاخلاق، والخوف، والرجاء، والزهد، وما شاكل ذلك، وبالوسائل المعهودة من الاسلام من الصلاة، والصوم، والتنفل بالعبادات، والذكر ومخالفة الاهواء الخ...

يعطي هذا الاتجاه التربية الروحية اهمية بالغة لان الرسالة اكدت عليها تأكيداً بالغاً، واعلت من شأنها وركزت عليها، ولكن التأكيد البالغ على التربية الروحية والاعداد الروحي لم يكن تأكيداً مستقلاً بهما دون الجوانب الاخرى، وانما هو ضمن الاهتمام العام بتربية وبناء الشخصية الاسلامية من جميع جهاتها.. حتى يكون الانسان المسلم مجسداً للاسلام في الفكر والروح والسلوك الشخصي والتعامل مع الناس أي متعلقاً بالله تعالى، ومتعاملاً معه بالطريقة التي يحددها الاسلام لهذا التعامل..

وبناء الشخصية الاسلامية.. هو الآخر جزء من الاهتمام بالمجتمع،

{ ٦٠ }

والناس، وعملية الاصلاح، والتغير الاجتماعي.. لان الاسلام كما ينظر في اخلاقه، وتربيته، واحكامه للافراد كذلك ينظر الى المجتمع، والوحدات الاجتماعية التي يتألف منها الكيان الاجتماعي.

وهكذا فان الذي يقوله الاتجاه الاسلامي التربوي المتكامل هو :

(١) – التأكيد البالغ على الجانب الروحي، وتربية المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى.. ولكن باعتبار ذلك (جزء من كل) هو بناء الشخصية الاسلامية بمختلف جوانبها الفكرية، العقائدية، الروحية، والاخلاقية، والاجتماعية.

(٢) – ان بناء الشخصية الاسلامية الذي تشكل التربية الروحية جزءاً منه هو الآخر ليس سوى (جزء من كل).. وهذا الكل الذي يعتبر الشخصية الاسلامية جزءاً منه هو الاصلاح الاجتماعي وتغير اوضاع الناس لتلتئم مع الاسلام، وتصدر عنه.

مناشئ الاهتمام بالتربية الروحية

وللاهتمام بالجانب الروحي ضمن العمل التربوي الاسلامي منشآن اساسيان :

(الاول) : ان الاصلاح الاجتماعي لا يتم من وجهه النظر الاسلامية السليمة، الا من خلال الاصلاح الفردي، ولن يصلح حال الجماعة الا بصلاح حال الفرد.. قال الله تعالى :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وهكذا فأن بناء المجتمع الاسلامي عملية لا تحدث الا من خلال نمو كمي وكيفي.. في الافراد المؤمنين العابدين لله أي في الشخصية الاسلامية فان الشخصية الاسلامية من خلال تكاثرها وحدوث بعض المتغيرات الاجتماعية، تتجسد بشكل مجتمع اسلامي.

ولكن ما هي هذه الشخصية الاسلامية التي يبشر بروزها كظاهرة اجتماعية بالمجتمع الاسلامي ؟

هل هي الشخصية التي (تفهم) الاسلام وتتحسس بآلام المسلمين ؟ ! ام هي الشخصية المنعزلة التي تتعبد في زوايا المساجد معزولة عن الناس ؟ ام هي الشخصية العالمة المتفقهة والمستوعبة للتاريخ ؟ ام هي الشخصية الخلوقة، التي يشير لها الناس بالخلق الحسن، وطيب المعاملة، ولين العريكة ؟ !

الشخصية الاسلامية كل هذا.. وليست شيئاً من هذا.. الشخصية الاسلامية هي التي تفهم الاسلام وتعيه وتتحسس آلام المسلمين هذا صحيح لان.

(من لم يتفقه في دين اللّه لم ينظر الله اليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً)(١٠).

ولان

(من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم)(١١).

الشخصية الاسلامية كثيرة العبادة كثيرة التهجد تعتزل الناس اياماً لاداء حق الله.. ثم .. تعود هذا صحيح ايضاً.. وصحيح ايضاً انه حسن الخلق من أهم سمات المؤمن لان

(اكمل الناس ايماناً احسنهم خلقاً)

كما ورد عن ابي جعفر عليه السلام(١٢).

صحيح هذا كله وصحيح ان الانسان المسلم انسان محسن معطاء انفع الناس للناس وانفع الناس للرسالة.. الا ان كل هذا من العلم، والخلق والعطاء، والعبادة الخارجية انما هو (اطار) الشخصية الاسلامية.. وللشخصية الاسلامية (مضمون) كما لها اطار و(محتوى) كما لها شكل..

ومضمون الشخصية الاسلامية.. هي العلاقة بالله، والتعلق القلبي به ايماناً، وحباً، ورجاءً، وركوناً، واخلاصاً.. هو التحرر الداخلي من اسر الشهوات، والعبودية الكاملة لله تعالى.. وهذه العبودية الكاملة لله تعالى والعلاقة النفسية، والقلبية اول ما تشتمل عليه، او تقتضيه هو السير وفق ما امر الله تعالى.

(قل ان كنتم تحبون اللّه فإتبعوني)

وتنفيذ ارادته التشريعية لله وهو الذي يحث على حسن الخلق، ويحث

على الجهاد، والعطاء، والتفقه، والعلم، والعبادة، والذكر، كانت هذه الامور شروطاً ضرورية في الشخصية الاسلامية، و(اطاراً) لها نابعاً عن المضمون المذكور.

بالاطار والمضمون تتكامل الشخصية الاسلامية، فالمضمون بلا اطار لا يشكل شخصية اسلامية، وكذلك الاطار بلا مضمون لا يشكل شخصية اسلامية.. وكل هذا واضح من قراءة النصوص في ميادين العلاقة بالله تعالى، وميادين التعامل الاجتماعي، اذ كما تؤكد هذه النصوص على حسن الخلق والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد، كذلك تؤكد على اليقين والزهد، والذكر، والعبادة، والتوكل، وقيام الليل الخ.. وكما تؤكد على هذه تؤكد على تلك..

لا يقبل الاسلام علاقة بالله.. الا من خلال الالتزام بالشريعة فعن الامام جعفر الصادق (ع) عن آبائه عن امير المؤمنين (ع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(لا قول الا بعمل، ولا قول ولا عمل الا بنية، ولا قول، وعمل ونية الا باصابة السنة)(١٣)

وادانت النصوص اولئك المتعبدين الذين لم يقوموا بواجباتهم تجاه الرسالة..

وكذلك لا يقبل الاسلام جهاداً، أو عملاً، وغير ذلك الا بالاخلاص

وعلاقة بالله..

(انما الاعمال بالنيات، ولكل إمرئ ما نوى فمن غزا ابتغاء مرضاة الله فقد وقع اجره على الله ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له الا ما نوى)(١٤).

(ومن طلب العلم، ليباهي به العلماء، او يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس اليه، فليتبوأ مقعده من النار ان الرئاسة لا تصلح الا لاهلها)(١٥).

والمضمون، والاطار يرتبطان بشكل وثيق، ويتفاعلان فيما بينهما فان المضمون – العلاقة الروحية بالله – يخلق الاطار، والاطار يخلق المضمون، ويكمل احدهما الآخر ليؤلفا الصورة السليمة للشخصية الاسلامية التي ارادها الله..

وقد يحدث احياناً ان يكون احدهما اضعف مستوى من الآخر دون ان يمس ذلك الصورة الكلية الشخصية.. ولكن التفاوت قد يبلغ حداً معيناً يعينه الاسلام يخرج بموجبه الانسان عن كونه شخصية اسلامية.

وعلى أي حال : فان الجانب الروحي، والمضمون الروحي للانسان المسلم هو جوهر، ومضمون شخصيته الاسلامية فاذا ما اريد ان يبدأ بالاصلاح الاجتماعي من بناء الشخصية الاسلامية، فمعنى هذا ابتداء

الاصلاح الاجتماعي من تربية الجانب الروحي، وبناء الصلة بالله تعالى.. كجزء من كل، هو بناء الشخصية الاسلامية والتوعية الفكرية على الاسلام لها دور خاص – يضاف الى دور التربية الروحية في بناء الشخصية الاسلامية. لان الجهل، وعدم وعي الاسلام، روحاً واحكاماً، وافكاراً، كثيراً ما يفصل مضمون الشخصية الاسلامية عن اطارها لان

(العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير الا بعداً)(١٦)

(ولا يقبل الله عملاً الا بمعرفة، ولا معرفة الا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، الا ان الايمان بعضه من بعض)(١٧)

ومن هنا ورد ايضاً ان

(لا عمل الا بنية ولا عبادة الا بتفقه)(١٨)

ان الشيء الذي لا زال اكثر الناس يجهلونه هو ان (الايمان بعضه من بعض) أو التوازن في شخصية الانسان المسلم، واعطاء كل شيء من الاسلام حقه، الروح والعقل والقلب والارادة فنرى بعض الناس يؤكدون على الفكر والثقافة الاسلامية المعاصرة.. ويدعون العبادة والتنفل وبناء القلب، والروح.. ونرى بعضهم على العكس يؤكد على التعبد.. والتنفل وبناء الصلة الداخلية بالله ولكنهم يهملون اطار الشخصية الاسلامية،

ويتركون التفقه والتفقيه والعمل لله تعالى.. وكل هذا فيما اظن منبعه عدم وعي الاسلام وعدم التلقي من كتاب الله.. الذي يعرض في لوحات خالدة هذا التلاحم، والتكامل، والترابط الوثيق بين جوانب شخصية المسلم، ويعضد كتاب الله تعالى، ويصدر منه كما في باقي مجالات الحديث الوارد عن اهل البيت (ع).. ولنقتصر الآن على ذكر بعض الآيات الشريفة على أمل ان نعمل في وقت آخر ان شاء الله تعالى على جمع النصوص الحديثية الواردة في خصال المؤمن، وملامح شخصيته.. لكي نعي جيداً هذا الشمول والتوازن، والتكامل في شخصية الانسان المؤمن..

(١) (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم(١١١) التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود اللّه وبشّر المؤمنين) (التوبة / ١١١ – ١١٢)

تبيين الآيتان الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العبادي، والعلمي

(الامر بالمعروف) في شخصية المسلم(١٩).

(٢) (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) (التوبة / ١١٣)

تبين الآية نحواً من الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العلمي، وان كان بالنسبة الى المجتمع، لا بالنسبة الى كل فرد.

(٣) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً (٦٥) انها ساءت مستقراً ومقاماً (٦٦) والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧) والذين لا يدعون مع اللّه الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم اللّه الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٦٩) الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدل اللّه سيئاتهم حسنات

وكان اللّه غفوراً رحيماً (٧٠) ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً (٧١) والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً (٧٢) والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم

يخروا عليها صماً وعمياناً (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماماً) (الفرقان / ٦٣ – ٧٣)

(٤) (محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من اثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الانجيل، كزرع اخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا، وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراً عظيماً) (الفتح / ٢٩)

الاعداد الروحي لتحمل القول الثقيل :

(المنشأ الثاني) : للاهتمام الاسلامي بالتربية الروحية وبناء العلاقة بالله تعالى هو، ان التربية الروحية اعداد لتحمل القول الثقيل، واعباء طريق ذات الشوكة بما فيه من تعرض للاغراءات، والضوابط، والمثبطات،

والفتن.. وهذا هو الذي قدره الله تعالى لرسوله الكريم قدر انه سيتعرض صلى الله عليه وآله لالوان من الضغوط الخارجية، والداخلية والاجتماعية والنفسية.. لتعذيب المشركين واستهزائهم واغرائهم، وطول مدة العمل معهم، وتصلبهم على الباطل.. الخ وسيتعرض صلى الله عليه وآله الى تفكك في الصف، وتزلزل المؤمنين الى آخر ما هنالك من مكاره، وفتن.. قدر هذا سبحانه كله بالنسبة الى الرسول صلى الله عليه وآله فأعده اولاً... وفتح له دورة تربوية روحية شاقة، ولكنها ضرورية، وحاسمة.. فما هي هذه الدورة التربوية الروحية ؟ هذا ما تشرحه الآيات الاولى من سورة المزمل :

(يا أيها المزمل، قم الليل الا قليلاً، نصفه او انقص منه قليلاً، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلاً، انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، ان ناشئة الليل هي اشد وطأ واقوم قيلاً، ان لك في النهار سبحاً طويلاً، واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا) (المزمل ١ – ٨)

وقد مر رسول اللّه بثلاث مراحل من الاعداد والتوجيه والتربية الروحية لتحمل القول الثقيل :

المرحلة الاولى : مرحلة ما قبل الوحي.. من اجل تلقي الكلمة والرسالة اذ كان رسول الله صلى الله عليه وآله (يتحنث في غار حراء – قبل البعثة بثلاث سنوات – أي يتطهر ويتعبد – وكان تحنثه عليه الصلاة والسلام شهراً من كل سنة، هو شهر رمضان يذهب فيه الى غار حراء على بعد ميلين

من مكة، ومعه اهله قريباً منه فيقيم فيه هذا الشهر ويطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة، والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة.. وكان اختياره صلى الله عليه وآله لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، ليعده لما ينتظره من الامر العظيم.. ففي هذه العزلة كان يخلو الى نفسه، ويخلص من زحمة الحياة، وشواغلها الصغيرة، ويفرغ لموجبات، ودلائل الابداع، وتسبح روحه مع روح الوجود، وتتعانق مع هذا الجمال، وهذا الكمال، وتتعامل مع الحقيقة الكبرى، وتتمرن على التعامل معها في ادراك وفهم.

(ولا بد لاي روح يراد بها ان تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة اخرى..

لا بد لهذه الروح من خلوة، وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الارض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة لا بد من فترة للتأمل والتدبر، والتعاون مع الكون الكبير، وحقائقه الطليقة، فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له فلا تحاول تغييره اما الانخلاع منه فترة، والانعزال عنه، والحياة في طلاقة كاملة من اسر الواقع الصغير، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبيرة لرؤية ما هو اكبر، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة الى عرف الناس والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع..

(وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وآله وهو يعده لحمل الامانة الكبرى، وتغيير وجه الارض، وتعديل مسار التاريخ، دبر له هذه العزلة له قبل تكليفه

بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد هذا التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله)(٢٠)

هذه هي فترة الاعداد الاولى في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وقد كان هدفها ان يصل الرسول صلى الله عليه وآله الى مستوى تنزل الوحي عليه وان كان صلى الله عليه وآله من جهة عامة اهلاً لذلك في كل حين.. لم تكن هذه الفترة من الاعداد بتوجيه مباشر (وحي) من الله.. لانها اعداد الوحي.. وان كانت بهداية منه تعالى لرسوله الكريم.. واما الاعداد الثاني للرسول صلى الله عليه وآله من الزاوية الروحية فهو الاعداد الروحي بعد الوحي من اجل الدعوة والتبليغ، وتنمية القدرة على المواجهة، والصبر، والتحمل، والاستقامة في معامع الطريق.. وهو الذي أمر اللّه تعالى رسوله به في أوائل سورتي المزمل والمدثر.. وإن كانت في السورة الأولى أوضح وأجلى.. وقد مرت آياتها بنا عن قريب.

ومن الواضح من خلال هذه الآية ان الله تعالى انما يأمر رسوله الكريم بقيام الليل نصفه، أو ثلثه، أو ثلثيه بسبب انه سيلقي عليه القول الثقيل.. وان قيام الليل بهذا المقدار هو اكثر من

غيره قدرة على بناء الروح وربطها بالله تعالى لتتحمل القول الثقيل.. ومن الواضح أيضاً ان القول الثقيل هنا ليس المراد به الوحي لان الآيات النازلة هي وحي، ومسبوقة بالوحي.. انما المراد به – والله تعالى اعلم – الامر بالتبليغ والدعوة والمجاهرة.. وهو امر ثقيل، بما يلزم عنه من الوان الاضطهاد الجسمي والنفسي على الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين معه (وان الاستقامة على هذا الامر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب، والمعوقات، لثقيل، يحتاج الى

استعداد طويل – وان قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها والاتصال باللّه، وتلقي فيضه ونوره، والانس بالوحدة معه، والخلوة اليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به ارجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لغط بشري ولا عبارة، واستقبال اشعاعاته وايحاءاته وايقاعاته في الليل الساجي. ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل وينير القلب في الطريق الشاق والطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير (٢١).

وتذكر بعض الروايات انه صلى الله عليه وآله واصحابه قاموا – بعد ان نزلت اوائل سورة المزمل – الليل سنة كاملة. وقيل عشر سنين حتى تورمت اقدامهم، فأنزل الله تعالى عليهم التخفيف الذي في آخر السورة..

ونعني بالاعداد الثالث للرسول صلى الله عليه وآله تغذيته الروحية أو التوجيهات الروحية المتكررة من الله سبحانه.. باستمرار مسيرة دعوته المباركة.. وهي آيات مبثوثة في القرآن الكريم، ولعل في جمعها ودراستها هي وآيات الاعداد الثاني خيراً كثيراً للمؤمنين.. وهي على العموم كانت تتنزل من اجل تزويد الرسول صلى الله عليه وآله بالطاقة الروحية اللازمة لمواجهة المكذبين والساخرين، والجو المتحجر الذي لا تنمو فيه دعوة الرسول صلى الله عليه وآله الا قليلاً.. وبالطبع فان هذه التوجيهات لا تقتصر فقط على الامر بالعبادة – بالمعنى الخاص – وانما تشمل مضافاً الى ذلك على التذكير.. والتصبير والامر بالتوكل، الى غير ذلك من المعاني الروحية الاخرى.

لماذا الأعداد الروحي ؟

عرفنا الآن كيف ان اللّه تعالى قدر لرسوله ان يمر بفترة اعداد روحي من اجل تحمل القول الثقيل.. وان ذلك هو زاد المترسمين خطاه في كل جيل.. ولكن لماذا ؟ وما هي علاقة

حب الله تعالى، والاخلاص له في خوفه ورجائه وربط القلب به بتحمل المكاره واعباء طريق ذات الشوكة، واثقال المسيرة ؟

والجواب على ذلك : أن للتربية الروحية علاقة صميمة وارتباطاً وثيقاً ب(استقامة المسيرة) على خط الاسلام فكرياً وعملياً و(بتجاوز فتنة الاضطهاد) والتعذيب الجسمي والنفسي التي يتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ب(فعالية) علمهم و(تماسك) صفهم.. ولنعرض ذلك بشيء من التفصيل فيما يلي :

١) – التربية الروحية واستقامة المسيرة :

ليس من الهين ان تستقيم مسيرة المؤمنين العاملين في سبيل الله على الخط الذي يرتضيه الله تعالى، ويشترعه الاسلام من الناحية الفكرية المفاهيمية، والناحية العملية والسلوكية.

١) – لان الحضارة الجاهلية والمفاهيم الاجتماعية المادية التي كان يعيش في وسطها اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله تدعوهم الى الانحراف.. بسبب انهم ابناء هذه البيئة التي تعيش هذه المفاهيم الحضارية المادية فمن المعقول ان تؤثر فيهم عن طريق (الوراثة) الفكرية و(الايحاء) الثقافي..

والميل النفسي عند كل انسان الى التوافق الاجتماعي واتخاذ الاخلاء، ولو عن طريق التنازل الفكري والسلوكي.

٢) – ولان استعجال النصر.. والنزق واستباق المراحل تدعو هؤلاء المؤمنين الى التنازل عن بعض افكارهم وتليين مواقفهم من اجل أن تجد دعوتهم طريقها الى قلوب الناس، وتتقدم في الجو الاجتماعي، ولو على حساب بعض جوانبها الرسالية.

٣) – ولان الاهواء الشخصية هنا، وهناك قد تتجمع وتظهر في صيغ ثقافية لتعمل على حرف المسيرة، وتمييع الشخصية الاسلامية الاصيلة، والارتباط بالله سبحانه وبرسالته..

هذه العوامل وغيرها دواع للانحراف ملازمة لكل عمل اجتماعي في عصر الرسول صلى الله عليه وآله أو بعده.. والتربية الروحية شرط ضروري للتعالي على هذه العوامل، والانفلات من تأثيرها لان التربية الروحية تقيم المؤمن في علاقة محكمة مع الله.. يعبده ولا يعبد سواه ويرجوه، ويعمل له لا لغيره.. يتأثر بوحيه، ورسالته، ويقطع صلته (التأثر) بالناس، ويقيم معهم بدل ذلك صلة (التأثير) والتوجيه..

لان الانفصال عن الناس وحضارتهم.. وعن اهواء النفس وشهواتها لا يتم الا من خلال عمل تربوي جاد يبني الانسان فيه نفسه مع الله ويقطعها به عما سواه (يعبده ولا يعبد غيره،

ويرجوه ولا يرجو غيره، ويخافه ولا يخاف غيره).. وبكلمة يقطع قلبه وشعوره وكيانه عن كل شيء عدا الله وما امر الله به (ان يوصل) بهذا وحده يمكن ان تستقيم وتثبت على

خط الاسلام.

ونكرر.. ليست الاستقامة المطلوبة هينة او يسيره ونزيد هنا.. حتى على رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.. ومن هنا ينقل عنه صلى الله عليه وآله انه كان يقول (شيبتني هود) اشارة الى قوله تعالى في سورة هود:

(فأستقم كما أمرت)

وفي رواية عن إبن عباس (ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله آية كانت اشد عليه، ولا اشق من هذه الآية ولذلك قال لاصحابه حين قالوا له اسرع اليك الشيب يا رسول الله : شيبتني هود والواقعة)(٢٢).

ولنقرأ هنا مجموعتين من الآيات الكريمة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله من اجل تحصينه – وهو المعصوم – من الحيف، أو الانحراف عن خط الاسلام.. وهما مجموعتان عجيبتان تدعوان للتفكير، والدرس، والتأمل الكثير.. بشكل واضح بين الاستقامة على الخط.. والتربية الروحية..

١)– (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل، وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب، فاختلف فيه، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم، وانهم لفي شك منه مريب. وان كلاً لما ليوفينهم ربك اعمالهم انه بما يعملون خبير،

فإستقم كما أمرت، ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون واقم الصلاة طرفي النهار، وزلفاً من الليل، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين، واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين)(٢٣)

٢) – (وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلاً، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً، اذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا.. اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً، وقل

ربي ادخلني مدخل صدق، واخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً..)
(الاسراء ٧٣ – ٨٠)

والآيات التالية لها تعلق ايضاً بما سبقتها..

{ ٧٧ }

٢) – التربية الروحية وتماسك الصف :

تماسك الصف يعتمد على وحدة الاهداف، والمنطلقات ووحدة المشاعر، والتعاطف القلبي.. ويتعرض تماسك الصف الى عوامل التفتيت، والتجزئة باستمرار.. (اختلاف الآراء، والمصالح الشخصية التي تغلب على المصلحة العامة عند بعض الناس، واختلاف المذاقات والمشاعر الخ)..

والتربية الروحية.. وبناء العلاقة بالله تعالى – وتنميتها هي دائماً في صالح التماسك.. فان التربية الروحية تعمل على ما يلي :

أ – توحيد المنطلق النفسي للمؤمنين في العمل.. (الدافع والهدف).. حب الرسالة، والرغبة في نشرها وتطبيقها مقابل الرغبات الشخصية، والاهداف الذاتية التي تختلف عادة من شخص الى آخر.

ب – الحب في الله تعالى، حب المؤمنين، والأنس بهم والاخوة فيما بينهم والمشاركة الوجدانية(٢٤).

ج – التقيد بالخلق الإسلامي في التعامل بين المؤمنين.

د – الحرص على المصلحة الدينية والخوف على الرسالة.

هذه المعاني الأربعة وما يتفرع عنها هي أساس التماسك والحصانة من التزلزل والتصدع.. وهي معان لا يبنيها سوى الايمان باللّه، والاخلاص

{ ٧٨ }

له تعالى، وحبه الذي ينبسط على المؤمنين، وكذلك طاعته، والصبر عليها في مواجهة الأهواء الشخصية ومشاعر الأنا والاستقلال.. وهذه الأمور هي جوهر البناء الداخلي الروحي للمؤمن..

(وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكني اراكم قوماً تجهلون، ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكرون)(٢٥)

(ان سرعة ائتلاف الابرار اذا التقوا، وان لم يظهروا التودد كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الانهار وان بعد ائتلاف قلوب الفجار اذا التقوا وان اظهروا التودد بالسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وان طال اعتلافها على مذود واحد).

٣) – التربية الروحية، والثبات على الدين :

واوضح مما سبق صلة التربية الروحية، والثبات على الدين في الايام الصعبة، وامتصاص المحن، والحرب النفسية والاضطهاد الجسمي، والنفسي الذي تواجه به الجاهلية اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله ومن بعدهم، ومن قبلهم اتباع الرسل والانبياء ان الصمود في المحن والبلاء.. وفتنة العذاب والمواجهة هو سمة المؤمنين في القرآن الكريم :

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما اصابهم في سبيل اللّه، وما ضعفوا، وما استكانوا، واللّه يحب

{ ٧٩ }

الصابرين، وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا وثبت اقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة واللّه يحب المحسنين)(٢٦)

(الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم، فزادهم ايماناً، وقالوا : حسبنا اللّه ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله، وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم)(٢٧)

(قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلاقطعن ايديكم، وارجلكم من خلاف، ولاصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا اشد عذاباً، وابقى، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، والذي فطرنا فاقض ما انت قاض، انما تقضي هذه الحياة الدنيا، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وما اكرهتنا عليه من السحر واللّه خير وابقى)(٢٨)

{ ٨٠ }

الى آخر ما هنالك من آيات الصمود الايماني في مواجهة قوى الضغط والعذاب.

كيف اتيح لهذه الافواج المؤمنة ان تصمد في وجه التحديات، وتواجه الآلام، والاغراءات، والاضطهاد بالصبر والثبات ؟ وما هو غذاء اصحاب موسى، واصحاب الاخدود الربيين، واصحاب محمد في رحلة المكاره، والمصاعب ؟ وبأي وقود استطاعوا الثبات، والتحدي حتى وهم تحت سياط الجلادين، وقبضة الطغاة ؟

كان غذاؤهم، وعزاؤهم، ووقودهم في كل هذه المرحلة الزهد.

(اقض ما انت قاض انما تقضي هذه الحياة)

وذكر الله، والتوكل عليه، واحتسابه.

(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)

(والذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا للّه وانا اليه راجعون)

(واللّه خير وابقى)

والتطلع الى ثواب الله تعالى في اليوم الآخر، واسترخاص هذه الحياة الزائلة الى حيث تلك الحياة الخالدة.. والافق الواسع في تصور الحياة، ووعي حركتها، وقلة متاع الظالمين.. وهكذا خوف الله واستشعار

{ ٨١ }

مراقبته.. وهذا هو أيضاً جوهر التربية الروحية..

وامثلة الصابرين بالله تعالى في المحنة، والبلاء بسبب عمق صلتهم بالله تعالى، وشديد تعلقهم به كثيرة جداً نعرف الكثير منها، ونجهل الكثير..

سجل القرآن الكريم بعضها وسجل التأريخ بعضها الآخر، واسدل ستار الزمن على الكثير من صبر الصابرين في الله. ونحن هنا نستشهد بالمثالين التاليين، في كل تلك الحدوات :

١ – عن الفضل بن شادان انه (سعي بمحمد بن ابي عمير الى السلطان : انه يعرف اسامي عامة الشيعة بالعراق، فأمره السلطان ان يسميهم فامتنع، فجر، وعلق بين (العقارين) نخلتين، وضرب مائة سوط قال الفضل فسمعت ابن ابي عمير يقول : لما ضربت فبلغ الضرب مائة سوط ابلغ الضرب الالم اليّ، فكدت ان اسمي فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد الرحمن يقول : يا محمد بن ابي عمير اذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقويت بقوله فصبرت، ولم اخبر، والحمد لله).(٢٩)

٢ – ومن أروع ما يرويه الأصفهاني عن مجموعة الحسنيين التي سجنت من قبل المنصور، لعدم معرفته بمكان محمد بن عبد اللّه (ذو النفس الزكية) الذي كان قد بويع بالخلافة سراً منذ العهد الأموي، ما رواه عن علي بن الحسين العابد الذي كان ضمن هذه المجموعة الصابرة.

(أ)– عن أحد السجناء منهم : حبسنا في المطبق، فما كنا نعرف

{ ٨٢ }

أوقات الصلاة إلا بأجزاء القرآن يقرأها علي بن الحسن.

(ب) – وفي رواية : لما حمل بنو الحسن إلى أبي جعفر أتى بأقياد يقيدونه بها، وكان علي بن الحسن قائماً يصلي وكان في الأقياد قيد ثقيل، فجعل كلما قرب إلى رجل تفادى منه واستعفى، فانفتل علي من صلاته فقال : لشد ما جزعتم من هذا.. ثم مد رجليه فقيد به.

(ج) وعن أحد السجناء : لما حبسنا كان معنا علي بن الحسن وكانت حلق أقيادنا قد اتسعت، فكنا إذا أردنا صلاة أو نوماً جعلناها عنا، فاذا خفنا دخول الحراس أعدناها، وكان علي بن الحسن لا يفعل فقال له عمه : يا بني ما يمنعك أن تفعل ؟ قال : لا واللّه لا أخلعه أبداً حتى أجتمع انا، وأبو جعفر عند اللّه تعالى فيسأله لم قيدني به ؟

(د) – وعن أحدهم : لما دخلنا السجن قال علي بن الحسن :

(اللهم ان كان هذا من سخط منك علينا، فأشدد حتى ترضى)

(هـ) – وعن الحسن بن نصر قال : حبسهم ابو جعفر في محبس ستين ليلة ما يدرون بالليل، ولا بالنهار، ولا يعرفون وقت الصلاة الا بتسبيح علي بن الحسن، قال فضجر عبد الله (ابو محمد) ضجرة فقال : يا علي، الا ترى ما نحن فيه من البلاء ؟ الا تطلب الى ربك عز وجل ان يخرجنا من هذا الضيق والبلاء ؟ قال : فسكت عنه طويلاً، ثم قال : يا عم : ان لنا في الجنة درجة لم نكن لنلقيها الا بهذه البلية او بما هو أعظم منها، وان لابي جعفر المنصور

في النار موضعاً، لم يكن ليبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية، أو اعظم منها. فإن تشأ تصبر فما اوشك فيما احسبنا ان نموت، فنستريح من هذا الغم، كأن لم يكن منه شيء.. وان لم تشأ ان ندعو ربنا ان يخرجك من هذا الغم، ويقصد بأبي جعفر غايته التي له في النار فعلنا قال : لا، بل اصبر. فما مكثوا الا ثلاثاً حتى قبضهم الله اليه..(٣٠)

(ط) – ومن روايات أبي الفرج أيضاً، وعن أبي عبد اللّه إبن موسى قال : سألت عبد الرحمن بن أبي الموالي وكان معه بنو الحسن بن الحسن في المطبق : كيف كان صبرهم على ما هم فيه ؟ قال : كانوا صبراء، وكان فيهم رجل مثل سبيكة كلما أوقدت عليه النار ازدادت خلاصاً وهو إسماعيل بن إبراهيم، كان كلما إشتد عليه البلاء إزداد صبراً.(٣١).

هذه بعض الآثار العملية الهامة للجانب الروحي.. وهناك آثار أخرى : فالمؤمن العامل يصدر عن خلفية إيمانية، ورصيد روحي كبير، وعلاقة وثيقة باللّه تعالى هو الأكثر اندفاعاً، وانتاجاً، والأكثر ثباتاً، واستقراراً في ظل المتغيرات الحياتية، من رفاه، ورخاء إلى محنة وابتلاء ومن انفتاح الناس، وتقبلهم إلى جفائهم، وتكذيبهم، ومن بساطة العمل للّه إلى التعقد، والتشابك، ان الايمان وحده بما له من آثار في النفس، والشعور هو وحده القادر على الجمع

بين الاندفاع في العمل، والهدوء في المشاعر والتسامي في الوجدان. وهي معانٍ من أصعب المعاني في مجال التربية.

كيف لا ينطلق المؤمن من الاثارة الخارجية ؟ وكيف لا تهزه العواطف والمتغيرات ؟ وكيف لا ينشغل بجزئيات الحياة عن الاهتمامات الرسالية

الكبرى ؟ وكيف لا يضيق صدره من مواجهات التكذيب والسخرية ويحتفظ بطمأنينة ورباطة جأشه في أحرج اللحظات ؟ وكيف يحتفظ بدرجة اندفاعه، وينمو عنده هذا الاندفاع في مختلف الظروف والأحوال ؟ !

واخيراً.. كيف يحافظ على استقامته الشرعية في معمعة العمل الاجتماعي، وضوضاء الحياة ؟

والجواب : ان كل هذا ليس له سوى منبع واحد.. هو الايمان حينما يثبت في الجوارح كلها في القلب والمشاعر، والارادة، والوجدان.

التربية الروحية وعمل الائمة :

ومن الواضح تاريخياً، ان الائمة كانوا عموماً يعملون به لاجل بناء، وتكوين الشخصية الاسلامية المتكاملة كنقطة مشتركة ضمن النقاط المشتركة في عملهم (ع).. وكانت الشخصية الاسلامية في وعيهم. بوصفهم المعبرين الحقيقيين عن الاسلام هي هذا التلاحم، والتكامل بين الاطار الاخلاقي الشامل للعطاء الاجتماعي، والعمل الرسالي، وبين المضمون والمحتوى الروحي الذي يتمثل في العلاقة بالله تعالى.

كانوا (ع) يواجهون عملية التحلل الاخلاقي، والانصراف للدنيا والبعد عن الله.. والتنصل عن عبادة الله تعالى، وكانوا يواجهون الانحرافات العملية في الجماعة، التي افرزها عملهم، عندما حولت بعض قطاعاتهم الولاءات الى اداة للتنصل عن الالتزام الشرعي، ولتبرير الوضع المتحلل بدلاً من ان تفهمه على حقيقته، بوصفه عاملاً من عوامل الاستقامة،

والالتزام بالشريعة، وكانوا أولاً واخيراً. ينطلقون من دورهم الايماني في الحياة الذي يتمثل – فيما يتمثل فيه – بتكوين اجيال مؤمنة تحمل الرسالة الى العالم باستمرار.. فيعملون على ذلك بمختلف الاساليب..

وقد سجلت المجاميع الحديثية النصوص الواردة عنهم حول الايمان والاخلاق والتربية الروحية، حول الشخصية الاسلامية وبنائها فبلغ ذلك من الكثرة مبلغاً عظيماً.

ونحن هنا نسجل شيئاً من تلك النصوص التي تربط بين الولاء، والتشيع لخط أهل البيت (ع)، وبين العلاقة الروحية بالله تعالى :

١) – عن ابي جعفر (ع) :

(لا تذهب بكم المذاهب فواللّه ما شيعتنا الا من اطاع الله عز وجل)(٣٢)

٢) – عن جابر عن ابي جعفر (ع) (قال : قال لي : يا جابر ايكتفي من ينتحل التشيع ان يقول بحبنا اهل البيت فواللّه ما شيعتنا، الا من اتقى الله واطاعه وما كانوا يعرفون يا جابر الا بالتواضع، والتخشع، والامانة، وكثرة ذكر اللّه والصوم والصلاة)(٣٣)

٣) – عن ابي الصباح الكناني عن ابي عبد اللّه (ع) في حديث :

(ما اقل والله من يتبع جعفراً منكم انما اصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه،

ورجا ثوابه، فهؤلاء اصحابي)(٣٤)

٤) – وعنه (ع) :

(ليس منا – ولا كرامة – من كان في مصر فيه مائة الف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر احد اورع منه)(٣٥)

٥) – وعنه (ع) :

(شيعتنا الشاحبون الذابلون الناحلون الذين اذا جنهم الليل استقبلوه بحزن)(٣٦)

٦) – وعنه (ع) :

(ان شيعة علي كانوا خمص البطون ذبل الشفاه، اهل رأفة، وعلم، وحلم، يعرفون بالرهبانية فاعينوا على ما انتم بالورع والاجتهاد)

وعن ابي جعفر (ع) :

(انما شيعة علي الحلماء العلماء الذبل الشفاه تعرف الرهبانية على وجوههم)(٣٧)

ومن المناسب ان نذكر هنا ان الجيل الاول للمسلمين قد خرّج مجموعة من اهل العبادة، والورع والتقوى، كانوا بسببها موضع مدح اهل البيت (ع) اذ يروى عن ابي جعفر (ع) في خبر صحيح قال : صلى أمير المؤمنين (ع) بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم فبكى وابكاهم من خوف الله، ثم قال : اما والله لقد عهدت اقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وانهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً، بين اعينهم كركب المعزى

يبيتون لربهم سجداً وقياماً يراوحون بين اقدامهم وجباههم يناجون ربهم، ويسألونه فكاك رقابهم من النار والله لقد رأيتهم مع هذا، وهم خائفون، مشفقون).

هذه بعض النصوص الشاهدة على ان الائمة (ع) كانوا يهدفون الى بناء الشخصية الاسلامية بما تتضمنه من عبادة، وايمان، وحب، واخلاص، وكل عناصر الروحية الاسلامية الاخرى. ومن هنا فهم (ع) يربطون بين الولاء، وبين التربية الروحية.. وأما دراسة هذا الهدف ضمن الاهداف العامة للائمة (ع) من الزاوية التاريخية فلها موضع آخر..

الجانب الروحي والممارسات العبادية

توجد بصدد تحديد نوعية العلاقة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية فكرتان خاطئتان هما :

(١) – الفكرة التي تؤكد على ان الممارسات العبادية هي كل شيء.. وان الجانب الروحي انما هو الممارسات العبادية من اذكار، ونوافل، وتبتلات.

(٢) – الفكرة التي تقطع الصلة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية، وتفترض ان بامكان الانسان المؤمن ان تكون لديه الملكة الروحية، وان ينمي علاقته الداخلية بالرسالة من دون حاجة الى المستحبات والاذكار وغيرها من الامور العبادية الخاصة.

والصحيح ان الممارسات العبادية شيء، والجانب الروحي شيء آخر، وان بينهما صلة وثيقة.. وذلك لان الجانب الروحي انما هو الارتباط النفسي، والروحي بالله تعالى هذا الارتباط والانشداد الداخلي، الذي يؤدي الى الورع عن الاسلام.. وهذا المعنى هو الذي يعتبر عنصراً من عناصر الشخصية الاسلامية، أو محتواها الحقيقي، واما العبادة الخارجية فهي ليست المحتوى الحقيقي للشخصية الاسلامية وانما لها دور آخر سنشير اليه.. والاسلام – كتاباً وسنة – عندما يولي العبادة الخارجية من اذكار، وصلوات وادعية.. اهتماماً، وتأكيداً، فانما هو من اجل زيادة الايمان بالله، وحبه، والاخلاص له، وتمثل ما رسمه للانسان في الحياة..

(كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)(٣٨)

وتؤكد النصوص هذه الحقيقة.. وهي ان المهم انما هو البناء الداخلي والانشداد النفسي، والعاطفي، والسلوكي بالله تعالى، بل وتحذر من الوقوع في خطأ الخلط بين البناء الذاتي والممارسات العبادية.. لما لهذا الخلط من آثار عملية وفكرية سيئة ومن اوضحها التركيز على العبادة، والممارسات العبادية، واهمال المضمون الداخلي والتربوي للانسان..

(١) – عن مفضل بن عمرو قال : (كنت عند ابي عبد الله (ع) فذكرنا الاعمال فقلت انا : ما اضعف عملي، فقال : مه، استغفر الله، ثم قال : ان قليل العمل مع التقوى خير من كثير العمل بلا تقوى(٣٩).

(٢) – عن ابي بصير قال : قال رجل لابي جعفر (ع) : أني ضعيف العمل قليل الصيام ولكني أرجو أن لا آكل الا حلالاً فقال له : أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج ؟(٤٠)

وفي نص صحيح عن ابي جعفر (ع) :

(ما عبد اللّه بشيء افضل من عفة بطن وفرج)(٤١)

(١) – عن عيسى بن عبد الله انه قال لابي عبد الله (ع) :

جعلت فداك : ما العبادة ؟ قال : حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها..(٤٢)

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على هذا المعنى..

اذن فالأساس في الجانب الروحي، والمهم في نظر الاسلام تربوياً هو، الصلة الداخلية باللّه، والانشداد النفسي والعمل.. لا كثرة العبادة..

هذا من جهة.. ولكن من الجهة الأخرى فان الممارسات العبادية، وكثرة الاذكار، والتنفلات هي جزء مهم من الاسلام وليست اضافة

غريبة عليه، وقد ورد الحث الشديد عليها في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسجل لنا التأريخ حرص الأئمة البالغ على أدائها، والقيام بها(٤٣).

ومن الواضح ان الاسلام اذ يؤكد على هذه الممارسات العبادية، فلا يؤكد عليها بما هي أصوات، وحركات، وطقوس. وانما ينبع تأكيده عليها، لصلته الوثيقة بالارتباط النفسي والروحي باللّه سبحانه.. أي بوصفها عاملاً تربوياً وسبباً من اسباب تصعيد الايمان في المشاعر، والعواطف والارادة.. فهذا الحث الأخلاقي والتشريعي يكشف عن (صلة واقعية) بين الممارسات العبادية والمحتوى الداخلي للشخصية الاسلامية، وهي صلة لا يمكن عملياً – بموجبها – ان نتصور مستوى روحياً جيداً، من دون ممارسة عبادية جادة، تتمثل في مجموعة من الحركات العبادية والاذكار، والصلوات – المستحبة بالطبع – وهكذا تلاوة القرآن الكريم، ومتابعة الأدعية، وما شاكل ذلك.

ان من حسنات الاسلام الكثيرة علينا – ومن نعم اللّه سبحانه – انه كما اوضح لنا الاهداف التربوية كذلك حدد لنا عموماً وسائلها، ولم يترك هذا الانسان يتخبط في تحديد الوسائل،

والأساليب التي تربطه نفسياً، وشعوراً بالغيب، شخص اللّه سبحانه في تشريعه المنزل : الصلاة والاذكار، والصيام، وتلاوة القرآن الكريم، والدعاء.. كوسائل لتنمية الروح.. وبناء الذات الرسالية وليس بامكاننا ان نقفز من على الأساليب الربانية لنصل الى هدفنا التربوي الخطير. انما نصل اليه بواسطة تمثل هذه الأساليب، وتبنيها عملياً.. وكما ان الممارسات العبادية (عامل)

تربية للبناء الروحي كذلك هي (نتائج) لان العلاقة الداخلية باللّه تظهر على السلوك، لا بشكل طاعة، والتزام فقط، وانما عبادة، وخشوع، وتضرع، واذكار ايضاً.. نلخص من كل هذا.

(أولاً) : ان الممارسات العبادية ليست هي الجانب الروحي في الشخصية الاسلامية.. ولا هي المهم المباشر في نظر الاسلام وانما هي جزء مهم من الاسلام.

(ثانياً) : أن هناك علاقة وثيقة بين الانشداد النفسي العاطفي، والشعوري، والعملي باللّه، الجانب الروحي، وبين الممارسات العبادية لان تكوين الجانب الروحي وتنميته لا يتم من الناحية العملية، ومن زاوية النظرية الاسلامية التربوية إلا من خلال الممارسات العبادية وأمثالها، ونقصد من الممارسات العبادية في كل ما سبق الممارسات العبادية، التي تمثل العبادات الواجبة المؤداة بصورتها الصحيحة، والفضلى، والعبادات المستحبة.

جنايات على التربية الروحية

نلاحظ : ان الانسان المسلم – وحتى بعض من كتب في هذه المجالات – يعاني من الضعف الروحي.. وضعف الانشداد النفسي بالله تعالى.. من عوامل ذلك صعوبة التعامل النفسي مع الغيب لان الانسان بحكم تكوينه المرتبط بالمادة، وانغماسه في الحس ذهنياً، ونفسياً لا يجد من السهل ان يتعالى على ذلك، ويعلق شعوره، وقلبه بالله سبحانه ويقطع نفسه من الدنيا، ومعانيها الخداعة.. طبيعة المذهب البشري الميال الى

{ ٩٢ }

التفكير الحسي(٤٤) وغرائز الانسان، وشهواته التي تتطلب السرعة، والعجلة في التنفيذ(٤٥) عاملان داخليان لاضعاف التوجه الروحي في المشاعر والوجدان، والارادة.

ويضاف الى ذلك، عوامل اخرى تساعد على ضعف البناء الروحي للانسان المسلم :

(١) – الصورة المشوهة التي كونتها الاتجاهات الروحية المنحرفة، اذ يقترن الآن في ذهن الانسان المسلم – أو بعض المؤمنين – التربية الروحية العبادية الكثيرة التي تهدف الى خلق الروح الاسلامي المشدود الى الله يقترن هذا باعتزال الناس، والقطيعة الاجتماعية، والتنصل عن المهام الرسالية في الحياة، والنماذج المتدينة، والاتجاهات المنحرفة في التربية الروحية. ان الافراط – لو صح هذا التعبير – في التربية الروحية واختلال التوازن السلوكي على حساب العمل الاجتماعي أدى الى تفريط هذه التربية، وردود فعل نفسية سلبية تجاهها.

وان توضح المفهوم الاسلامي الصحيح حول الاعداد والتربية الروحية، والعمل على القاء الاضواء على حياة الرسول صلى الله عليه وآله والائمة الصالحين الذين عانوا في العمل الاجتماعي، في جانبها العبادي المشرق، واقتران الدعوة الى التربية الروحية بشجب التيارات المنحرفة فيها من الامور الضرورية، في مواجهة هذا التعامل التاريخي السلبي.

(٢) – الجو الحضاري، والاجتماعي الذي يقوم على اسس اخلاقية،

{ ٩٣ }

وفلسفية تختلف عن قيم الاسلام، واخلاقه وتصوراته عن الحياة ان هذه الحضارات المادية التي يشيع تأثيرها في كل مكان لقادرة على ان تستوعب تيارات اجتماعية، وفكرية مختلفة وهي لا تمانع مع انتشار هذه التيارات شريطة ان لا يكون لهذه التيارات مضمون حياتي، واخلاقي، أو حضاري جديد يختلف عنها بامكان هذا الانسان المسلم ان يعمل للاسلام ويوضح افكاره كمبدأ اقتصادي واجتماعي.. دون ان يشعره ب(ازدراء) اجتماعي وحضاري خاصة اذا

فرغ الاسلام من مضمونه الاخلاقي.. اما ان يدعو هذا الانسان المسلم الى صياغة انسان جديد.. يقوم على اساس الانشداد النفسي والشعوري، بالله والزهد في الدنيا. او هو يبني نفسه على اساس من ذلك، فهذا (نشاز) في وعي الانسان المعاصر الذي يزدري بسهولة هذه المفاهيم وهذا عامل مهم من عوامل ضعف البناء الروحي لان للايحاء الحضاري والاجتماعي اثراً كبيراً في شخصية الفرد.

(٣) – التحدي الثقافي الغربي للانسان المسلم يفترض على هذا الانسان ان يقوم بعملية رد على التحدي، والذي يحدث – عادة – في مثل هذه الحالات هو ان يفقد الانسان المسلم اصالته، وصدوره عن منبع ثقافي، وروحي اصيل.. وتكون ثقافته، ومواقفه مجرد ثقافة ومواقف (دفاعية) وهذه مسألة مهمة تدعو الى التفكير، والتأمل..

عناصر الجانب الروحي

تشتمل الروحية الاسلامية على ثلاثة عناصر رئيسية :

(الاول) : الوعي الايماني وتعني – هنا – المدركات الذهنية التي

تتمتع بالاستحضار المستمر، والمعايشة الدائمة من قبل الانسان المؤمن، كالايمان بالله تعالى، واليوم الآخر والشعور بالحركة التاريخية، ووحدة المسيرة.. الخ

(الثاني) : الوجدان الاسلامي ويشمل العواطف كحب الله تعالى، وحب المؤمنين، والانفعالات، كالخوف، والرجاء من الله، والغضب له.

(الثالث) : الارادة، والاخلاص، أو الدافع الديني في شخصية الانسان المسلم، الذي ينظم حركة هذه الشخصية وتصرفاتها، ويعتبر الجهاز الحاكم فيها.

وسندرس هذه العناصر ان شاء الله تعالى.. تباعاً ثم نسجل بعد ذلك ان شاء الله الوسائل التي وضعها الاسلام لبناء الجانب الروحي وتنميته.

ومنه تعالى نستمد التوفيق والسداد..

هوامش الفصل الأول

(١) – البيان في تفسير القرآن ص ٢٦ – ٢٧

(٢) – سورة الحشر / ٨

(٣) – الوسائل ابواب القاضي ب ٨ ص ٣٩

(٤) – الاسراء / ٣٦

(٥) – الزمر / ١٩

(٦) – الانعام / ٣٦

(٧) – مجمع البيان ج ٧ ص ٢٣٥ – ٢٣٦

(٨) – نهج البلاغة نص ٢٠٩

(٩) – امر عظيم له دلالته ما وقع على المستوى الفردي من الامام أمير المؤمنين عندما اهانه عمرو بن عبد ود في معركة الاحزاب وكان (ع) متمكناً منه الا انه اعرض عن قتله حتى هدأ غضبه وكان منه ذلك عليه السلام حرصاً على اصالة الفعل والاخلاص فيه لله تعالى.

(١٠) – اصول الكافي ج ١ ص ٣١

(١١) – اصول الكافي ج ٢ ص ١٦٣

(١٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٩٩

(١٣) – الوسائل ابواب مقدمات العبادات ب ٥ ص ٣٣

(١٤) – نفس المصدر السابق ص ٣٩

(١٥) – اصول الكافي ج ١ ص ٣٣

(١٦)، (١٧) – اصول الكافي ج ١ ص ٤٤

(١٨) – الوسائل ابواب مقدمات العبادات ب ٥ ص ٣٣

(١٩) – في الرواية عن ابي عبد الله (ع) : (لقي عباد البصري علي ابن الحسين (ع) في طريق مكة فقال له : يا علي تركت الجهاد وصعوبته واقبلت على الحج ولينه ان الله عز وجل يقول : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) الآية فقال علي ابن الحسين (ع) اتم الآية فقال : (التائبون العابدون) الآية فقال علي بن الحسين (ع): اذا رأينا هؤلاء هذه صفتهم فالجهاد معهم افضل من الحج) (الوسائل – ابواب جهاد العدو – ب ١٢) ص ٣٣

(٢٠) – في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١

(٢١) – في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١

---

(٢٢) – الميزان م ١١ ص ٦٦ عن مجمع البيان

(٢٣) – سورة هود / ١٠٩ – ١١٥

(٢٤) – نعني بالمشاركة الوجدانية الشعور الجماعي بدلاً عن الشعور الفردي.. أي الشعور ب(نحن) بدلاً عن الشعور ب(انا) وينتج ذلك تداعي المؤمن للمؤمن في آلامه وافراحه واحزانه.. عن الصادق (ع) : (المؤمن اخو المؤمن كالجسد الواحد ان اشتكى شيء منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وارواحهما من روح واحدة، وان روح المؤمن لاشدّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها) (الاصول ج ٢ – ص ١٦٦) وهذا يعني ان الصلة العاطفية بين المؤمنين نابعة من صلتهم العاطفية بالله تعالى.

(٢٥) – هود / ٢٩ – ٣٠

(٢٦) – آل عمران / ١٤٥ – ١٤٨

(٢٧) – آل عمران / ١٧٣

(٢٨) – طه ٧١ – ٧٣

(٢٩) – اخبار معرفة الرجال ص ٥٩١

(٣٠) – مقاتل الطالبيين ص ١٣٩

(٣١) – نفس المصدر ١٣٥

(٣٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٧٣

(٣٣) – نفس المصدر ص ٧٤

(٣٤) – نفس المصدر ص ٧٧

(٣٥) – نفس المصدر ج ٧ ص ٧٨

(٣٦) – نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٣

(٣٧) – نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٥

(٣٨) – سورة البقرة ١٨٣

(٣٩) – اصول الكافي ج ٢ ص ٧٦

(٤٠) – نفس المصدر ج ٢ ص ٧٩

(٤١) – اصول الكافي ج ٢ ص ٧٩

(٤٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٨٣

(٤٣) – ولعل الامامين العليين أمير المؤمنين (وعلي ابن الحسين (ع) كانا اكثر مبالغة وجهداً من باقي الائمة (ع) في ذلك.. ففي خبر صحيح عن ابي عبد الله : (كان علي بن الحسين (ع) اذا اخذ كتاب علي (ع) فنظر اليه قال : من يطيق ذا ؟ من يطيق ذا، قال : ثم يعمل به وكان اذا قام الى

الصلاة تغير لونه حتى يعرف ذلك من وجهه وما اطاق عمل علي (ع) من ولده من بعده الا علي بن الحسين (ع) ويؤكد هذا المعين اخبار اخرى (الوسائل – مقدمات العبادات – باب ٢٠ ص ٣) وفي بعضها انه دخل ابو جعفر (ع) على ابيه علي بن الحسين فاذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه احد فرآه قد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانحرف انفه من السجود ورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة : وقال ابو جعفر فلم املك – حين رأيته بتلك الحال – البكاء فبكيت رحمة له فاذا هو يفكر فالتفت الي بعد هنيئة من دخولي فقال يا بني اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن ابي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده تضجراً وقال : (من يقوى على عبادة علي بن ابي طالب (ع)) ؟ باب ٢٠ ص ٦٨ الوسائل.

(٤٤) – الانسان وان كان يميل طبيعياً الى التفكير الحسي الا انه قادر على تجاوز المعرفة الحسية.. فهذا وغيره من (القوانين الاقتضائية) وليس من (القوانين الحتمية).

(٤٥) – (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الثواب) (آل عمران).

---

(١)(ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) (الاسراء)

الوعي الفكري والفهم

ان الفكر الذي يعتبر عنصراً من عناصر شخصية الانسان المسلم ليس هو (الفهم) والتصديق الساذج بقضايا الايمان، وتقريرها تقريراً منطقياً، أو عملياً، انما هو الوعي والفكر المستحضر المعاش في الذهن، والمتذكر

باستمرار فهؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى كما يؤمنون بكروية الارض، ودورانها حول الشمس، ولا يتعاملون شعورياً مع هذه الفكرة الخطيرة.. لا يتمثلون في ذلك الوعي الديني والكوني وانما هم فقط (يفهمونه) ويبقى الوعي لهذا الانسان الذي يفكر في الاشياء، ويحسها من خلال ارتباطها بالله ويتذكر الله باستمرار.

وما يشترط بالانسان المسلم غير ما يشترط في الشخصية الاسلامية ان ما يشترط في الانسان المسلم من اجل ان ينتمي رسمياً الى الاسلام هو، ان يؤمن بالله، ورسوله ايمان فهم، ويعلق هذا الايمان بكلمة الشهادة مثلاً لاكثر فهم ولكن ما يشترط في الشخصية الاسلامية، ويعتبر العنصر الأول من عناصرها شيء آخر هو، الوعي الايماني، أو الايمان بوعي، بمعايشة ذهنية.. بالنظر الى الاشياء، والعالم من خلال الارتباط بالله تعالى. وبهذه يصبح الفكر الاسلامي شيئاً آخر، أو بالاحرى ينتقل الى مرحلة اخرى هي مرحلة (الرؤية الفكرية) أو (البصيرة) شيء تحسه، وتراه.. وتؤمن به كما تؤمن بالاشياء التي تواجهها، وتقوم في حسك، وعقلك(١) فمثلما ترى نفسك، وانت تشاهد الاشياء، وتبصرها.. وينشد ذهنك اليها.. كذلك ترى نفسك، وأنت تؤمن بالله وتؤمن باليوم الآخر ومرحلية هذه الحياة.

الفصل الثاني : الايمان (الوعي الكوني والرؤى الفكرية)

دور الفكر في الشخصية الاسلامية

الفكر.. هو الصورة الذهنية التي يحملها الانسان عن الواقع الخارجي عن الكون، اصله، ونشأته وتطوره ونهايته، والحياة ومعناها والمجتمع وقوانينه ودور الانسان في هذه الدنيا.. ومسؤوليته فيها وصلة الله تعالى بالعالم.. الى آخر ما هنالك من موضوعات يتعلق بها الفكر الانساني، والفكر هو احد اجهزة الشخصية الانسانية، التي تتفاعل فيما بينها، وتتبادل التأثير وهي (الفكرة، العاطفة، الارادة) ففكر الانسان ليس منفصلاً عن عاطفته واسلوب حياته النفسية وانما هو متصل بها أوثق اتصال، يؤثر فها ويتأثر بها.. ومن هنا كان النمو الفكري للطفل البشري، والمجتمع البشري يؤثر باستمرار في طريقة حياته، وفي قيمه الاخلاقية والحضارية، ودرجة انفتاحه النفسي، ونضجه الانفعالي..

ومن هنا ايضاً كانت اجدر الرسالات في التأثير بالناس، وقيادتهم، الرسالة التي تقدم لهم منهجاً كاملاً شاملاً للفكر، والاخلاق، والسوك.. لان الانسان في ظل هذه الرسالة لا يشعر بالانفصال بين فكره، وسلوكه، وبين مفاهيمه بالحياة، وقيمه الاخلاقية ولان كل جزء من هذه الرسالة يعزز الجزء الآخر ويكمله.

ومن هنا ندرك عظمة هذا الدين الذي تنزل من اجل بناء الانسان، حينما بدأ مشروعه التغييري الجبار من التحرير الفكري للانسان من اوهام

{ ١٠٠ }

الجاهلية، والابداع واعادة بنائه العقلي على اساس من وعي كوني جديد، يقوم على اساس الايمان بالله، الواحد الاحد، المتفرد بالاسماء الحسنى، ذي الطول والنعم باعث الانبياء والرسل لهداية الناس.. والايمان بمرحلية هذه الحياة، وعود الناس الى الحياة من جديد، ليروا اعمالهم.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

وما اسهل ان ندرك قيمة هذا الوعي الكوني في شخصية الانسان المسلم واثره العميق في الحياة النفسية لهذا الانسان هذا الوعي الذي يبعث وينمي الاحساس الاخلاقي بالحياة، ويعمل على خلق المشاعر المتعالية على جزئيات الحياة، وصغائر الامور.. هذا الوعي الذي يقاوم التقييم النفسي للظواهر، والاشخاص، ويوسع الآفاق.. ويخلق طمأنينة النفس، وهدوء المشاعر، والانفعالات، هذا الوعي الذي ينمي روح التفاؤل بالحياة، والانفتاح عليها، ويترك لاهل الضلال السأم، والتطيّر، والقلق، والغثيان.. ولا يقتصر الوعي الذي يشيعه الاسلام بين المؤمنين على الوعي الديني الخاص، الذي يتمثل بالايمان بالله، واليوم الآخر بل يتعدى ذلك الى مجالات اخرى سنأتي عليها إن شاء الله بعد قليل.

مراحل الاعتقاد

في هذا العالم ناس ملحدون، تمردوا على خالقهم، فأنكروا وجوده، أو عاشوا في هذه الحياة معيشة ضنكاً، وفيه ايضاً مشككون، قد اتعبتهم

{ ١٠٢ }

الحيرة، واستحكم فيهم القلق، والتردد.. الى جانب هؤلاء، هناك مؤمنون بالله تعالى عند حدود (الفهم) ويقررون وجود الله تعالى كما يقررون وجود الحياة على كوكب المريخ، أو كما يشرحون لك تحول السدم الى مجرات.. فهم يؤمنون بالله من الناحية الفعلية، والمنطقية، ولكنهم لا يؤمنون به شعورياً، ولا يحسون وجوده المقدس.. وهنالك المؤمنون الذين تجاوزوا مرحلة (الفهم) الى مرحلة (الوعي).

وايمان الوعي هو ان تبصر الله في خلقه، وعند نعمه ولا تنساه نسيان شعور بل تعيش وجوده، وتستشعر به تعالى وهناك من يتجاوز مرحلة (الوعي) الى مرحلة (الاحساس) واليقين، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون..

وهكذا فمراحل الاعتقاد ثلاثة كما ورد عن الامام الصادق (ع) :

(ان الايمان افضل من الاسلام، وان اليقين افضل من الايمان، وما من شيء اعز من اليقين)(٢)

المرحلة الاولى : مرحلة الاسلام، وهي ان تؤمن ايمان (فهم) بشهادة (لا إله إلا اللّه، محمد رسول الله)، ولا تقتضي هذه المرحلة سوى التصديق بالله تعالى، وكماله وتوحيده، ونبوة الرسول صلى الله عليه وآله ، وتؤمن اجمالاً بما جاء به كما تصدق بالنظريات العلمية مثلاً من دون معايشة ومشاركة، ومن هنا جاء في خبر سماعة عن الصادق (ع) :

{ ١٠٣ }

(الاسلام شهادة ان لا اللّه الا اللّه، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح، والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس)(٣)

المرحلة الثانية : مرحلة الايمان، وهي ان تؤمن بالحقائق الدينية الكبرى ايمان (وعي) لا ايمان فهم.. وبالايمان تخرج من مستوى الفهم، والتقدير العقلي لقضية الوجود الالهي، واليوم الآخر، وارتباط الخلق ببارئه الى مستوى الوعي ودخول القضية الى القلب، والمعايشة الروحية، واستشعار الهداية والطمأنينة.

(قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا اسلمنا ولمّا يدخل الايمان في قلوبكم).

وفي خبر سماعة عن الصادق (ع) :

(.. والايمان الهدى وما ثبت في القلوب من صفة الاسلام، وما ظهر من العمل به، والايمان ارفع من الاسلام درجة..)(٤)

وعن الفضيل بن يسار عن الصادق (ع) :

(ان الايمان ما وقر في القلوب)(٥)

{ ١٠٤ }

يبقى هنا : ان العمل بالشريعة انما هو نتيجة للايمان لانه من عناصره، ومظهر له لا مخبر.. وبهذا نجمع بين ما دل على دخالة العمل في الايمان، وما دل على خروجه عنه من النصوص..

ويبقى ايضاً : ان من الممكن في مرحلة الايمان ان يقع شيء من الوسوسة، ولا يضر ذلك في ايمان المؤمن، فان الايمان اطمئنان القلب، وعقدة الهداية التي تسري في النفس، وهذا لا يلغيه وقوع خاطرة شيطانية في الذهن.. ففي حديث صحيح عن ابي عبد الله (ع) قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله هلكت. فقال له : اتاك الخبيث، فقال لك : من خلقك ؟ فقلت : الله، فقال لك : الله من خلقه ؟ قال: اي، والذي بعثك بالحق نبياً لكان كذا، فقال رسول

الله صلى الله عليه وآله : ذاك، والله محض الايمان(٦) الى غير ذلك من النصوص الواردة في عدم منافاة الوسوسة للايمان.

المرحلة الثالثة : مرحلة اليقين، وهي اعلى المراحل وأسماها، واعزها، وهي مرحلة الاحساس، وانكشاف الغطاء.

(لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)

وتحول الغيب الى شهادة..

وليس هنا وسوسة، أو فراغ، وانما هو تواجد مستمر للقضية في الاحساس، والشعور.

وانت تستطيع ان تجد الكثير من المؤمنين الذين عاشوا قضية الايمان، ودخل الايمان قلوبهم، وشاع الهدى في نفوسهم، ولكن اليقين امر عزيز لا

يأتي الا للفرد النادر من الناس.. فعن الرضا (ع) :

(الايمان فوق الاسلام بدرجة والتقوى فوق الايمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة ولم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين)(٧)

ومن نماذج اهل اليقين ما جاء في نص معتبر عن ابي عبد الله (ع) :

(ان رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح فنظر الى شاب، وهو يخفق، ويهوي برأسه (تأخذه سنة من النعاس فيميل رأسه) مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه فقال رسول الله : كيف اصبحت يا فلان ؟ قال : اصبحت يا رسول الله موقناً. فعجب رسول الله من قوله، وقال : (ان لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك ؟ فقال : ان يقيني يا رسول الله هو الذي احزنني، واسهر ليلي، واظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني انظر الى عرض ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وانا فيهم، وكأني انظر الى اهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون وكأني انظر الى اهل النار، وهم فيها معذبون، مصطرخون وكأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لاصحابه : هذا عبد نور اللّه قلبه بالايمان ثم قال : الزم ما انت عليه. فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله ان ارزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث ان خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر فكان هو العاشر)(٨)

«ذكر الله»

ان مرحلة الايمان التي تمثل الحد الادنى في الشخصية الاسلامية، ويعيش معها الكثير من المؤمنين.. تتضمن عنصرين : –

الاول : عدم الارتياب، والشك في وجود الله تعالى واية حقيقة دينية اخرى، لقد بحث المتكلمون في ان الظن وهو الاحتمال الراجح الذي يعاكسه احتمال آخر مرجوح هل يكفي في تحقق

الاسلام، وانتماء الانسان الى الاسلام ؟ وهذا على مستوى البحث الكلامي بحث وجيه.. واما على المستوى التربوي.. فان من الواضح ان أي احتمال معاكس واي ارتياب في أي حقيقة دينية فهو يتكافأ مع الحد الادنى المطلوب في الشخصية الاسلامية.

يقول تعالى :

(انما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا باموالهم وانفسهم أولئك هم الصادقون)(٩)

الثاني : ذكر الله.. وذكر الشيء، حفظه في النفس والشعور به، وذكر الله تعالى : هو ان يكون وجدانك، وشعورك ممتلئ به منشداً اليه.. أي ان تعيش خشية الله تعالى في مشاعرك، وتفكيرك، ومن نتائج هذا الحضور الشعوري لله تعالى في ذهن المؤمن ذكره على اللسان، وتسبيحه وحمده.

{ ١٠٧ }

فذهن المؤمن وشعوره (ميال) بطبعه الى ذكر الله تعالى، والارتباط المستمر به.. و(تداعيات) ذهنه تكون عادة اليه تعالى، لان الله تعالى هو (وجهة) حياته ومحور تفكيره، وشعوره وتوجهه النفسي فهو اذا تجددت عليه نعمة ذكر الله، واذا نزلت به نازلة ذكر الله واسترجع، واذا اقدم على فعل ذكر الله، واذا اذنب ذكر الله واستغفر اليه، واذا نظر الى ابداع الخلق، وشيء من ملكوت السماوات والارض ذكر الله، هكذا.. وهكذا فإن أغلب احساسيه وافكاره (تدعوه) الى ذكر الله تعالى، وهذا هو العيش الشعوري، والحياة الذهنية المؤمنة مع خالق الكون العظيم المتعال.. اما ان يكون الايمان بالله تعالى مجرد كلمة تتردد على الافواه، وفهم لا يخرج عن دائرة الجزم والتصديق الساذج دون أن يشيع في العقل والشعور والتفكير.. فليس هذا من الايمان في شيء.. وغاية الامر انه خطوة نحو الايمان.. وارضية من الممكن ان يبنى عليه الايمان، والذكر..

كان متمم بن نويرة يبكي اخاه مالكاً.. يذكره ويبكيه عندما يرى ناراً لانه بذاك يذكر نار اخيه الموقدة الى الصباح تنتظر الضيوف، ويبكيه، ويذكره كلما رأى قبراً، لقبر ثوى بين اللوى فالدكائك، ولامه صاحبه على ذلك على هذه التوسعة في معايشة ذكرى مالك على هذا البكاء عند كل قبر.. وكان جواب متمم ابياتاً من الشعر يقف الى الآن عندها الاديب، وعالم النفس والمؤمن الذي يبحث عن تجارب شعورية تشبه تجربة المؤمنين مع الله:

لقد لامني عند القبور على البكا***رفيقي لتذارف الدموع السوافكي

فقال أتبكي كل قبر رأيته***لقبر ثوى بين اللوى والدكائك

{ ١٠٨ }

فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا***فدعني فهذا كله قبر مالك

ان شدة مقتل مالك في نفس متمم وسعت من نقاط التفاعل الشعوري بين الاخ واخيه، واظهرت الترابطات الخفية بين ما يشاهده ويحسه من قبر، ونار، وغير ذلك، وبين الاخ القتيل.

والمؤمن كذلك مع الله وان شدة تعلقه بالله تعالى وانشداده اليه يجعله دائم الذكر له سريع الادراك.

للترابطات الموجودة بين الامور المحسوسة من حوادث واشياء، وظواهر، وبين الخالق العظيم.
ان تجربة ذكر الله تعالى، ومعايشته الشعورية والذهنية تقوم على اساس توسعة المثيرات الباعثة للذكر شعورياً.. فبينما لا يتذكر الانسان العادي الله الا عند حوادث استثنائية فان الانسان المؤمن، يذكره عند عدد كبير جداً من الحوادث، والظواهر، والاشياء، والافعال.. من خلال ادراكه للترابطات الخفية والظاهرة بين هذه الامور وبين الله – ويفترق هنا الانسان المؤمن مهما بلغ من الانشداد الى الله تعالى عن الانسان المتصوف المغالي في العمليات التصوفية. اذ يحتفظ الانسان المؤمن بقدرته العقلية على التمييز بين (ما يذكره) بالله تعالى، وبينه سبحانه دون ان يوحد بين المذكِّر والمذكَّر به. اما الانسان الصوفي الذي يغالي في التصوف فهو يفقد قدرته العقلية على التمييز ويؤكد – في شطحاته – وحدة المخلوقات مع الخالق.
هذا وبما ان حالة التواجد الشعوري المستمر لفكرة الايمان بالله تعالى في

النفس امر غير ممكن – عملياً – فلذا كان ما يربي عليه القرآن الكريم هو، ان نذكر الله ذكراً كثيراً مع اتاحة الفرصة للذكر المستمر.. الدائم لله :
وقد تنوع الحث القرآني على ذكر اللّه تعالى :
(١) – ذكر الله كثيراً :
(واذكر ربك كثيراً)
(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً)(١٠)
(٢) – ذكره تعالى عند الذنب:
(والذين اذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا انفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا اللّه)(١١)
(٣) – ذكر الله في مواطن العبادة واوقاتها:
(فاذا افضتم من عرفات، فاذكروا الله عند المشعر الحرام)(١٢)
(وسبح بالعشي والابكار)
(وسبحوه بكرة واصيلا)
(٤) ذكره تعالى في الشدة والبلاء:

(يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً)(١٣)
(والذين اذا اصابتهم مصيبة، قالوا انا للّه وانا اليه راجعون)(١٤)
(٥) – ذكره تعالى عند التذكير:
(والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا)(١٥)
(انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا)(١٦)

(٦) – ذكر الله تعالى بصورة مطلقة.

(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفيةً)(١٧)

الى آخر ما ورد من الحث على ذكر الله، واستحضاره في مختلف مجالات حياة الانسان. وهذه الآيات الكريمة اما ان تحث على الذكر الذهني لله تعالى بشكل مباشر أو انها تحث على الذكر اللفظي، ليكون ذلك سبباً للذكر الذهني وعلى أي حال فهي لا تهدف الى اللفظ وتكرار الاصوات، وانما الى الذكر الحقيقي، والمعايشة الذهنية..

«من عطاء الذكر»

قلنا ان ذكر الله هو المعايشة الشعورية له، والاحساس بوجوده المقدس باستمرار. وللذكر هذا آثار عظيمة في شخصية الانسان المؤمن. نذكرها فيما يلي :

١ – أن ذكر الله تعالى شعور بمراقبته، ورصده لافعال العبد وتصرفاته وفي هذا قوة عظيمة (دافعة) على الالتزام والتقيد بالحدود، والقيود الاسلامية عن ابي عبد الله (ع) :

(من أشد ما فرض اللّه على خلقه ذكر الله كثيراً.. ثم قال : لا اعني سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله والله اكبر، وان كان منه، ولكن ذكر الله عندما حل وحرم، فان كان طاعة عمل بها، وان كان معصية تركها)(١٨)

وفي هذا الخبر دلالة واضحة على ان المفهوم السليم للذكر هو ذكر الله في النفس خيفة، وتضرعاً وان كان للذكر اللفظي دور، واهمية تربوية كما مر.

٢ – ان تجاوز الاشياء الحاضرة المتناهية، والعيش الشعوري مع الله تعالى يخلق حالة التعالي، والتسامي في شخصية الانسان المسلم، هذه الحالة التي تعد من اكبر مميزاته الشخصية، وسماته الذاتية.. فان من يعيش

حلاوة الذكر ويتنعم باستشعار اللّه تعالى يقترن ذلك لديه الشعور بالتعالي، والتسامي على صغائر الأمور وجزئيات الحياة التي تشغل هم الناس وتقع مورداً لتنافسهم، وتصارعهم.

٣ – وهذا (التجاوز) الشعوري، والتعالي، والتسامي في المشاعر، والمدركات هو الذي يخلق في شخصية الانسان المسلم حالة اخرى هي (الاطمئنان)، والاستقرار النفسي و(السكينة)، و(الوقار) – في مفهومه الاخلاقي الاصيل – قال الله تعالى :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللّه الا بذكر اللّه تطمئن القلوب)(١٩)

والسبب في الاطمئنان بذكر الله تعالى.. هو ان الاستقرار النفسي، أنما يتحقق للشخصية فيما اذا ارتبطت شعورياً بمنطلقات غير متغيرة. اما اذا انشدت الى اشياء متحركة، مضطربة، فان هذا الاضطراب سينعكس على النفس بصورة قلق على شيء يخشى زواله، أو شيء يخشى وقوعه، وبصورة خوف، وهم، وحزن.. وجزع.. والمؤمن اذ يعزف عن الدنيا، ويكفر بقيمها الفانية،

ويعيش شعورياً مع الله.. ويرتبط نفسياً به، فان الاستقرار عندئذ هو النتيجة الطبيعية المترتبة على ثبات الله تعالى الذي تتعلق به النفس، والشعور.

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)(٢٠)

{ ١١٣ }

(ان الانسان خلق هلوعا، اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا، الا المصلين)(٢١)

٤ – ويتعرض الانسان في مسيرته الى الوان من المكاره والمضايقات، والوحدة والغربة، اذ يتفرق الناس عنه ويسخرون منه، ويكذبونه، ويعيشون في عالم غير ما يعيش فيه..

وهنا قد ينتهي الى (ضيق) نفسي يمنع عقله من الحركة ونفسه من الانطلاق، وارادته من الثبات والصمود، وقد ينتهي به هذا الضيق الى (اليأس)، و(التشاؤم)، والشعور بالضعف، والانكسار، والذي يعالج هذه الحالة ويبعث في النفس الانفتاح، والتفاؤل، ويجدد لها حيويتها، ونشاطها واندفاعها في حقول العمل لله.. والجهاد في سبيله هو ذكر الله.. واستشعاره، والاحساس به كما يوجه الى ذلك ويدل عليه الاعداد القرآني للرسول صلى الله عليه وآله في لحظات المعاناة من التكذيب، والسخرية فاقرأ هذه الآيات المباركة، ولاحظ كيف تعالج حالة (الضيق) النفسي بذكر الله تعالى.. واستشعاره والاحساس به.

(فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح، واطراف النهار لعلك ترضى)(٢٢)

(فاصبر ان وعد اللّه حق، واستغفر

{ ١١٤ }

لذنبك، وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار)(٢٣)

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه، وادبار السجود)(٢٤)

«المكانة الشعورية للحياة في نفس المؤمن»

ان اشياء الحياة، وظواهرها، تدرك في شعور المؤمن في سياق مركب شامل يضم اطراف الوجود كله من حيث المبدأ والغاية، والسنن الجارية فيه وفي هذا المركب الشامل الذي يضع المؤمن فيه اشياء الحياة، وظواهرها سوف يعطي كل شيء منها، قيمته الحقيقية فلا (يحقر) ولا (يصمّ).

وقد نشأ في اطوار الحضارة المادية، وحتى في الحضارة المادية المعاصرة اتجاهان مختلفان، يمثلان الانعكاس الطبيعي للنظرة المادية الى العالم.

(الاول) : الاتجاه القائم على تصنيم ظواهر الحياة وبالخصوص ما يتعلق منها بالهوى، والشهوة ومن هنا اصبحت عبادة الدنيا البديل الطبيعي عن عبادة الله، والتواجد الشعوري للدنيا في نفس الانسان بديلاً عن التواجد الشعوري لله، وحقائق الوجود الكبرى.

{ ١١٥ }

(الثاني) : الاتجاه القائم على تحقير الحياة، وتفريغها من أي معنى وهنا يشعر الانسان بالغربة في هذا الوجود والعبث، والغثيان، والقلق، الخ.

نتيجة لعدم الايمان بارتباط هذا الكون بمبدأ وغاية وجودية والانسان المؤمن في ارتباطه بالله عز وجل وتعامله مع العالم من خلال التصور الاسلامي له يضع الاشياء، والحياة في مواضعها الطبيعية ويمنحها القيم التي تستحقها.

فلأنه يدرك ان كل هذه الظواهر الكونية اعراض وجودية – لو صح التعبير – وان الحقيقة الوجودية الكاملة التامة هي الله، والله وحده وان كل ما في الكون يأتي ويروح وكل شيء فان، وان اشياء هذه الحياة من اموال وبنين، ونساء ليس لها قيمة الا من خلال كونها (نعماً) الهية، ووسيلة خير فهو – لهذا – لا يمكن ان يصنّم هذه الاشياء، والظواهر ولا يمكن ان تحتل في شعوره وتفكيره ما يحتله الله تعالى.

ولأنه يدرك ان هذا الكون هو فعل الله تعالى وان الحياة نعمة من نعمه، هي وما فيها من اشياء، وانها يمكن ان تكون طريقاً، ووسيلة تنتهي به الى خير دائم.. وسعادة ابدية يغطيها رضوان الله تعالى. فهو لا يمكن بحال أن (يحقر) الحياة أو يتعامل معها – والعياذ بالله – كعبث لا معنى له.

ولأنه يدرك، ويعلم بان هذه الحياة مرحلة من الحياة كلفه اللّه تعالى فيها، واختبره واستخلفه للقيام بدور معين ونمط معين من السلوك والاعتقاد، فهي ليست لديه تحللاً من القيم، وانهماكاً في اللذات، وركضاً وراء الشهوة، والاهواء.

{ ١١٦ }

وهكذا فان لدى المؤمن ثلاثة احساسات تجاه الحياة :

١ – الاحساس بهذه الحياة ك (نعمة الهية) وخير الهي يتفضل به الله على هذا الكائن الفقير.

وهو احساس لا ينتهي الى (الشكر) فقط، وانما الى الانفتاح النفسي على الحياة، والتجاوب الشعوري معها ايضاً وبعض الناس ينظرون الى النعم الالهية من مال وبنين ونساء.. بنظر شؤم، وتطير.. لانها في اعتقاده هي مصائد الشيطان، وحبائل مكره، وخدعه وهذا خطأ.. فان اشياء هذه الحياة نعم الله.. وخيره، وبركاته، وتفضلاته على الناس.. وحبائل الشيطان، وخدعه ليست هذه الاشياء بذاتها.. وانما هي اهواء النفس المرتبطة والمتعلقة بها.

٢ – الاحساس بهذه الحياة كمرحلة عابرة في مسيرة الحياة تمهد الى حياة دائمة خالدة، والاحساس بقصر مدتها وحركة احداثها، وعدم استقرارها لاحد.. وهي بهذا تسمى (دنيا) لانها أدنى من ان تمتلك قلب المؤمن أو تكون محطاً لعبادته، وهواه.

وتربية هذا الاحساس من أهم ما حاوله القرآن الكريم والهداة المعصومون (ع) باعتباره من قمم الاحساسات والمشاعر الايمانية التي بتميز بها الانسان المؤمن..

(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل)(٢٥)

{ ١١٧ }

(انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس، والانعام، حتى اذا اخذت الارض زخرفها، وازينت، وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلاً، أو نهاراً، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)(٢٦)

(وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع)(٢٧)

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض، فاصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير املا)(٢٨)

(وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)(٢٩)

وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى، وهناك عدد هائل من النصوص

{ ١١٨ }

الواردة في تصوير عرضية الحياة الدنيا وزوالها.. وكونها منطقة عبور، وممر للآخرة، ومرحلة تمهيدية لها.. والغرض من هذا ليس (تفهيم) المسلمين هذه القضية الواضحة لديهم، وانما (تحسيسهم) بذلك وتوعيتهم عليه حتى تكون لديهم (بصيرة) من بصائرهم ورؤية فكرية واضحة لديهم تهديهم الطريق، وتدفعهم الى العمل.

ان وعي الحياة الدنيا على حقيقتها، والاحساس بنهايتها ومرحليتها هو الطريق الطبيعي لانهاء حالة الركون الى الدنيا، ومعانيها، والركض وراءها والهم لها.. يضيع الانسان المؤمن احياناً في هذه الدنيا.. فتراه يبني له أحلاماً واسعة، يستهدف بها الجاه، والمركز.. والمجد والذكر الحسن عند الناس، وينهمك في هذه الحياة.. فيتصارع مع اخوته على معان زائفة فيها.. لماذا ؟ لانه يفتقد

في هذه اللحظات احاسيس المؤمنين، ومشاعرهم ولا يملك فعلاً وعياً كونياً عاماً يهديه الطريق ويحدد له القيم الكبيرة لمعاني الايمان، والقيم الصغيرة لتوافه الحياة الدنيا، ومعانيها المبتذلة.

ان مشكلة الانسان المسلم، وكل انسان أن يفهم اكثر بكثير مما يعي، ويعيش في مداركه، ومشاعره، ويعي اكثر مما يطبق، وينسجم نفسياً مع ما يعيه، ويشعر به.

ان هذا الوعي بعرضية الحياة الدنيا، ومرحليتها لا يعطي قيمته في مقام العمل الاعتيادي.. وانما ايضاً في مجال المواجهة، والتصدي لاضطهاد الجاهلية وسخرية الناس واستهزائهم، ومن هنا أكد عليه القرآن الكريم في عملية إعداد الرسول صلى الله عليه وآله في موارد متعددة.

{ ١١٩ }

(واصبر على ما يقولون، واهجرهم هجراً جميلاً. وذرني والمكذبين اولي النعمة، ومهلهم قليلاً. ان لدينا انكالاً، وجحيماً، وطعاماً ذا غصة، وعذاباً اليماً)(٣٠)

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد)(٣١)

(فاصبر صبراً جميلاً.. انهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً. يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميماً)(٣٢)

ان تنمية الوعي الكوني، وتوسيع افق المؤمن، واطار تفكيره من اهم ما يعتني به القرآن الكريم.. وذلك ان شخصية الانسان تنمو بمقدار توسع آفاقه، ونمو وعيه الكوني الكلي الشامل، فانت اذ تتحسس الحياة بشمولها وتعي هذه الحياة مرحلة عابرة. وتعيش هذا الوعي فسوف ترى كم يكون الطغيان تافهاً، وكم يكون الطغاة صغاراً في الحساب التأريخي، وحساب الحياة في شمولها وسعتها.. وحساب الكون، وخالق الكون.. وسوف تبصر بعينيك القيمة الصغيرة لكل جاهلية، وللجاهلية كلها في حساب الحياة.

٣ – الاحساس بالحياة الدنيا على انها دار فتنة واختبار، على انها مرحلة لاختبار الفعالية البشرية، واخلاقية هذا الانسان في مقام عبوديته،

{ ١٢٠ }

وتعامله مع الله، ودوره في هذه الحياة.

(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملاً، وهو العزيز الغفور)(٣٣)

(وان اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب، ولا عمل)

«ذكر الموت والاحساس بالآخرة»

ولا تنفصل عملية الاحساس بمرحلية الحياة الدنيا وعرضيتها عن الاحاسس بالموت، واليوم الآخر.. ويمكن ان نعد كل هذه الاحاسيس احساساً واحداً.. بنظرة الى الحياة نظرة شاملة وبعيشها بشمولها هذا الذي يستوعب الحياة الدنيا، ومرحلة الانتقال، والمرحلة الاخيرة الابدية.

وقد حفل نهج البلاغة بالوعظ، والتذكير بحقيقة الدنيا والموت، والآخرة، لان عصر الامام (ع) كان يعيش طغيان الروح الدنيوية والركون الى الحياة الدنيا، وكانت المهمات التي اناطها (ع) بالامة آنذاك مع ظروفها النفسية، وحديته في تطبيق الاسلام بصورته الاصيلة تستدعي الكثير من الوعظ والتذكير.. هذا كله مضافاً الى انه (ع) كان بصدد بناء

{ ١٢١ }

الشخصية الاسلامية الذاكرة والمذكرة في الخضم المتلاطم من المسلمين الذين لم يحسن تربيتهم احد :

كان (ع) يقول : -

(واوصيكم بذكر الموت، واقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم ؟ وطمعكم فيمن ليس يمهلكم، فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم حملوا الى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فسابقوا - رحمكم الله - الى منازلكم التي امرتم ان تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم اليها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته فإن غداً من اليوم قريب ما اسرع الساعات في اليوم، وما أسرع الأيام في الشهر، وما أسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر)(٣٤)

(واحذركم الدنيا فانها منزل قلعة، وليست بدار نجعة قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها دار هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفها الله تعالى لاوليائه، ولم يضن بها على اعدائه،

{ ١٢٢ }

خيرها زهيد، وشرها عتيد.. واسمعوا دعوة الموت وآذانكم قبل ان يدعى بكم إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم، وان ضحكوا، ويشتد حزنهم، وان فرحوا ويكثر مقتهم انفسهم وان اغتبطوا بما رزقوا قد غاب عن قلوبهم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا املك بكم من الآخرة، والعاجلة اذهب بكم من الآجلة)(٣٥)

وفي كلام طويل عن وصف المتقين، يقول (ع) :

(اما الليل فصافون اقدامهم، تالين لاجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً.. فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً، وظنوا انها نصب اعينهم، واذا مروا بآية فيها تخويف اصغوا اليها مسامع قلوبهم، وظنوا ان زفير جهنم، وشهيقها في اصول آذانهم)(٣٦)

«الوعي الكوني»

الى الآن تحدثنا عن الوعي الكوني في شخصية الانسان المسلم، ويتمثل في الاساس بوجود الله تعالى، وارتباط الاحداث، والاشياء به وتذكره، ومعايشته الشعورية، وفي الادراك - بوعي - لمرحلية هذه الحياة،

والاحساس بالموت. **(انك ميت وانهم ميتون)** وبالحياة الاخرى.

ونستدرك هنا ونضيف الاحساس بحكمة الحياة والتقدير الشامل في الوجود، والاحساس بهذين الامرين (التقدير، الحكمة) دور حياتي مهم قد تأتي الاشارة اليه فيما بعد عند الحديث عن الرضا بالقضاء، والقدر.

وقد قلنا سابقاً، ان كل انسان مسلم يؤمن بهذه الامور، ويفهمها، ومهمة الاعداد الروحي الذي يهدف الى بناء الشخصية الاسلامية التي لا يكفي فيها ان تفهم وتؤمن بهذه الاشياء وانما هو (تحسيس) المسلم بهذه الاشياء وتوعيته الوجودية.. التي يوسع من خلالها افقه، ويرتبط بالله تعالى، وينمي من شخصيته باتجاه النصح، وامتلاك النفس امام صغائر الامور، وتفاهات الحياة الدنيا، وخلق حالة الطمأنينة النفسية، والاستقرار الانفعالي، وغير ذلك من الامور، والمعاني النفسية : التي لا يمكن بناؤها، وتربيتها الا من خلال التوعية الوجودية، والتحسيس بالحقائق الوجودية الكبرى التي تدرك الشخصية الاسلامية من خلال ادراكها والتحسس بهذه الاشياء في اطار شامل، ونظرة كلية وتعيها في سياقها الوجودي، وارتباطاته الكونية الثابتة.

و(التوعية) الوجودية في المنطق التربوي الاسلامي هي منطلق التغيير ومبتدأه الاساسي، الذي يقوم عليه التغير الاسلامي، والتربية الاسلامية. والتربية التي تنطلق من التوعية على الله، وتقديره، وحكمته والتحسيس بالحياة نعمها، وفتنها، والمسؤولية فيها، وبالآخرة نعيمها، وعذابها وغير ذلك من عناصر الوعي الكوني الاسلامي، هي التربية السليمة الأمينة

التي لا يخشى من نتائجها وآثارها لا من الناحية الدينية، ولا من الناحية النفسية، ولا من الناحية الجهادية.

ونشير اخيراً الى ان التربيات المعاصرة الممثلة للحضارة الغربية، وقيمها يتوزعهما اتجاهان كل منهما يتناقض مع التربية الاسلامية ذلك ان احدهما يقوم على اساس اهمال التوعية الوجودية، أو التحسيس الكوني الشامل مدعوماً باتجاه فلسفي، وضعي، يميل الى التعرف على المعاني الكلية الشاملة، ويقصر دور الانسان المعرفي والادراك البشري في حدود الجزئي والواقع ان هذا الاتجاه الفلسفي (اتجاه الوضعية والوضعية المنطقية) اتجاه مرفوض من الزاوية المنطقية وفهماً اجتماعياً باعتباره اتجاهاً فكرياً، يقصد من ورائه تثبيت الواقع الغربي الراهن، وتجميد قوة الرفض، والثورة التي لا يمكن ان تقوم الا على اساس فكرة شاملة تخرج عن الاطار الضيق للجزئيات، والوقائع الحياتية الحاضرة بحيث تحدد الممكن والضروري.. والسليم من وجهة نظر السياق العام للتاريخ، والطبيعة، والمنطق الاخلاقي، وهي معاني مستحيلة من وجهة النظر الوضعية.

والاتجاه الآخر يقوم على اساس التوعية الالحادية.. في :

١ – انكار وجود الاله الحكيم.

٢ – وقصر حياة الكائن الانساني في حدود هذه التجربة الضيقة من الحياة.. وهي توعية لا تفرق – من حيث الآثار السلبية – عن التوعية الاولى القائمة على اساس تحديد الافق البشري داخل الاطار الحسي، والجزئي، إن لم تزد عليها في السلبيات.

{ ١٢٥ }

ونحن هنا لا نريد ان ندرس الاتجاهات التربوية المعاصرة، بل ولا حتى الاتجاه التربوي الاسلامي من الزاوية العلمية.. لان اسلوب هذا البحث وهدفه ينحصران داخل الاطار العملي ولا يتصلان بحال بالابحاث العلمية والجوانب النظرية.. وانما يهم هنا ان نشير الى طابع (التجاوز) تجاوز الاطر الحسية، والجزئية، الذي يتمثل بالتوعية الاسلامية الوجودية حيث يستعلي الانسان المسلم على هذه الاطر، ويتعامل مع الكائن الوجودي المحض الذي يميزه عن عرض المادة، وهيمنة الحس البشري. وهو يحقق بذلك مرحلة جديدة للانسان تترك وراءه كل المراحل ضيقة الافق، محدودة الشعور.. وفي طابع (التجاوز) على الاطر الحسية، و(الشمول)، وادراك الاشياء في سياق كلي، ونظرة شاملة و(المعنى) الذي يضيفهُ الاسلام على الحياة، والترابطات التي تحكم الاحياء، والاشياء، تلخص سمات الوعي الاسلامي للكون والحياة، وهي سمات ذات اثر خطير على الحياة النفسية للانسان المسلم. وقد يمكن تلخيصه في الانفتاح على الحياة، وفي عدم تصنيمها وعبادة ما فيها من اشياء، وفي الاستقرار النفسي، وروح الالتزام الاخلاقي التي يبعثها التعامل الشعوري مع الله ذي الاسماء الحسنى وكل سمات الخير، والجمال.

«الوعي التاريخي»

والى جانب التحسيس الوجودي، والتوعية الكونية، يقوم القرآن الكريم، والسنة المطهرة بعملية توعية تاريخية تحسس الانسان المسلم بمجموعة من القضايا التاريخية التي تتصل بالنشاط الانساني التاريخي، والصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال في التاريخ البشري.

{ ١٢٦ }

ونستعرض هذه القضايا بشيء من الشرح، والتفصيل فيما يلي من نقاط :

أ – الشعور بحركة الاحداث :

قد يمر الانسان بمرحلة تاريخية تنغلق فيها ابواب العمل وتتجمد فيها حركة الدعوة، يغلب فيها الباطل في جولة خاطفة مع الحق، ويجد الجاهلية في حالة من القوة والسيادة والتمكن في الارض، ويجد اهل الجاهلية يتقلبون في الارض ويعثون فيها الفساد بلا رادع ولا معارض، والمؤمنون الى جانب هذا مستضعفون محاربون من كل حدب وصوب ومضيق عليهم في كل جوانب حياتهم الايمانية.

قد يمر الانسان المؤمن بهذه المرحلة، ويجمد عقلياً بهذه الفترة القصيرة من عمر الزمن، وعمر الحياة.. ويفكر بهذا الوضع على انه امر واقع، لا مفر منه، ولا دافع له ويخلده ويصنمه. وهو في هذه اللحظة يجمد التاريخ ويثبت ظواهره الفانية الزائلة.

والقرآن الكريم يعالج هذه الحالة فيما يعالجها عن طريق التحسيس بحركة التاريخ، وحركة الاحداث، والظواهر التاريخية.. وعن طريق توسيع افق الانسان المسلم وتكوين العقلية التاريخية لديه، وتعليمه على ان يفكر في هذه اللحظات، بما هو جزء من مسلسل الحدث التاريخي المتغير باستمرار، والمتحرك على الدوام. ومن اجل هذا الهدف التربوي الكبير نفسر مجيء الكثير من القصص التاريخية في القرآن الكريم.

{ ١٢٧ }

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد)(٣٧)

(وان يكذبوك، فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوام ابراهيم، وقوم لوط، واصحاب مدين، وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير، فكأين من قرية اهلكناها، وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد، أفلم يسيروا في الارض ؟ فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فانها لا تعمى الابصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(٣٨)

(وكأين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير)(٣٩)

(وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع الى إله موسى، واني لاظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق، وظنوا أنهم

{ ١٢٨ }

الينا لا يرجعون فاخذناه، وجنوده، فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين)(٤٠)

(ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة. اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين.. قال : انما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن اللّه قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه، وأكثر جمعاً ؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)(٤١)

هذا وتحفل النصوص الواردة عن اهل البيت (ع) في تركيز تربوي، يعمق للاحساس بحركة الاحداث وهي الآيات القرآنية تهدف الى ذلك بالنسبة الى جهتين : جهة اصحاب السلطان، والغنى، واهل النعمة، والثراء.

والجهة الاخرى، هي الجهة المؤمنة المجاهدة التي تتعرض لالوان الاضطهاد، والتكذيب.

تقول النصوص لاصحاب السلطان، والغنى، واهل النعمة واليسار ان لا تطغوا.. واعتبروا بمن كان قبلكم قبل ان يعتبر بكم من يأتي بعدكم، واعلموا ان الدنيا في حركة مستمرة تطحن كل المستغلين المتكبرين في

{ ١٢٩ }

الارض والراكضين وراء المراكز والمكانات.. والظالمين للناس.

وتقول للمؤمنين لا تنظروا الى اوضاع الجاهلية كأمر واقع لا مرد له ولا دافع.. وسّعوا من افقكم التاريخي.. وانظروا الاشياء، والاوضاع في حركة مستمرة، والى حياة الطغاة كمتاع قليل.. لا تيأسوا ولا تقنطوا فان الفراعنة الى انتهاء وان اوضاع الكفر الى زوال.

ان ضيق الافق التاريخي، وتصنيم المرحلة العابرة، والنظر الى اوضاع الانحراف، كأمر واقع مستقر ينتهي الى نتائج سلبية عديدة.

ينتهي اولاً : الى حالة الضيق، وفقدان الامل.. واليأس مما يضعف، أو يعدم الاندفاع الرسالي، والحركة، والفعالية المؤمنة.

وينتهي ثانياً : الى التنازلات العملية من اجل الانصهار في التيار، والتواجد في المجتمع الذي لا يؤمل في تغييره، والقاعدة في هذا المجال تقول : ان الانسان الذي يفقد الامل في عملية التغيير الاجتماعي، يبدأ في تغيير ذاته ومواقفه من اجل الانصهار في المجتمع، والذوبان فيه.

وينتهي ثالثاً : الى التنازل الفكري، أو مراجعة الذات والتشكيك في الموقف المبدئي الذي يعتنقه الانسان الذي يصنم المرحلة.

هذا الى غير ذلك من الآثار والنتائج المترتبة – بحكم قوانين نفسية – على النظرة المصنِّمة للمرحلة.

ومن هنا نعرف قيمة التدخل الرباني، والتوجيه القرآني الكريم

{ ١٣٠ }

للرسول صلى الله عليه وآله عندما تجمدت دعوته في مكة وتجمد عمله – بعد وفاة ابي طالب – اذ من الممكن في هذه الحالة ان يصاب الصف المؤمن بهذه المعاني السلبية من جراء هيمنة الجاهلية، وحيلولتها دون تقدم العمل الاسلامي آنذاك.

فنزل – فيما يقال – قوله تعالى :

(فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل)

(والمرية هي الاثر الفكري السلبي لعملية التصنيم).

(فاستقم كما امرت، ومن تاب معك، ولا تطغوا انه بما تعملون بصير، ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار)(٤٢)

(والركون الى الذين ظلموا هو الاثر العملي السلبي الذي يحذر منه الله تبارك وتعالى رسوله ومن تاب معه).

ب – الشعور بوحدة المسيرة :

ان وراء التعدد الهائل والكثرة الهائلة للانبياء والمرسلين والائمة، والصالحين، ووراء هذا التعدد في رسالتهم وشرائعهم، ووراء التعدد في اساليبهم، ومراحلهم.. وراء كل ذلك وحدة.. وحدة.. في النموذج الرسالي، وشخصية الدعاة (الرسل، الانبياء، الائمة)، ووحدة الرسالة

{ ١٣١ }

التي يحملونها رغم الاختلاف، الذي يبدو في بعض التشريعات ووحدة في الدعوة، والعمل، وترابط في المراحل والمهمات.

اما كيف يكون هذا الترابط ؟ وكيف تكون الوحدة فهذا موضوع آخر للبحث، والتفكير.. غير ان المهم هنا الاشارة الى ضرورة التحسيس بهذا المعنى.. وضرورة استشعاره للمؤمن،. فان هذا الشعور ينتهي من الناحية النفسية الى ارقى المعاني التي تكون زاد المؤمنين العاملين، ووقودهم في الجهاد، التوحد مع الانبياء والصالحين، ومحاولة الانصهار في نهجهم الرباني، وعبادتهم، وعبوديتهم لله تعالى والاعتزاز بالنسب التاريخي العريق.. والثقة بالنفس والتعزي عند البلاء والمواجهة بمواجهات الموكب الكريم والرهط الكريم والاستفادة من تجاربهم في العمل والجهاد (والمؤمن ذو نسب عريق ضارب في شعاب الزمان انه واحد من ذلك الموكب الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم : نوح، وابراهيم، واسماعيل، واسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام).

(وان هذه امتكم امة واحدة، وانا ربكم فاتقون)

هذا الموكب الكريم الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه – كما يتجلى في ظلال القرآن – مواقف متشابهة، وازمات متشابهة وتجارب متشابهة على تطاول العصور، وكر الدهور، وتغيير المكان، وتعدد الاقوام، يواجه : الضلال، والعمى، والطغيان، والهوى، والاضطهاد، والبغي،

{ ١٣٢ }

والتهديد، والتشريد، ولكنه يمضي في طريق ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، متعلقاً بالرجاء فيه، متوقعاً في كل لحظة وعد الله الصادق والاكيد.

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا أو لتعودن في ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم في الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد)(٤٣)

(موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف وهم يتلقون الاضطهاد، والتهديد، والوعيد).

ولعل في اعتبار القرآن الكريم الايمان بما انزل من قبل الرسول الايمان بالرسل السابقين وصفاً للمتقين.

(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب.. والذين يؤمنون بما انزل اليك، وما انزل من قبلك)(٤٤)

وامره بذلك.

(قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى

{ ١٣٣ }

ابراهيم، واسماعيل، واسحاق، ويعقوب، والاسباط وما أوتي موسى، وعيسى، وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم، ونحن له مسلمون)(٤٥)

لعل في ذلك، وغيره تربية للمؤمنين على هذا الشعور، والاحساس بوحدة المسيرة.

ولعل في قوله تعالى :

(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم، وإن هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا امرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون)(٤٦)

دلالة على تحسيس الله تعالى رسله بوحدة خطهم، ووحدة ملتهم، ودعوتهم، واشعارهم بان خطهم مترابط الحلقات، مترابط المراحل.. حتى جاء اتباع الرسل فقطعوا امرهم، وحولوا الوحدة الى تعدد في الخطوط والاتجاهات، وصنمت كل طبقة منهم المرحلة التي فيها حتى اصبحوا احزاباً، وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحون. فمن الواضح اننا عندما نقول : بان خط الرسل واحد ومسيرتهم واحدة، فلا يعني هذا انه لا يوجد تنوع ضمن هذه الوحدة.

اذ من الواضح ان الله سبحانه قد جعل لكل شرعة ومنهاجاً، ومن هنا

{ ١٣٤ }

تنوعاً في تفصيلات الرسالة، ومراحل العمل غير ان هذا التنوع يخدم الوحدة.. والهدف الواحد للمسيرة كلها.. والانسان الذي يتلقى من الله سبحانه هذه الرسالة الواحدة يعمل على توزيعها الى اتجاهات متناحرة مستغلاً الفوارق المرحلية في خطوط العمل لهذه الرسالة الواحدة.

ج – الاحساس بحتمية الانتصار النهائي :

والى جانب الشعورين الاولين : الشعور بحركة الاحداث، والشعور بوحدة المسيرة المؤمنة، يوجد لدى المؤمن شعور تاريخي ثالث هو، الشعور بحتمية الانتصار.. انتصار قضية الرسالة الربانية وان كل هذا الصراع، وكل هذه المعاناة والجولات بين الحق والباطل، انما هي تمهيدات ضرورية للتغير الاجتماعي الاسلامي العالمي بالصيغة التي يريدها الله تعالى، وان كل يوم يمر هو اسراع زمني بالنصر، وتقدم نحو اليوم الموعود.

أرأيت وعد الله :

(وعد اللّه الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون)(٤٧)

{ ١٣٥ }

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، ان الارض يرثها عبادي الصالحون)(٤٨)

فمهما طال النصر على اجيال الرسالة، وضاقت الارض بهم فان النتيجة الحاسمة.. في المنطق الرباني الذي لا يكذب ولا يخطأ.. هي للذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وللايمان والعمل الصالح.. ذلك ان الله سبحانه قد خلق هذا الانسان، وكل ما سخر له، وانزل كل الكتب، وارسل كل الانبياء الذين نعرفهم، والذين لا نعرفهم من اجل هذه الغاية.

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)

وما تجارب الصراع.. بين الهدى، والضلال الا من اجل الوصول الى هذه الغاية.

وقد تسأل هنا : اذن لماذا هذه المدة الطويلة والزمن المديد، ولم تتحقق النبوءة الاسلامية، ولم يتحقق النصر الكامل للايمان على وجه الارض ؟

ان الله سبحانه-- خلق هذا الكون للفتنة والاختبار، لفتنة الانسان واختبار فعاليته الذاتية، ووجدانه الاخلاقي ولم يشأ سبحانه ان يفرض عليه قضية الايمان – لو شاء ذلك لهدى الناس جميعاً لان في فرض هذه القضية نقضاً للغرض الكوني الاصيل وهو (ان يحقق الانسان انسانيته واخلاقيته باختياره ومن خلال الهدي الالهي والهدي الالهي فقط) فيقتصر دور الله سبحانه في عملية التغيير الشامل على الهداية العامة.. والهدي النازل على الانبياء، وبعض التدخلات الاخرى.. اما الفعل التغييري،

فللانسان ومن الواضح أن التغيير الاسلامي الشامل اذ يوكل الى الانسان ويعتبر مسؤوليته له سيكون عملية بطيئة طويلة الامد تحتاج الى قرون عديدة، وتأريخ مديد..

وحتمية انتصار الحق، واختتام المسيرة بالنصر الشامل ليست حتمية جبر والجاء، كالحتميات المادية المزعومة، وحتمية الجبر الديني المزعوم، وانما هي حتمية وقوع.. في علم الله تعالى ان سيختار للبشر الهداية، والاسلام.. وعلم الله لا يخطئ ولا يزل، وعلم الله تعالى لا يقلب الواقع وانما يعكسه ويكشفه ويحكيه وما دام سبحانه قد علم بان الانسان سيقوم بعملية التغيير الشامل باختياره – من خلال تدخل الهي لا يصل الى حد الجبر والالجاء، فسوف تقع علمية التغيير الاسلامي الشامل باختيار هذا الانسان وارادته من دون جبر، ولا الجاء.

لقد فشلت كل الحتميات المزعومة في الجمع بين (انسانية) التاريخ، وحتمية الحل المقترح لمشاكل الانسان.. وبقيت فقط الحتمية الالهية قائمة من دون جبر ولا الجاء (ولتفصيل البحث في ذلك مجال آخر).

وفي القرآن.. شكلان من الوعد بالنصر.

١ – الوعد المشروط، وهو ما كان من قبيل:

(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)(٤٩)

وهو وعد يعبر عن قانون اجتماعي يتدخل بموجبه الله تعالى الى جانب الفئة المؤمنة في صراعها مع الباطل، اذا احسنت اختيار خطتها وصدقتها في عزمها، ونيتها.

٢ – الوعد المطلق.. وهو الوعد الالهي الذي ينص على ان التغيير الاسلامي الواقع باختيار الانسان واقع لا محالة في مستقبل التاريخ.

(وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض)(٥٠)

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، ان الارض يرثها عبادي الصالحون)(٥١)

وكل من الوعدين يجب معايشتهما، والاحساس بهما من اجل المزيد من الدفع، والامل، ومزيد من الانفتاح، والتفاعل مع الحياة الاسلامية، والعمل في سبيل اللّه.

د – الشعور بالائتمام :

لقد ادخر الله سبحانه لعملية التغيير الشامل القائم على اساس الاسلام القائد المعصوم الامام الثاني عشر من أهل البيت (ع) وكان من فضله تعالى ان ابقى الامام حياً مدخراً الى اليوم الموعود، حياً يعيش بيننا، ويتعرف على أخبارنا، ويستطلع تجاربنا، فشلنا، ونجاحنا، ونحن نخوض ونواجه عملية التمحيص والاختبار، من اجل ان يستمر الشعور بوجود القدوة في وعي الناس.. ومن اجل أن يستشعر الانسان المسلم هيمنة الامام، وقيادته

ليزداد دفعاً، وحرصاً واقداماً، وشعوراً بالاتزان والسكينة : بعد ان كانت الاعمال تعرض عليه في شبه تقارير اسبوعية يتعرف بها (ع) على نمو هذا وسقوط ذاك، وتوقف الثالث عند نقطة محدودة لا يحيد عنها.

وانتظار الامام (ع) له قيمة عملية كبيرة، سواء في كونها قوة دفع كبرى، أو في كونها تاكيداً لتعامل الانسان المسلم مع الغيب والايمان به.. ومن هنا الحت النصوص الواردة عنهم (ع) في ذلك واكدت على ثواب الانتظار وكونه من صفات المؤمنين هناك.. كما اكدت على المعنى الايجابي للانتظار نذكر منها :

عن الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال :

قال رسول الله :

(افضل أعمال امتي انتظار فرج الله تعالى)

وعن السجاد (ع) قال :

(تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من اوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله ، والائمة من بعده، وأن اهل زمان غيبته القائلون بامامته المنتظرون لظهوره افضل اهل كل زمان لان الله تعالى ذكره اعطاهم من العقول، والافهام والمعرفة، ما صارت به

الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف اولئك المخلصون حقاً، وشيعتنا صدقاً، والدعاة الى دين الله سراً، وجهراً)

وقال (ع) :

(انتظار الفرج من اعظم الفرج)

(من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا اعطاه الله اجر الف شهيد، مثل شهداء بدر، واحد)(٥٢)

وفي سبيل تربية الشعور بوجود الامام، والاحساس بذلك وتربية الشعور بهيمنته، وقيادته، وخلق روح الانتظار له والتطلع ليومه المبارك توجد مجموعة من الادعية، والزيارات والشعائر ينبغي للمسلم ممارستها لذلك وقد ورد الكثير منها عن اهل البيت (ع).

ويتصل بمسألة الشعور بالائتمام والاحساس بوجود الامام مسألة التواصل الشعوري مع الانبياء، والائمة (ع)، ونصبهم شعورياً رموزاً، ونماذج للاقتداء، والاحتذاء، والتأسي بهم في المجالات كافة، وهذا معنى اكد عليه القرآن الكريم في عملية توجيه الرسول صلى الله عليه وآله واعداده. ومن هنا وردت الكثير من الآيات لحثه صلى الله عليه وآله على الصبر كما صبر اولو العزم، وعلى

ذكرهم، وتمثلهم الذهني.

من اجل الاقتداء بهم عملياً من قبيل قوله تعالى :

(اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه اواب)(٥٣)

(واذكر عبدنا ايوب، اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب)(٥٤)

(واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الايدي والابصار انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار، واذكر اسماعيل، واليسع، وذا الكفل، وكل من الاخيار. هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب)(٥٥)

«الوعي الذاتي»

وللانسان المسلم رؤى فكرية تتصل بالذات كماله ذلك في مجال الوجود والحياة، والتاريخ..

ووعي الذات والتحسس بالمعاني المرتبطة بها.. هو الطريق الطبيعي أو الخطوة الطبيعية والتي يجب ان تضاف الى خطوة الوعي الرسالي.. و.. في سبيل التنمية، والبناء.

وللوعي الذاتي.. اشكال، وعناصر :

١ – الاحساس الاخلاقي، والشعور بالمسؤولية. وكما يختلف الانسان المؤمن عن الانسان الجاهلي في طريقة الشعور بالحياة، وقيمتها ومعناها، كذلك يختلف عنه في الاحساس الاخلاقي، ونحن نعرف: ان للعقل البشري مدركاته العملية التي بها ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، الا ان الانساني

الجاهلي – بسبب اتجاهه الى الدنيا من الناحية العملية – يجمد هذا الشعور الانساني الرائع فلا يعيش أي مسؤولية اخلاقية في الحياة، اما الانسان المؤمن، فان طريقته في التعامل مع الكون، ومع الله تعالى، ومع الذات تنشط عنده كافة المشاعر الاخلاقية، والاحساس الاخلاقي بالالزام والمسؤولية. والمقاييس الثابتة للسلوك التي تفوق معاني اللذة والشهوة.

ان افتقاد الشعور بالمسؤولية، والالزام، والقيمة الاخلاقية للافعال من اوضح معالم الشعور الجاهلي، شعور الانسان الضائع الذي ينغمس في لذته ما امكنه الانغماس، والتردي والقلق الذي جعله يتذبذب بين العوالم المشتتة للنفس، والسلوك.

(والذين كفروا يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الانعام)

بينما يعليه الانسان المؤمن (فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها او المرسلة شغلها تقممها، تكترش من اعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو اترك سدى، واهمل عابثاً).(٥٦)

والانسان المؤمن لا يحس احساساً اخلاقياً بالحياة وينمي مدركاته العملية من خلال تنميته للاحساس بالعبودية لله تعالى فقط، وانّما يشعر

بالمسؤولية امام ظواهر معينة في الحياة، وباهداف معينة محددة.

فالانسان المؤمن يشعر بالمسؤولية تجاه ذاته.. ومن اجل تغييرها، وتوجيهها نحو الله تعالى، مسؤولية التوبة والعودة الى الله والاستغفار من الذنوب، والاقلاع عن السيئات مسؤولية تنمية العلاقات مع الله تعالى، ومسؤولية التنمية الثقافية، وتلافي نقاط الضعف الروحي والنفسي، والعملي، التي لا ينفك عنها انسان وكذلك يشعر بالمسؤولية تجاه الناس والانحراف الذي يعيشون فيه ويشعر بانه راع، ومسؤول عن رعيته و(ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض. ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الانبياء، ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب وترد المظالم، وتعمر الارض، وينتصف من الاعداء، ويستقيم الامر).(٥٧)

وقد تدرس نصوص الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتشكل انطباعاً بان الاسلام يعتبر كل فرد مسلم مسؤولاً عن تصرفات الآخرين الا بعذر.. هو مسؤول عن (دفع) الفساد كما هو مسؤول عن (رفعه) وان الانسان الذي يسكت عن المنكرات، والمحارم مشارك فيها.. معاقب عليها.

ان الشعور بالمسؤولية تجاه الانحراف الاجتماعي هو بداية افتراق الانسان المسلم العامل عن غيره من المسلمين ومن المؤكد عندئذ ان الشعور بالمسؤولية ليس (فضلاً) للانسان العامل على غيره من الناس عند الله تعالى وقد يكون الانسان الذي لا يحس بمسؤولية تجاه الناس نتيجة لعدم احساسه بالانحراف، أو نتيجة لاتجاهه الى اعمال اسلامية اخرى، أو نتيجة لايمانه

بمعذوريته من الناحية الشرعية قد يكون هذا الانسان افضل مكاناً عند الله تعالى.. ان منازل الناس عند الله تعالى لا يحددها الوعي والشعور بالمسؤولية وانّما تحددها درجة (الانقياد) الى الله تعالى، والقرب منه، والعبودية له. وان هذا لا يعني بالطبع الغض من قيمة الشعور بالمسؤولية، والاحساس بالانحراف امران ضروريان.. ويجب التوصل اليهما بمختلف الوسائل، والاساليب لانهما بداية انطلاق العمل الجهادي في سبيل الله، ودفع المنكرات التي تسخط الله.. وغاية ما نريد ان القيمة الدينية والاخلاقية ليست للشعور بالمسؤولية، والاحساس بالانحراف.. وانما للانقياد الى الله، وتنفيذ المسؤوليات المستشعرة وانت تستطيع أن تقول ان الانسان المؤمن الذي يعي انحراف الناس، ويشعر بمسؤوليته عن تغيير معالم الانحراف (انفع) للاسلام عملياً، واكثر عطاء وفائدة للمسلمين، ولكنك لا تستطيع ان تقول بأي حال من الاحوال انه اقرب الى الله من هذا الانسان المتعبد الذي لم تتح له الظروف ان يعي مسؤوليته الشرعية، فقد يكون هذا الانسان لجهله معذوراً امام الله، بينه وبين الله سر نجهله أو ولاية لا نعرفها.. وقد اخفى الله سبحانه – كما في الرواية – اولياءه في عباده..

الاعتزاز باللّه

٢ – الشعور بالعزة والاستعلاء : قال الله تعالى :

(ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وانتم الاعلون. ان كنتم مؤمنين)(٥٨)

(ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين)(٥٩)

والمقصود بالاعتزاز الذي يشكل شعوراً لامعاً من المشاعر المؤمنة، هو

الاعتزاز بالايمان، والانتساب الى الاسلام، والعمل في سبيل الله.

فليس يرضى الله للمؤمن بالانكسار، والشعور بالخيبة حتى في احرج اللحظات التي يطغى فيها الكفر، ويقتل فيها المؤمنون، وتضيق الارض الواسعة بهم حتى في هذه اللحظات الحرجة، والاوقات العصيبة لا يشعر المؤمن بالضعف، والانكسار، والوهن، والضعة.. وكيف يشعر بالضعة والوهن، والذل، والانكسار من الى صفه الجبار العزيز المهيمن، والقادر المتعال ؟

فالمؤمن – كما في الرواية – عزيز في دينه وقد فوض الله اموره اليه، ولكنه لم يفوض اليه ان يذل نفسه.

ان لحظة استشعار الذل، أو الانكسار هي لحظة كافرة ولا يكون المؤمن في حالة هذا الشعور لانه شعور قائم اما على أساس نسيان الله، والانتساب الى السماء أو على اساس الاستهانة بالعلاقة مع الله تعالى – والعياذ بالله –.

وليس الشعور بالاعتزاز، والقوة في نفس المؤمن ناشئاً عن الشعور بالمكانة الاجتماعية، أو القدرات العلمية، أو غير ذلك من معاني الدنيا، وانما ينشأ هذا الشعور من الاحساس بالصلة بالله

تعالى، والاحساس بعزته، وعظمته، وعزة المؤمنين به، والكادحين اليه. فهو في حقيقته اعتزاز بالمعنى الايماني الذي يشعره في نفسه، واحساس بقيمة الصلة بالله.

وكما يريد الله تعالى من المؤمن ان يكون عزيزاً في نفسه عزيزاً في مشاعره، كذلك يريد منه ان يكون عزيزاً في مواقفه عملاقاً شامخاً مستعلياً على الطغاة، واتباع الطواغيت حتى في أحرج اللحظات، عندما يقسو الزمن

{ ١٤٥ }

وتخون دنيا الناس ويتحكم في مصائر الامة شياطينها وطغاتها.

عن أبي عبد الله (ع) :

(ان اللّه فوض الى المؤمن اموره كلها ولم يفوض اليه ان يكون ذليلاً، اما تسمع ان الله عز وجل يقول :

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ثم قال : ان المؤمن اعز من الجبل، ان الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء)(٦٠)

(فالمؤمن ينبغي ان يكون عزيزاً، ولا يكون ذليلاً يعزه الله بالايمان والاسلام)

(ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين)

ان استرحام الكافر، واستعطافه، والتذلل للطغاة بداية التنازل والانحراف، فعلى المؤمن ان يكون صلباً حازماً لا يستجدي العطف، وان كان يستعمل المرونة، والمداراة ولا يطلب الرحمة من الجبابرة وان كان يدخل معهم في فنون التعامل الحكيم، والمناقشات المبدئية.

الشعور الجماعي والشعور بالاخاء

٣ – والشعور الجماعي هو ان يعيش المؤمن ذاته كعضو في جماعة.. وكفرد في امة مؤمنة من الناس.. وهذا الشعور اذا لاحظناه بالنسبة الى الامتداد الزماني سميناه – كما سميناه – بالشعور بوحدة المسيرة... واذا

{ ١٤٦ }

لاحظنا بالنسبة الى الامتداد المكاني، والمؤمنين المعاصرين سميناه بالشعور الجماعي.. وفي الشعور الجماعي.. كما يشعر المؤمن بذاته كفرد له خصوصياته الفردية أي يشعر بأناه الخاصة، كذلك يشعر بأناه الاسلامية العامة.. أناه كمؤمن، أو بكلمة اخرى يشعر بانه، جزء من جبهة الايمان وتكتل المؤمنين لله تعالى.. يشعر بذات عامة تجمع المؤمنين جميعاً.. وبالخصوص المؤمنين الذين يسيرون في طريق العمل، والجهاد في سبيل الله تعالى وليس في هذا التخصيص مانع أو حزازة، وقد سجله القرآن الكريم.

(ان الذين آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله، والذين آووا، ونصروا، اولئك بعضهم اولياء بعض والذين آمنوا، ولم يهاجروا، ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا)(٦١)

والشعور بالاخاء قريب من الشعور الجماعي.. والشعور الجماعي هو الشعور بالتكامل الايماني كجسد واحد فيه اعضاء واجزاء والشعور بالاخاء، هو الشعور بوحدة النسب نسب الايمان، والعقيدة.. نسب السماء لا نسب الارض ومعاني الارض من العنصرية، والاقليمية وغيرها.
وينتهي هذان الشعوران الى ما نسميه اليوم ب(المشاركة الوجدانية) أي شعور المؤمن بما يشعر به اخوانه من آلام، وافراح، وعواطف.
يألم اذا تألموا، ويفرح اذا فرحوا.

{ ١٤٧ }

عن أبي عبد الله (ع)
(انما المؤمنون اخوة بنو اب وام واذا ضرب على رجل منهم عرق سهر لها الآخرون)(٦٢)
وعنه (ع) :
(المؤمن اخو المؤمن كالجسد الواحد ان اشتكى شيء منه، وجد الم ذلك في سائر جسده، وارواحهما من روح واحدة، وان روح المؤمن لاشد اتصالاً بروح اللّه من اتصال شعاع الشمس بها)(٦٣)

٤ – التواضع :

أ : التواضع للّه.. ويقصد به الاستشعار المستمر لنقاط الضعف الروحي، والنفسي، والتقصير امام اللّه سبحانه وتعالى، وهو بهذا المعنى يتقابل مع الاعجاب بالذات والتكبر امام الله تعالى.. والعياذ باللّه.. والمن عليه بالاسلام، والعمل. وفي الرواية انه سئل الرضا (ع) عن حد التواضع الذي اذا فعله العبد كان متواضعاً ؟ فقال :
(التواضع ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم)
والتواضع – عندئذ – يكتسب قيمته من امرين.

{ ١٤٨ }

(١) : ان التواضع هو الاستشعار الكامل للعبودية لله تعالى ولا يمكن لهذا الكائن الصغير ان يؤدي حق اللّه كاملاً، وكيف يؤدي حق من اداء حقه اليه، يثبت له حقاً جديداً، وشكره يحتاج الى شكر ؟.. وايضاً فان التواضع ادراك لقضية واقعية هي وجود الضعف الاخلاقي، والنفسي والروحي في الانسان واي انسان يخلو من الضعف، والقصور، والتقصير ؟ قد يطغى الانسان ويتصور نفسه خالصاً مخلصاً من العيب والضعف، والذنوب، ولكن لا يوجد انسان في العالم يصدق مع نفسه اذا اعتقد بذلك.
(٢) – ان التواضع خلافاً للعجب بالنفس، والتواضع له قيمة عملية كبرى باعتباره انه لا يجمد وضع الانسان المسلم عند حد معين، ونقطة معينة من النمو، والتطور، بخلاف العجب الذي يتصور فيه الانسان انه وصل الى نقطة الكمال الاخلاقي والروحي، فيعتقد الانسان عندئذ حرارة

المعاناة التي تحرك، وتدفع الى امام.. والانسان الذي يفقد نار المعاناة ما اسهل ما يستحوذ عليه الشيطان. ففي نص عن ابي عبد الله (ع) قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(ان موسى سأل ابليس عن الذنب الذي اذا اذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ قال – أي ابليس – اذا اعجبته نفسه، واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه)(٦٤)

ويظهر من النصوص الواردة عن اهل البيت (ع) ان المؤمن في حالة المعاناة، وحرارة الاندفاع، – والحرقة في التوجه افضل – حتى مع الذنب –

منه وهو في حالة الاستقامة والعجب بذاته..

عن ابي عبد الله (ع) في خبر صحيح:

(ان الرجل ليذنب الذنب، فيندم عليه، ويعمل العمل، فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلئن يكون على حاله تلك، خير له مما دخل فيه)

وعنه :

(ان الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلي المؤمن بذنب ابداً)

وعن احدهما (ع) : (دخل رجلان المسجد احدهما عابد، والآخر فاسق فخرجا من المسجد، والفاسق صدّيق والعابد فاسق. وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته، يدل بها فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب)(٦٥)

وفي نص آخر (ان الله تعالى من حنانه على عبده المؤمن انه يلقي مما عليه في بعض الليالي نعاساً، فتفوته صلاة الليل حتى لا يدل، ويعجب بنفسه، وهو يداوم عليها).

والسبب ان التواضع لله تعالى من اخص خواص الشخصية الاسلامية

كانت لغة الانبياء، والائمة (ع) مع الله تعالى في منتهى الادب، والتذلل، والخضوع لله فيها اعتراف بالتقصير، والذنوب، والحاح في طلب المغفرة والتوبة والقبول، والشعور الدائم بحق الله تعالى عليهم، وبعدم ادائهم لحق الله.

(واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا، انك انت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا، وتب علينا انك انت التواب الرحيم)(٦٦)

وأما موسى فقد

(قال : رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي)

(وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً واناب)(٦٧)

ومن اروع معاني التواضع لله تعالى والادب معه سبحانه ما سجلته الصحيفة السجادية من الوان الاعتراف بالتقصير ونقد الذات والاستغفار واستشعار الضعف والقصور فاقرأ ان شئت من مناجاة الشاكين.

(الهي اليك اشكو نفساً بالسوء أمارة والى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة تسلك بي مسالك

المهالك، وتجعلني عندك اهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الامل ان مسها الخير تمنع، وان مسها الشر تجزع، ميالة الى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو)

ومن مناجاة التائبين.

(الهي البستني الخطايا ثوب مذلتي وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي فاحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي)

واقرأ في الصحيفة تجد الكثير من هذا الادب الرفيع.. حتى لتكاد تشعر بان قلب زين العابدين (ع) يتقطع من خشية الله وشدة التألم من التقصير والمخالفات، ولاننا لا نعيش معنى للادب لله، ونتناسى ان كل امام مهما كان وكل نبي له مخالفات وتقصيرات داخل اطار العصمة، فاننا نحاول ان نصنع المشاكل، ونثير الابحاث الطويلة، ونحاول ان نجمع الاجابات المختلفة عن السؤال القديم : كيف يمكن لزين العابدين وهو الامام المعصوم ان يعترف بالذنوب والتقصيرات والمخالفات امام الله ؟ وننسى ان زين العابدين لو آمن بانه لا تقصير له، ولا مخالفة عنده، لما كان معصوماً بحال من الاحوال.

ب : التواضع للمؤمنين : ومن الوان الوعي الذاتي التواضع للمؤمنين وليس المقصود منه التأدب معهم واحترامهم وحسن الخلق والمداراة وغير

ذلك من التعاملات الخارجية الحسنة فان هذا نتيجة للتواضع لا التواضع نفسه اما التواضع فهو الا تشعر بكونك اعلى منزلة ودرجة من أي مؤمن تلقاه.. أو هو أن تشعر بانك اقل المؤمنين حظاً، واخفضهم منزلة.. وهو شعور ضروري ومهم بالقدر الذي هو طبيعي من الانسان المؤمن، وذلك لان مقياس المسلم في الضعة والرفعة انما هو درجة القرب من الله تعالى ومدى قبوله سبحانه للانسان وقد تعلم انك اكثر من اخيك المؤمن في العلم والثقافة، كما قد تعلم انك اكثر خدمة منه للدين والمسلمين، بل قد تعلم انك تصلي اكثر مما يصلي، وتعبد اكثر مما يعبد ولكنك لا يمكن ان تطمئن الى ان مقامك عند الله تعالى أرفع من مقامه، ومنزلتك اعلى من منزلته. ومن الممكن ان يكون هذا الانسان الذي تحتقره عيناك ممن ترجو شفاعته غداً، لان له سراً مع الله لا تعلمه انت ولا غيرك. ومن هنا يحكي القرآن الكريم عن بعض اهل النار قولهم.

(ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الاشرار اتخذناهم سخرياً، ام زاغت عنهم الابصار)(٦٨)

وعن ابي جعفر الباقر (ع) عن آبائه عن علي (ع) قال :

(ان الله اخفى اربعة في اربعة.. الى ان قال : واخفى وليه في عباده فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله فربما يكون وليه، وانت لا تعلم)(٦٩)

{ ١٥٣ }

والانسان الذي قد يسقط في اعيننا لذنب ارتكبه او خطأ وقع فيه، قد يتوب في مستقبله، ويكون في مراتب القرب من الله تعالى، ونبقى نحن في اوضاعنا الفعلية.

ونتيجة لشعور المؤمن بالتواضع للمؤمنين، واحترامهم الذاتي يتسم سلوكه معهم بالتقدير، والاحترام، والخدمة والانس يصافح الغني، والفقير، والصغير، والكبير، ويسلم مبتدئاً على كل مؤمن، ولو كان عبداً من أهل الصلاة هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة جميل المعاشرة.. كما ورد في صفة الرسول صلى الله عليه وآله .

هوامش الفصل الثاني

(١) – قد يكون معنى البصيرة في مثل قوله تعالى (هذا بصائر وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) و(قل هذه سبيلي ادعو الله على بصيرة انا ومن اتبعني) هو الفكرة التي تشتمل على عنصري.

(١) – الطابع العملي.. او بالاحرى انها فكرة ذات عطاءات عملية.

(٢) – انها فكرة معايشة ومستحضرة فالبصيرة ترادف الوعي، أو الرؤى الفكرية.

(٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٥١

(٣) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢٠

(٤) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢٥

(٥) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢٦

(٦) – اصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٠

(٧) – اصول الكافي ج ٢ ص ٥١

(٨) – اصول الكافي ج ٢ ص ٥٣

(٩) – الحجرات / ١٥

(١٠) – الاحزاب / ٤١

(١١) – آل عمران ١٣٥

(١٢) – البقرة / ١٩٨

(١٣) – الانفال / ٤٥

(١٤) – البقرة / ٤٦

(١٥) – الفرقان / ٧٣

(١٦) – السجدة / ١٥

(١٧) – الاعراف / ٢٠٥

(١٨) – اصول الكافي ج ٢ ص ٨

(١٩) – الرعد / ٢٨

(٢٠) – الفجر / ٢٩

(٢١) – المعارج / ٢٠ – ٢٢

(٢٢) – طه / ١٣

(٢٣) – غافر / ٥٥

(٢٤) – ق / ٣٩ – ٤٠

(٢٥) – التوبة / ٣٨

(٢٦) – يونس / ٢٤

(٢٧) – الرعد / ٣٦

(٢٨) – الكهف / ٤٥ – ٤٦

(٢٩) – العنكبوت / ٤٦

(٣٠) – المزمل ١٠ – ١٣

(٣١) – آل عمران ١٩٦ – ١٩٧

(٣٢) – المعارج ٥ – ١٠

(٣٣) – سورة الملك ٢

(٣٤) – نهج البلاغة نص رقم / ١١٨

(٣٥) – نفس المصدر نص رقم / ١١٥

(٣٦) – نفس المصدر نص رقم / ١٩٣

(٣٧) – آل عمران ١٩٦ – ١٩٧

(٣٨) – الحج / ٤٢ – ٤٦

(٣٩) – الحج / ٤٨

(٤٠) – القصص ٣٨ – ٤٠

(٤١) – القصص ٧٦ – ٧٨

(٤٢) – هود / ١١٣

(٤٣) – ابراهيم ١٣ – ٢٤

(٤٤) – البقرة ٢ – ٤

(٤٥) – البقرة / ١٣٦

(٤٦) – المؤمنون ٥١ – ٥٣

(٤٧) – النور / ٥٥

(٤٨) – الانبياء / ١٠٥

(٤٩) – الروم / ٤٧

(٥٠) – النور / ٥٥

(٥١) – الانبياء / ١٠٥

(٥٢) – حق اليقين – سيد عبد الله شبر ج ١ ص ٢٢٧ – ٢٢٨

(٥٣) – سورة ص / ١٧

(٥٤) – سورة ص / ٤١

(٥٥) – سورة ص / ٤٥ – ٤٩

(٥٦) – نهج البلاغة نص ٤٥

(٥٧) – الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر م ٦ ص ٣٩٥

(٥٨) – آل عمران / ١٣٩

(٥٩) – المنافقون / ٨

(٦٠) – الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

(٦١) – الانفال / ٧٢

(٦٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ١٦٥ – ١٦٦

(٦٣) – نفس المصدر

(٦٤)، (٦٥) – اصول الكافي ج ٢ ص ٣١٣ – ٣١٤

(٦٦) – البقرة / ١٢٧

(٦٧) – سورة ص / ٢٤

(٦٨) – سورة ص / ٦٣

(٦٩) – الوسائل مقدمات العبادات ص ٧٩

الفصل الثالث : الوجدان (العاطفة المبدئية والانفعال الرسالي)

{ ١٥٧ }

في الفصل السابق تناولنا الوعي الديني، والوعي التاريخي والوعي الذاتي.. وهي مجموعات تؤلف جانب البصيرة والرؤية الفكرية للشخصية الاسلامية.. وهذا هو الجانب الاول في الشخصية الاسلامية.. والمرتكز الاساس الذي تقوم عليه، اما الجانب الآخر – والاساس هو الآخر.. فهو الوجدان الاسلامي بالمعنى الواسع الذي يشمل العاطفة كالحب والبغض، والانفعال كالخوف، والرجاء، والغضب، والفرح.

دور الوجدان في الحياة الإنسانية

وللوجدان بالمعنى المذكور دور كبير في حياة الفرد البشري. فليس الانسان مركباً آلياً يتحرك بسبب الاثارات او بالاحرى الحركات الخارجية، كما هو شأن كل جسم مادي لا يملك الحيوية الذاتية، والاندفاع الذاتي، وليس الانسان كذلك كائناً عقلياً صرفاً يعقل، فيتحرك بسبب رؤيته العقلية فقط، ويتصرف بارادة محضة لا يشاركها حب، ولا بغض، ولا غضب، ولا سرور.. ليس الانسان كذلك ولا يمكن ان يكون كذلك، وان اصرت مجموعة من الفلاسفة على ان يكون الانسان ارادة محضة، وعقلاً محضاً، وان ينطلق من افعاله، وتصرفاته من الاحساس بالواجب الاخلاقي والشعور بالالزام فقط.

وبسبب هذا الامر..

وبسبب ان للوجدان – عاطفة وانفعالاً – اثراً كبيراً في الفكر، وفي السلوك اذ يدفع نحو بعض المواقف ويمنع من بعض، ويقرر بعض الافكار، ويحول دون بعضها الآخر، بسبب هذين الامرين (عدم انفكاك الانسان

عن العاطفة، والانفعال، واثرهما الكبير في الفكر، والسلوك) اكد الاسلام في مفاهيمه الاخلاقية ومناهجه التربوية على كل من الميول النفسية (العواطف)، وعلى الاستجابات النفسية الثائرة من غضب، وفرح، ومن خوف، ورجاء.

مبدآن إسلاميان للحياة الوجدانية

وكان التأكيد الاسلامي، والعمل الذي تقوم به التربية الاسلامية، باتجاه الحياة الوجدانية للانسان، مرتكزاً على اساسين او مبدأين :

المبدأ الأول :

تكوين وجدان اسلامي خاص بالانسان المسلم. وقد اعد الاسلام بهذا الصدد قائمة طويلة للمعاني التي يجب ان يبتني عليها الانسان المسلم، وتقوم على اساسه الشخصية الاسلامية والتي تتألف من عناصر عديدة كحب اللّه تعالى، والانس به، والاشتياق اليه والخوف منه، ورجاؤه والرضا بقضائه وقدره، وحب المؤمنين، وحب الرسالة، وبغض الكافرين، والمنحرفين، والشريرين، والسرور بالحسنة والتضايق من المعصية والانفتاح النفسي على الحياة والابتهاج بها الى غير ذلك من المعاني الاسلامية الكثيرة في هذا المجال.. وتوجد الى

جانب ذلك عناصر سلبية في الوجدان المسلم.. كالزهد الذي يعني تفريغ الانسان المسلم لوجدانه من حب الدنيا.. والخوف عليها ورجائها.

لماذا يصر الاسلام على تكوين وجدان خاص بالانسان المسلم، ولا يكتفي منه بالعمل ؟ ان السبب في هذا الاصرار من قبل الاسلام يعود

الى أمرين :

١ – ان هدف الاسلام ليس مجموعة من التصرفات، والمواقف، والحركات يؤديها الانسان المسلم، وانما هو بناء الانسان الصالح بكل ما يعنيه الانسان من الفكر، والروح، والوجدان والسلوك. ان الاسلام يهدف الى ايجاد صيغة جديدة للانسان تختلف عن كل الصيغ المعروفة للانسان في مختلف الحضارات، صيغة كاملة شاملة.. وليست محصورة ضمن نطاق الفعل، والسلوك الاجتماعي وبهذا يختلف الاسلام عن مجموعة من انظمة الارض التي لا تريد سوى ان تؤكد سلطتها وسيطرتها السياسية، والاجتماعية على الناس..

٢ – ينظر الاسلام الى الشخصية الانسانية وحدة متكاملة يؤثر كل جانب منها، وكل جزء في الجانب الآخر، والاجزاء الاخرى، ومن هنا فهو يرى ان من غير الممكن ان نؤمن جانباً من الشخصية الانسانية دون تأمين كافة الجوانب الاخرى، ليس من الممكن للاسلام ان يحكم السلوك الاجتماعي، والسياسي للناس دون ان يغير من مضمونهم العاطفي، والانفعالي، والوجداني، ودون ان يغير من مفاهيمهم الحياتية ورؤاهم الفكرية حول الكون، والحياة كما لا يمكنه ان يؤكد على جوانب الفكر، والوجدان في شخصية الانسان المسلم دون ان يؤكد على جانب السلوك، والنظام الاجتماعي، والسلطة الزمنية.

المبدأ الثاني :

تحكيم العقل والدين على العاطفة والانفعال، فمهما كانت

العواطف، والانفعالات رسالية، وانسانية عامة او منحرفة فهي – محكومة – في شخصية الانسان المسلم – لارادة اللّه تعالى التي يعرفها العقل.

وعلى هذا فالعاطفة والانفعال – ولو كانا مبدأين – يعتبرهما الاسلام (طاقة نفسية) لا بد منها، اما الجهاز الحاكم في الشخصية فليس هو العاطفة، ولا الانفعال وانما العقل، والارادة، اولهما : يوضح الصحيح من الخطأ والحلال من الحرام في ضوء المنطق الشرعي، وثانيهما ينفذ ويقرر عملياً ويرتكز ذلك على ما يلي :

١ – ان ارتباط الغريزة، والعاطفة، والانفعال الذي تقتضيه هذه الدوافع ليس ارتباطاً حتمياً، وانما هو ارتباط اقتضائي. اذ يمكن للانسان ان يحول بين العاطفة والانفعال وبين نتائجهما العملية.

٢ – ان مقتضى العبودية للّه تعالى هو، ان ينسجم الانسان سلوكياً مع ارادته تعالى، سواء كانت مثبتة تشريعياً على شكل الزام، او على شكل ترجيح، او كانت ارادته تعالى هي ترجيح احد الاطراف المتزاحمة من وجهة نظر المصالح، والمفاسد.

٣ – ان العواطف ولو كانت دينية – لا تقتضي دائماً الفعل الذي ينسجم مع ارادة اللّه تعالى، بل قد تختلف مقتضياتها مع مقتضيات الارادة الالهية فقد يسبُّ المؤمن – لعاطفته الدينية – الذين كفروا فيسبوّا اللّه تعالى، وقد ينفعل – غاضباً للّه تعالى فيتعجل بموقف يعود

بالضرر على الدين وعلى هذا اناط الاسلام (الفعل) بالتدبر بالعاقبة والتعقل كما جاء في حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله :

(اذا هممت بامر فتدبر عاقبته فان يك رشداً فامضه، وان يكن غياً فدعه).

الضغط على العواطف الرسالية في حياة القادة

والامثلة على الضغط على العواطف الرسالية، في سبيل المصلحة العليا للرسالة كثيرة في حياة الرسول صلى الله عليه وآله ، والائمة (ع).

اذكر من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله موقفه في صلح الحديبية، في شكل الكتاب بينه، وبين موفد المشركين اذ رفض المشرك (سهيل بن عمرو) ان يفتتح الكتاب ب(بسم الله الرحمن الرحيم) وان يسمي فيه محمداً برسول اللّه صلى الله عليه وآله واقرّه الرسول بذلك، وان يرد صلى الله عليه وآله بعض المسلمين المهاجرين اليه من العذاب الجاهلي فيردهم الى المشركين لموقع العهد بينه صلى الله عليه وآله وبينهم وهو موقف في قمة الضغط على العاطفة الرسالية لمجرد الوفاء بشرط اشترطه صلى الله عليه وآله للمشركين.(١)

واذكر من سيرة الامام علي (ع) موقفه عندما غلب الانحراف على الخط الاسلامي الاصيل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وفي ذلك يقول (ع) كما في الخطبة الشقشقية : (وطفقت أرتئي بين ان أصول بيد جذاء، او اصبر على طخية عمياء، يشيب فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن، حتى يلقى ربّه فرأيت انّ الصبر على هاتا احجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، ارى تراثي نهباً)(٢).

ومن سيرة الامام الحسن (ع) عملية الصلح مع معاوية التي لم تتحملها

{ ١٦٢ }

حتى القلوب المؤمنة.. فتفجرت على شكل ملاحظات، وكلمات نابية قوبل بها الامام (ع) من قبل خيرة أصحابه.. ولكن المرحلة، ومصلحة الاسلام العليا التي هي المقياس في صحة الموقف، والانفعالات كانت تقتضي منه (ع) ان يقبل بالصلح ضمن شروط معينة.

واما الآن فالى مجموعة من العواطف الاسلامية والانفعالات المؤمنة.

حب اللّه

اولى عناصر العاطفة الايمانية، حب اللّه تعالى قال سبحانه :

(ومن النّاس من يتخذ من دون اللّه انداداً، يحبونهم كحبّ اللّه والذين آمنوا اشد حباً للّه)(٣).

(قل ان كان آباؤكم وابناؤكم، واخوانكم، وازواجكم، وعشيرتكم واموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، احب اليكم من اللّه، ورسوله، وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره، واللّه لا يهدي القوم الفاسقين)(٤)

وعاطفة الحب اوسع العواطف الايمانية، واشملها، وتتمثل في الميل النفسي الى اللّه تعالى والاستعداد الدائم للانس والالتذاذ بلقائه وينبسط

{ ١٦٣ }

هذا الحب، ويتفرع الى معاني اخرى بسبب ارتباطها باللّه، بنحو من انحاء الارتباط.

ويرتكز حب اللّه في نفس المؤمن على اوسع المرتكزات النفسية، واوثقها وهي اثنتان :

١ – حب الذات.. وحب الذات امر فطري في الانسان بمعنى ان الانسان مجبول على حب ذاته وهو حب يمتدّ وينبسط على خالق الذات، والمنعم عليها، ومن يمدها بالنعم صباحاً ومساء.. ومن هنا جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله :

(احبّوا اللّه لما يغذوكم من نعمه، واحبوني لحب اللّه).

٢ – حب الكمال، والجمال، وهو حب آخر جبل عليه الانسان، غير حب الذات.. واللّه سبحانه منتهى الجمال، والكمال، والصفات الحسنى كلها له.

«من عطاء الحب الالهي»

ولحب اللّه تعالى آثار كبيرة على شخصية الانسان المؤمن :

١ – الاثر العملي : وهو الطاعة والاستقامة على خط اللّه تعالى في الحياة.

(قل ان كنتم تحبون اللّه فاتبعوني يحببكم

اللّه) ٣١ / آل عمران.

وفي المعاني للصّدوق عن الصادق (ع) قال : ما احبّ اللّه من عصاه ثم تمثل بقوله :

تعصي الاله وانت تظهر حبّه***هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعته***ان المحبّ لمن احبّ مطيع

وفي مناجاة المحبين للسجاد (ع) (الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منه بدلاً، ومن ذا الذي انس بقربك فابتغى عنك حولاً) وفيها ايضاً (يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال

المحبين، اسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني الى قربك، وان يجعلك احبّ اليّ مما سواك، وان يجعل حبّي اياك قائداً الى رضوانك، وشوقي اليك ذائداً عن عصيانك).

وفي قصة مصعب بن عمير، وهو احد المؤمنين الذين تربوا على يد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وكان فتى مترفاً في بيت مرفه، يصفه رسول اللّه صلى الله عليه وآله – كما في الرواية – ما رأيت بمكة احسن لمة، ولا أرقّ حلقة، ولا انعم من مصعب بن عمير، في هذه القصة : ان رسول اللّه صلى الله عليه وآله رآه بعد ذلك وعليه جلد كبش من اثر الحرمان في اللّه ومن اجل اللّه تعالى، فقال (انظروا الى هذا الذي نوّر اللّه قلبه، لقد رأيته بين ابوين يغذوانه بأطيب الطعام، والشراب، ولقد رأيت عليه حلة (ثوباً) شراها بمائتي درهم، فدعاه حب اللّه، ورسوله الى ما ترون).

٢ – الانس باللّه ورسوله في الوحدة.. والانس بعبادة اللّه تعالى في الايام المعتادة وايام الوحدة، والغربة من أهم آثار أو أسس حبّ اللّه تعالى وقد كانت عبادة اللّه تعالى قرة عين الرسول صلى الله عليه وآله والائمة (ع) من بعده. وقد كانوا عليهم السلام عندما تحدد ممارساتهم الاجتماعية، وصلاتهم بالناس يأنسون بالصلاة، وتلاوة القرآن الكريم ويملأون كل اوقاتهم بالعبادة، والصلاة، انسا بربهم، وحباً، وعبودية.

بل نلاحظهم انهم (ع) وان كانوا يؤدون واجبهم في العمل الاجتماعي، ويعملون تخطيطاً وجهوداً من اجل قضية الاسلام، يتمنون لو اتاحت لهم الظروف ان يتفرغوا للعبادة والالتقاء المباشر باللّه تعالى وليس في هذا غض واقلال من قيمة وشأن العمل الاجتماعي، والجهاد في سبيل اللّه ولكن المؤمن يأنس باللّه تعالى، وعبادته المباشرة من سجود، وركوع، وذكره اكثر مما يأنس بالممارسات الاجتماعية والاختلاط مع الناس.

وفي الرواية : ان موسى بن جعفر (ع) كان كثيراً ما يسمع في دعائه – عندما كان في السجن – يقول : (اللهم انك تعلم اني كنت أسألك ان تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد)(٥) وكان (ع) مشغولاً يحيي الليل كله صلاة، وقراءة للقرآن، ودعاء، واجتهاداً، ويصوم النهار في اكثر الايام، ولا يصرف وجهه عن المحراب(٦).

ويرد الكلام نفسه، وان كان بصيغة اخرى عن الحسن العسكري (ع) ففي الخبر (دخل العباسيون على صالح بن وصيف عندما حبس ابو محمد (ع) فقالوا له : ضيق عليه ولا توسع فقال لهم صالح : ما اصنع به

وقد وكلت به رجلين شر من قدرت عليه، فقد صارا من العبادة، والصلاة والصّيام الى أمر عظيم ثم امر باحضار الموكلين به. فقال لهما : ويحكما ما شأنكما في امر هذا الرجل فقالا : ما نقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كله لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة فاذا نظر الينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملك من انفسنا)(٧).

وهذا علي بن الحسين (ع) الذي كانت ظروفه لا تسمح له بالعمل الاجتماعي المكشوف بحال من الاحوال، فأتاحت له شيئاً من الوحدة والتفرغ، سجل لنا تاريخه اروع درجات الانس، والتوجه، والشوق الى اللّه تعالى.. فكان من ادعيته ما تقرأه في الصحيفة قطعاً من قلبه الخاشع، وروحه المتحفزة وانسه باللّه تعالى العلي العظيم.. وكان من عبادته ما حكاه ابو عبد اللّه (عليه السلام) من دخول الباقر (ع) (فاذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه احد، فرآه قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانحرف انفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصّلاة. وقال أبو جعفر (ع) فلم املك – حين

رأيته بتلك الحال – البكاء – فبكيت رحمة له) هكذا روي عن ابي عبد اللّه (ع) في الوسائل – ابواب مقدمات العبادات ب ٢٠ –).

٣ – حب الرسالة والعمل من اجلها، فمن شؤون حبّ اللّه تعالى حب دينه الذي شرعه للناس لينهجوه في هذه الحياة، وحب تقدم الناس نحو هذه الرسالة، وتطبيقهم لها وحب الاسلام والرسالة الاسلامية يكون على نحوين :

أ – حب الرسالة والعمل من اجلها باعتبار انها تحقق للانسان سعادته، وتتمثل فيها كافة المصالح الانسانية أو احبها باعتبار اقتناع الانسان بها، وكونها جزءاً من شخصيته وكيانه، او باعتبارها من دين الآباء، وما شاكل ذلك من الشؤون والاعتبارات التي لا يكون فيها أي نحو من الارتباط باللّه تعالى، وليس لهذا الحب والعمل قيمة من وجهة نظر الاخلاقية الاسلامية، ولا يعتبر من المعاني التي يتشكل منها وجدان الانسان المسلم، وانما هو من قبيل حب أي انسان لعقيدته، وقومه، او وطنه، وامثالها من المعاني التي يضحي بعض الناس بمصالحهم الشخصية في سبيلها، وتعتبر توسعاً لدائرة الذات، والمصلحة الشخصية.

ب – حب الاسلام لانه دين اللّه تعالى وارادته التي يجب ان تطبق في الارض.. وهذ هو الحب الذي ينبع عن حب اللّه تعالى ويتفرع عنه، ويعتبر اثراً من آثاره في الحياة النفسية، والعملية للانسان المسلم، ويقابل هذا الحب بغض الانحراف وانكار المنكر في القلب.. كما سوف يأتي ان شاء اللّه تعالى.

ومن آثار حب اللّه تعالى، الزهد في الدنيا، ومن آثاره ايضاً حب المؤمنين..

حب المؤمنين أو الحب في اللّه

عن ابي عبد اللّه (ع) قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله :

(ودّ المؤمن للمؤمن في اللّه من أعظم شعب

الايمان. الا ومن احب في اللّه، وابغض في اللّه، واعطى في اللّه، ومنع في اللّه، فهو من اصفياء اللّه).

وعن علي بن الحسين (ع) قال :

(اذا جمع اللّه عز وجل الاولين والآخرين قام مناد فنادى ليسمع الناس فيقول : اين المتحابون في اللّه ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فيقال لهم اذهبوا الى الجنة بغير حساب).

وعن ابي عبد اللّه (ع) :

(كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له)(٨)

ان حب المؤمنين نتيجة طبيعية لحب اللّه تعالى. لانهم مرتبطون باللّه بأسمى معاني الارتباط، وحب الشيء ينبسط وينسحب على ارتباطاته، ومتعلقاته.

امرّ على الدّيار ديار سلمى***اقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الدّيار شغفن قلبي***ولكن حب من سكن الديارا

وينتج حبّ المؤمنين من جهة اخرى من التجانس في العلاقة باللّه

تعالى، والعقيدة، والحياة في عالم يغترب فيه المؤمنون الحقيقيون، والانسان يألف مجانسه، ومماثله..

ويفرز تحابّ المؤمنين فيما بينهم وينميه الخلق الاسلامي من الادب، والاحترام، والتزاور، والتكافل.. وغير ذلك من التعامل الذي يهدف الاسلام من التشجيع عليه توثيق الصلة بين المؤمنين، وتركيز علاقتهم العاطفية.

انّ حياة المؤمنين فيما بينهم هي حياة الحب، والانس، والانفتاح، والاحترام، والتواضع.. فلا حقد، ولا بغضاء ولا كراهية، ولا انقباض.. هي حياة ملؤها الرحمة، والحنان، والعطف لا تشوبها شائبة. من غلظة، وجفاء، وقطيعة..

وقد نلاحظ في حياتنا اليومية بعض المؤمنين الذي يتنافرون، بسبب اختلافهم في الرأي حول قضية اسلامية، فتشيع بينهم العداوة، والتحاقد، والعياذ باللّه، انّ هؤلاء لم يعرفوا حدود الاخوة الايمانية، ومستلزماتها.. ولم يعوا بعد ان اختلاف الرأي لا يفسد، للحب قضية، وان لكل مجتهد اجرين، ان اصاب اجر، وان اخطأ اجر، وان حياة الايمان، والوحدة الروحية بين المؤمنين اهم بكثير من الموقف الفلاني الذي يؤمن به احدهما، ويكفر به الآخر، حتى ولو كان هذا الموقف صحيحاً.

وقد نلاحظ في حياتنا اليومية أيضاً بعض المسلمين الذي تنافرون بسبب مصالح شخصية – قد تظهر بمظهر ديني – فيحقد احدهما على الآخر بسبب انه اخطأ في حقه، او نقده او نصحه باسلوب حاد، او زاحمه على

مركزه، او لم يتابعه في رأيه، وغير ذلك من الاسباب السخيفة.

ان المؤمن يتجاوز الخطيئة، ويكظم الغيظ، ويغفر زلات اخوانه، ويتغاضى عن سيئائهم.. أوَليس اخلاق المؤمن من اخلاق اللّه ؟ ومن راجع النصوص الواردة عن اهل البيت (ع) في اخوة المؤمنين، وحقوق الاخوة، وجد فيها ما يقصم الظهر.. وسنأتي على ذكر الكثير منها ان شاء اللّه تعالى في القسم الثالث من هذا الكتاب ويكفينا هنا ان نذكر بعض هذه النصوص :

عن ابي عبد اللّه (ع) : (قال اللّه عز وجل : ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن) وعنه (ع) عن ابيه : (اقرب ما يكون العبد الى الكفر ان يواخي الرجل على الدين، فيحصي عليه عثراته، وزلاته ليعنفه بها يوماً ما).

وعنه (ع) : (من روى على اخيه المؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته ليسقط من اعين الناس، اخرجه اللّه تعالى من ولايته الى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان). (واذا اتهم المؤمن اخاه انماث الايمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء) وعن ابي جعفر (ع) : (ايّما مسلم اتى مسلماً زائراً، او طالب حاجة، وهو في منزله، فاستأذن له، ولم يخرج اليه لم يزل في لعنة اللّه حتى يلتقيا) واخيراً عن ابي عبد اللّه (ع) : (اذا غاب المؤمن فاحفظه في غيبته، واذا شهد فزره، واجله، واكرمه، فانه منك، وانت منه، فان كان عليك عاتباً، فلا تفارقه حتى تسأل سميحته، وان اصابه خير فاحمد اللّه، وان ابتلي فاعضده، وان تمحل له فاعنه. واذا قال

الرجل لاخيه : اف، انقطع ما بينهما من الولاية، واذا قال : انت عدوي كفر احدهما فاذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء).(٩)

المشاركة الوجدانية

والمشاركة الوجدانية هي، ان يكون المؤمنون في حالة من التعاطف، والانسجام الوجداني، وكأنهم مشتركون في وجدان واحد، ومن هنا اذا تألم واحد منهم تألم الآخرون واذا فرح فرح له الآخرون، وهكذا في الحزن والهم والسرور.. وفي المشاركة الوجدانية لا يفقد الفرد المؤمن شخصيته الفردية ضمن المجموع المركب من المؤمنين وانّما يوسع من دائرة روحه الاجتماعية.. وارتباطه النفسي باخوته في اللّه تعالى..

وقد قرأنا فيما سبق بصدد المشاركة الوجدانية روايتين :

١ – عن ابي عبد اللّه (ع) (انما المؤمنون بنو اب وام واذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون).

٢ – وعنه (ع) (المؤمن اخو المؤمن، كالجسد الواحد اذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وارواحهما من روح واحدة. وان روح المؤمن لاشد اتصالاً بروح اللّه من اتصال شعاع الشمس بها) (راجع الروايتين في الاصول – ج ٢ ص ١٦٥ – ١٦٦).

خوف اللّه ورجاؤه، وتعلق القلب به

قد تجد الكثير من الناس الذين يتسمون بالايمان، يتلهون عن اللّه تعالى، ويشدون قلوبهم الى غيره. يخافون من الارض، ولا يخافونه، ويرجون الدنيا، وزخارف الحياة، ولا يرجون رزقه أو نعيمه، ولا يستشعرون عندما يذكرون الله تعالى لا خوفاً، ولا رجاء، ولا خشية، ولا خشوعاً، وانما هي كلمة تجري على اللسان، وفكرة تمر على الخاطر ثم ينزاحا ليحل محلهما الثرثرة، واحلام، وهموم الدنيا، قد تتلمس قلبك احياناً فلا تجد فيه عند ذكر اللّه ايماناً، ولا كفراً ولا خوفاً ولا رجاء.

غير ان المؤمن يعرض لنا في كتاب اللّه تعالى، وكلمات المعصومين من خلفه في صورة اخرى.

١ – يعرض لنا قلب المؤمن رقيقاً، حساساً، مرهفاً.. يتأثر، ويتحرك، وينفعل، ويخشى، ويخاف، ويتطلع.. وليس كومة لحم هامدة غليظة قاسية.. (لمتان : (لمّة من الشيطان ولمّة من الملك قلبك الملك، الرقة، والفهم، ولمّة الشيطان السهو، والقسوة (يا موسى لا تطول في الدنيا املك فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد)

(ألم يئن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر اللّه، ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)(١٠).

٢ – هذه الرقة في القلب هذه الحساسية.. والانفعال بكل معانيه واشكاله مرتبطة في قلب المؤمن باللّه تعالى وليس بالمنصب الشخصي، ولا بالمركز الاجتماعي، والمال.. ولا من القوم، والعشيرة، وغير ذلك من المعاني الدنيوية.. الكثيرة التي تتعلق قلوب الناس بها، فتنفعل بحركتها وتنعكس عليها تقلبات هذه المعاني واضرابها، ولنأخذ الآن اشكال تعلق قلب المؤمن باللّه تعالى.

١ – رجاء اللّه تعالى في النوائب.. عن ابي عبد اللّه (ع) (انه قرأ في بعض الكتب ان الله تبارك وتعالى يقول وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لاقطعن امل كلّ مؤمل من النّاس غيري باليأس، ولاكسونه ثوب المذلة عند النّاس، ولانحينه من قربي، ولابعدنّه من فضلي. ايؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي ؟ ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الابواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني ؟ فمن ذا الذي املني لنائبة فقطعته دونها ؟ ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ؟ جعلت آمال عبادي عندي

محفوظة، فلم يرضوا يحفظني وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وامرتهم ان لا يغلقوا الابواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي، انه لا يملك احد كشفها غيري إلا من بعد اذني، فما لي اراه لاهياً عني ؟ اعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته منه فلم يسألني رده وسأل غيري، ابخيل انا فيبخلني عبدي ؟ اوَليس الجود والكرم لي ؟ اوَليس العفو والرحمة بيدي ؟ اوَليس انا محل الآمال فمن يقطعها دوني ؟ افلا يخشى المؤملون ان يؤملوا غيري ؟ فيا بؤساً من القانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن

عصاني ولم يراقبني)(١١).

عن الصادق (ع) (كان فيما أوصى به لقمان لابنه ان قال : يا بني خف اللّه خوفاً، لو جئته ببر الثقلين خفت ان يعذبك اللّه، وارج اللّه رجاء، لو جئته بذنوب الثقلين رجوت ان يغفر اللّه لك).

وعنه (ع) (كان ابي يقول : ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران : نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد هذا على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا).

وعنه (ع) (ارج اللّه رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف اللّه خوفاً لا ييئسك من رحمته)(١٢).

ان كلاً من الرجاء، والخوف لو اخذا منفصلين احدهما عن الآخر، لاثر هذا على سلوك الانسان المسلم تأثيراً سلبياً – كما يبدو ذلك من هذا النص وغيره، لان الرجاء بلا خوف يجرى على المعصية، والخوف بلا رجاء ييئس من رحمة اللّه تعالى، وسلوك اليائسين سلوك منحرف والانسان يعمل لآماله العريضة، ورجائه باللّه تعالى أن يثيبه وينجيه من عذاب اليم.

٢ – خشية اللّه تعالى.. والخشية هي الانفعال المأخوذ بعظمة اللّه تعالى وهيبته.

(ألم يئن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر اللّه).

{ ١٧٥ }

(انما يخشى اللّه من عباده العلماء)

٤ – الانس باللّه تعالى. والرضا بقضائه، وعدم الجزع والضيق والسخط من قضاء اللّه تعالى وقدره.

من آثار تعلق القلب باللّه تعالى

من آثار تعلق وربط القلب باللّه تعالى في خوفه، وتطلعه وخشوعه، وحركته الوجدانية.. الانقطاع عن معاني الدنيا، والتسامي على قيمها، واشياءها.. والقلب الذي لم ينشد الى اللّه في انفعالاته وحبّه، من الطبيعي ان ينشد الى معاني الجاه، والمال، ويرجو الناس، ويخافهم، ويكون قلبه كريشة في مهب الريح، تتذبذب، وتتقلب، وتتحرك، متأثرة بأبسط التغيرات التي تحدث في عالم المعاني الدنيوية فاذا اصابه الخير كان منوعاً، وإذا اصابه الشر كان جزوعاً همه لا ينقطع، وقلقه لا ينتهي بحال..

ومن هنا جاء عن ابي عبد اللّه (ع) (ان القلب اذا صفا ضاقت به الارض، حتى يسمو) و(من عرف اللّه خاف اللّه، ومن خاف اللّه سمت نفسه عن الدنيا) (وان حب الشر، والذكر لا يكون في قلب الخائف الراهب) وفي الآثار من حديث قدسي (لاقطعن أمل كل مؤمل من الناس غيري باليأس، ولاكسونه ثوب المذلة عند الناس).

الرضا بقضاء اللّه وقدره

هذه الحياة بما فيها من اشياء، وحوادث هي محل رضا الانسان المؤمن، لان الانسان اذ يرتبط بعلاقة الحب مع اللّه تعالى، فانه يرضى بكل

ما يصدر عنه تعالى من مخلوقات وحوداث.. وقد عد الرضا بالقضاء والقدر من اهم صفات الانسان المؤمن وعناصر ايمانه، واكد عليه في النصوص تأكيداً بالغاً.. وهو بلا شك ذو اهمية عظيمة في الحياة، ويشكل ميزة للانسان المؤمن على الانسان الكافر او الانسان الذي لا يعيش قضية الايمان.

فالاشياء، والحياة، وحوادث الطبيعة كما هي محط خلاف بين الانسان المسلم، والانسان الجاهلي المادي من الناحية الفكرية والعقائدية.. كذلك هي محط خلاف بينهما من الناحية النفسية. كيف نتعامل مع الحياة وحوادث الحياة ؟ هل نعيشها برضا، وقناعة وابتسام، وانفتاح، او نعيشها ضيقاً وضنكاً، وجزعاً، وسخطاً ؟.

ان المؤمن يعيش هذه الحياة الدنيا بالرضا، والقناعة، والابتسام والانفتاح، ويتعامل مع حوادث الطبيعة كانسان متعاطف منسجم قانع.. وينطلق المؤمن في ذلك من امرين يرجعان الى ان كل ما في هذا الكون من اشياء، وظواهر، واحداث فهو من صنع اللّه(١) علاقة الحب باللّه تعالى.. التي تقتضي من الانسان المسلم الذي يحب اللّه تعالى ان يرضى بافعاله، ومخلوقاته، وكل الوان التدخل منه تعالى في هذا العالم الفسيح(٢) ايمان المسلم بأن كل ما في هذا الكون من اشياء، وكلما يقع فيه من حوادث خاضع للتقدير، هادف للحكمة ويوجد وراءه هدف مرسوم، وغرض، وقصد في صالح الكون والحياة.

عن الصادق (ع) :

{ ١٧٧ }

(ان اعلم الناس بالله ارضاهم بقضاء الله عز وجل)

وعنه (ع) :

(عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء الا كان خيراً له. وان قرض بالمقاريض كان خيراً له. وان ملك مشارق الارض ومغاربها كان خيراً له)(١٣)

وعن ابي جعفر (ع) :

(احق خلق الله ان يسلم لما قضى الله عز وجل من عرف الله عز وجل. ومن رضي بالقضاء اتى عليه القضاء وعظم الله اجره ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء واحبط الله اجره)

(ثم ان صاحب الرضى أبداً في روح وراحة وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضى وينظر في كل شيء الى نور الرحمة الالهية، وسر الحكمة الازلية، فكأن كل ما حصل وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا عاجلاً فراغ القلب للعبادة

{ ١٧٨ }

والراحة من الهموم، وآجلاً رضوان الله، والنجاة من غضب الله)(١٤)

وليس من الرضا بالقضاء، والقدر، الرضا بالمنكر، والانحراف، حتى ولو اصر على ذلك المتصوفة والمنحرفون.

لان الانحراف والمنكر سببه، وفاعله الانسان، ولا يرضى الله به وانما يرضى المؤمن لرضى اللّه، ويغضب لغضبه، ومن هنا جاء عن الرضا (ع) :

(ومن يرضى شيئاً كمن اتاه. ولو ان رجلاً قتل بالمشرق فرضي بقتله لرجل بالمغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل)(١٥)

وعن علي (ع) :

(العامل بالظلم، والراضي به، والمعين عليه شركاء ثلاثة).

وعلى العكس من ذلك اكدت النصوص على ضرورة الانكار القلبي والسخط على المنكرات، والانحرافات، واكدت على المؤمن ان يعمق من انكاره، وسخطه وان يقاوم الالفة النفسية للمنكرات، بسبب الفتها خارجاً وذلك :

أولاً : ان الانكار القلبي للمنكر والانحراف حصانة من الانجراف الى المعصية، والتأثر بالبيئة، وحاجز نفسي يمنع المؤمن من الانحراف مع التيار المنحرف.

ثانياً : ان الانكار القلبي للمنكر هو الاساس النفسي واحد الأسس النفسية، للاندفاع نحو التغير، والحركة في سبيل التغيير الرسالي.

ثالثاً : ان انكار المنكر قلبياً ينتهي الى بعض المعاملات السلبية مع العاصين، والمنحرفين، وقد امر الرسول صلى الله عليه وآله كما في الرواية عن الامام علي (ع) أن يواجه العاصين بوجوه مكفهرّة ومن هنا اعتبر الانكار القلبي من مراتب الانكار في كتب الفقهاء.

«الزهد»

يتقوم الزهد الاسلامي بتحرير الوجدان من حبّ الدنيا، والانعتاق الداخلي من قيود الشهوة، والأهواء.

ولحب الدنيا آثار سلبية خطيرة في سلوك الانسان، وحياته النفسية، ذكرتها النصوص الإسلامية وحذرت منها(١٦).

نذكرها فيما يلي ثم نرجع الى الزهد ومفهومه الاسلامي الاصيل.

١ – المخالفة.. فأول هذه الآثار السلبية، مخالفة الشريعة.. وكلّ حبّ وكلّ عاطفة، يتجه اتجاهاً عملياً، ويتطلب مواقف خاصة. ولا يهم الحب هذا، والعاطفة هذه، ما اذا كانت هذه المواقف تتوافق مع الشرع، أو

العرف أو عاطفة اخرى، أو لا تتوافق معها.. فانت اذ تحب الجاه والمركز – والعياذ باللّه – فمن الطبيعي ان تسعى لها وقد يتوقف حصولك على المركز الاجتماعي على فعل محرم، كالرواية على اخ مؤمن، من اجل شينه، والحط من قيمته امام الناس، فترتكب هذا المحرم في لحظة ضعف او غفلة او تمرد، فيقطع الله سبحانه ولايته منك، ويخرجك منها الى ولاية الشيطان، ولا يقبل الشيطان ولايتك.. والانسان مثلاً اذ يحب الدنيا، حياتها وامنها، وراحتها، ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، ويطمئن اليها فمن المعقول جداً ان يرفض الجهاد في سبيل الله، ويتنكر لطريق ذات الشوكة، لانه طريق عناء وتضحيات.

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل)(التوبة / ٣٨)

ومن هنا وبسبب ان المخالفة هي النتيجة الطبيعية – لحب الدنيا – الامام كما في الرواية :

(حب الدنيا رأس كل خطيئة)

(ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها، احدهما في اولها، والآخر في آخرها، بافسد فيها من حب المال والشرف

في دين المسلم)(١٧)

٢ – هم لا ينقطع.. وحب الدنيا ينتهي الى انشغال نفسي، وعملي يتنافى مع ما يتطلبه وضع الانسان المؤمن من تكريس كل طاقاته النفسية، وجهوده في عبادة الله تعالى، وتعبيد الناس له، وما يكون عليه من تعال وتسام في الوضع، والسلوك.

عندما تحب الدنيا، والمال، والجاه وغيرهما تكون بذلك قد ربطت قلبك بشيء متغير، كثير التغير والتبدل مما يؤدي الى ان تضطرب حالاتك النفسية وتتغير من فرح غامر الى حزن كئيب، ومن حب الى كره، ومن غضب الى رضاء، وقلق وهم فان.

(من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال : هم لا يفنى، وامل لا يدرك، ورجاء لا ينال)(١٨)

(من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن اتبع بصره ما في ايدي الناس كثر همه، ولم يشف غيظه ولم ير الله عز وجل على نعمه الا في مطعم أو مشرب وملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه)(١٩)

٣ – حب الدنيا وحلاوة الايمان : عن جعفر بن غياث عن ابي عبد الله (ع) قال : سمعته يقول :

(جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا)

ثم قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله :

(لا يجد الرجل حلاوة الايمان حتى لا يبالي من اكل الدنيا)

ثم قال ابو عبد الله (ع) :

(حرام على قلوبكم ان تعرف حلاوة الايمان، حتى تزهد في الدنيا)

وعن عبد الله بن القاسم عن ابي عبد الله (ع) :

(الا من صبّار كريم فانما هي ايام قلائل، الا انه حرام على قلوبكم ان تجد طعم الايمان حتى تزهد في الدنيا)

وسمعته ابا عبد الله (ع) يقول :

(اذا تخلى المؤمن من الدنيا سما، ووجد حلاوة حب الله، فلم يشتغل بغيره)

قال وسمعته يقول :

(ان القلب اذا صفا ضاقت به الارض

حتى يسمو)(٢٠)

ان التحلية لا تكون الا بالتخلية – كما يقولون – وحب الله، ومعايشة هموم الرسالة، والتفاعل النفسي، والشعوري مع حقائق الكون والمبدأ، والدعوة، إنما يكون عن طريق اضعاف، أو الغاء حب الدنيا في قلب المؤمن الرسالي وقطع القلب عما في أيدي الناس..

(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم)(٢١)

ان المؤمن نوع جديد، ودم جديد، وصياغة جديدة للانسان، ليس لها سابقة في حضارة المال، وحضارة الدنيا، ليس فقط في مفاهيمه، وبصائره، ورؤاه الفكرية وانما ايضاً – وابتداء – في احاسيسه، وعواطفه، وتعلقاته القلبية، وهمومه، وانفعالاته.. وبينما لا يتحرك قلب ابن حضارة الدنيا، والمال لسوى بريق الذهب، والتمركز في دنيا الناس، فان قلب المؤمن يصفو فتضيق به الدنيا حتى يسمو ويذوق طعم الايمان، ولا يتناغم مع غير معاني القدس والطهر، ولا يرق لسوى خوف الله ورجائه والتطلع اليه.

٤ – الدنيا والحكمة.. من الممكن ان يكون الانسان عالماً بالدين، ومحباً للدنيا، وراكضاً وراءها في ذات الوقت، ولكنك لن تجد حكيماً واحداً من اهل البصائر في دين الله وهو يحب الدنيا ويسعى لها اكثر من سعيها لان حب الدنيا غطاء القلب، وحجاب عليها يمنع من الحكمة والتبصر.. وروح دين الله وقيم هذا الدين لا يعطيها ولا يتحملها الا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان، وطهره من حب الدنيا.

(ومن زهد في الدنيا اثبت الله الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا، داءها ودواءها)

والشهوة، والهوى، حجاب عن ادراك لطائف الحقائق الدينية، وقيم الاسلام الاخلاقية، ولكم ادى الركون الى الدنيا، والاطمئنان اليها الى تحريف آيات الله المباركات في الكدح والجهاد ؟ ولكم ادى الركون الى الدعة والراحة، وحب الثرثرة، والالفاظ البراقة الى الاعراض عن نصوص العبادة، وآيات التربية، والاعداد الروحي، بل وتحريفها لكي تكرس حياة الانقطاع عن الله بدل ان تكون اداة للانقطاع اليه ؟

عن ابي عبد الله (ع) :

(تجد الرجل لا يخطئ بلام، ولا واو خطيباً مصقعاً، ولقلبه اشد ظلمة من الليل المظلم وتجد الرجل لا يستطيع ان يعبر عما في قلبه بلسانه، وقلبه يزهر كما يزهر المصباح).

وعن ابي جعفر (ع) :

(القلوب ثلاثة : قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير، وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير والشر فيه يعتلجان،

فايهما كانت منه غلب عليه. وقلب مفتوح، فيه مصابيح تزهر، ولا يطفأ نوره الى يوم القيامة وهو قلب المؤمن)(٢٢)

٥ – الدنيا تفرق ولا تجمع، الدنيا : هوى الذات، ولكل شخص هواه، فاذا وجدت عشرة من اهل الدنيا فاعلم ان هناك عشرة غايات مختلفة متناقضة كل واحد من هؤلاء يريد مثلاً المركز والجاه أي يهدف الى ان يكون الشيخ المجل والحاكم المطلق دون سواه لان مشيخته لا تتم الا بعبودية الآخرين. اما المؤمنون فهواهم الله والانسجام مع دين الله تعالى.. والله سبحانه وتعالى واحد، وطاعته واحدة، وهذا هو السبب في أن سرعة إئتلاف الابرار اذا التقوا، وان لم

يظهروا التودد بالسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الانهار وان بُعد ائتلاف قلوب الفجار اذا التقوا، وان اظهروا التودد بالسنتهم كبعد البهائم عن التعاطف، وان طال اعتلافها على مذود واحد.(٢٣)

«الزهد تحرر وإنعتاق»

لا يستنكر الخلق الاسلامي امتلاك المؤمن الدنيا من مال، وجاه، وبنين، ولكنه يستنكر امتلاك الدنيا ومعانيها للمؤمن وأن تكون معبودة له من دون الله، أو مع الله.

الشهوات العاجلة كالشره في الاكل، والجنس، والمال، والرفاه، والزينة، والامن، والاستقرار، والاطمئنان الى الدنيا.. والراحة والجاه.. هذه كلها معاني الدنيا واشياؤها التي يزهد المؤمن وينبغي أن يزهد فيها.. لأن المؤمن ذو أفق واسع، ومنظار

عريض، يضع الاشياء موضعها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية، وانت عندما تنظر المال، والجاه.. في المنظار الاسلامي للحياة والآخرة ولله.. فلن ترى لهما – اخلاقياً – سوى رقم ضئيل ليس له في الحساب شيء وليس له في القلب مكان.

فالزهد عندما يدعو له الاسلام، ويربي الانسان المسلم عليه مسألة طبيعية لا تزيد على معايشة النصوص الاسلامية للحياة، والتفاعل النفسي مع حقائق الوجود. يتحول من خلاله الانسان المسلم من انسان يرتبط بهذه المعاني الزائلة، ويصنّمها، ويعبدها في القلب والوجدان، الى إنسان يتعالى عليها، ويتسامى عنها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية التي تستحقها.. وقلب المؤمن كلما نما حبه لله تعالى، ولدينه وللمؤمنين، وازدادت همومه الرسالية، وتوجهاته النفسية

للعمل والجهاد، كلما ضعف حب الدنيا في قلبه، وزهد في معانيها الزائلة، مالاً، وجاهاً، وزخرفاً، وشهوات..

فالزهد اذن هو التحرر الداخلي من قيد الشهوة والهوى، والانعتاق النفسي الحقيقي من الدنيا، ومعانيها وهو بذلك سبب، ونتيجة في آن واحد للانقطاع الى الله تعالى، والارتباط بالسماء.. أو بالاحرى العبودية الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسلوك.

لقد طبّلوا للحرية الغربية، والحرية في المجتمعات الديمقراطية، حرية في مجال السياسة، وحرية في مجال السلوك الشخصي، وحرية في الاقتصاد، وحرية في المجالات كافة. ولكن الانسان المؤمن وحده هو الذي يعرف

ان الحرية الحقيقية ليس في هذا، ولا في ذاك، ولكنها في الزهد والتحرر الذاتي وان الحرية تجاوز القيود التي تكبل الارادة الانسانية وتمنع الانسان من الابداع، والفعالية في مجال النمو والتكامل وتحقيق انسانيته، وعبوديته لله. وهذه القيود هي (ثانياً) القيود الخارجية والاجتماعية ولكنها (اولاً) القيود الذاتية.. قيود التخلف العقلي. وضيف الأفق، ومادية الاحساس، وقيود العاطفة المكبلة بالمال، والطين، والجاه، والشهرة والجنس، والقناطير المقنطرة.

وليس الزهد في المفهوم الاسلامي الواعي سوى التحرر الذاتي من هذه القيود، وتحويل هذه المعاني التي يركض وراءها الناس ويطمئنون اليها، الى معان زهيدة تافهة الى جنب الله، ومعاني الخير، والقيم الاسلامية الرائدة.

وهذا التحرر الذاتي المتمثل بالزهد – على خلاف من حب الدنيا والركون اليها – هو وحده الذي يمكن الانسان المؤمن من تذوق حلاوة الايمان والانس بالله والتعالي على صغائر الحياة.

(حرام على قلوبكم ان تعرف حلاوة الايمان حتى تزهد في الدنيا)

وهو وحده – او مع التقوى – الذي يمكن الانسان المسلم من أن يدرك الحق ويتحسس روح هذا الدين وقيم هذه الرسالة (اذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة) وقال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به)(٢٤)

هذا ولكننا لسنا مع الانحراف الصوفي الذي يعتبر طريقة العلم بالله، والمعارف الدينية هو، طريقة الرياضة والزهد.. والمراحل العملية الاخرى للصوفي، والعارف، فقد انزل الله تعالى كتابه بصائر، وهدى للناس، وبعث نبيه ورسوله يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب، والحكمة ويزكيهم.. وطريق المعرفة هو هذا الطريق، أن تتعرف على افكار الاسلام، وتشريعاته من خلال المقاييس التي وضعها الاسلام، والبيانات التي جعلها للناس.. ولكن علم الانسان المسلم ان يعد نفسه من اجل ان يكون (متلقياً) من الله متفاعلاً مع النص منفتحاً عليه مطهراً من الحجب والغشاوات التي يصرف الله بها كثيراً من الناس عن آياته.

وبالزهد في الدنيا.. يطمئن الانسان المسلم، ويخرج عن قانون الهلع والجزع.

(ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الخير منوعاً وإذا مسه الشر جزوعاً الا المصلين)

ويخرج عن دائرة الاضطراب النفسي.

(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم)

{ ١٨٩ }

وبالزهد في الدنيا.. في الجاه والمركز والتحكمات والظهور بين الناس يجتمع شمل المؤمنين، ويتماسك صفهم ويتوحدون في كدحهم الى الله تعالى.

«الزهد معنى نفسي»

من خلال ما مر نعرف ان الزهد معنى نفسي، يرجع الى طبيعة القيم النفسية، والميول الذاتية، والعاطفية للانسان وهو وان كان له آثار عملية غير انه ليس معنى سلوكياً.

فليس الزهد اذاً بتضييع المال، وتحريم الحلال، وتطليق الحياة، والتظاهر بالفقر مع مجموعة هائلة من الاوساخ والقذارات تشهد على هذه النصوص التالية :

(ليس الزهد في الدنيا باضاعة المال، ولا تحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك اوثق منك بما عند الله عز وجل)(٢٥)

في حديث معتبر : (ان رجلاً قال لابي عبد الله (ع) :

(والله انا لنطلب الدنيا ونحب ان نؤتاها فقال : تحب ان تصنع بها ماذا ؟ قال : اعود بها على نفسي، وعيالي، واصل بها، واتصدق منها، واحج واعتمر. فقال ابو

{ ١٩٠ }

عبد الله (ع) : ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة)(٢٦)

وعن علي بن الحسين (ع) : (الا وان الزهد في آية من كتاب اللّه عز وجل).

(لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما اتاكم)(٢٧)

وغير ذلك من النصوص الدالة على كون الزهد المطلوب هو معنى نفسي ووجداني..

ولكن يجب علينا هنا ان نستدرك، ونتذكر بان هذا المعنى النفسي الاخلاقي – ككل المعاني النفسية – له صلة وثيقة بالسلوك، والمواقف الخارجية، فالزاهد المسلم يختلف من الناحية السلوكية عن غيره.. فهو لا يلح في الطلب – طلب المال – ولا يكثر من تناول الملذات.. ولا يركض، ولا يسعى للجاه، والمركز.. لان همومه الرسالية تستوعب كيانه النفسي والسلوكي.. ومن هنا جاء في الرواية عن ابي عبد الله (ع) :

(ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن اليها ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف (النصف خ ل) المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف

وتكسب ما لا بد للمؤمن منه. ان الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم)(٢٨)

ان وقت المؤمن، وهمومه، ودوره الذي ينتظره في الحياة الاسلامية لا يتسع للطلب الزائد، والملاذ الكثيرة، والمساعي الشخصية الا بالقدر الذي يهيئ له ضرورة العيش، وضرورة الحياة، وكل ما عدا ذلك احابيل الشيطان، وشباكه التي يصطاد بها الكثير من المؤمنين ويخرجهم بها من دائرة العمل في سبيل الله والجهاد للرسالة الى دائرة الحياة الشخصية التافهة الصغيرة.

«الزهد تحرر، والصبر إرادة»

الزهد – كما عرفنا – قطع علاقة القلب بالدنيا.. وربطه بالله.

(وان لا تكون بما في يدك اوثق منك بما عند الله)

ويختلف الصبر عن الزهد في ان الصبر يتمثل في ضبط النفس، ومخالفة الهوى، فهو ارادة حازمة امام القيم الذاتية، وشهوات النفس، واهوائها، اما الزهد فهو الغاء الاهواء وقطع القلب من كل ما عدا الله وهو بذلك اعلى منزلة من الصبر وان كان مرحلة في الطريق اليه.

عن امير المؤمنين (ع) :

(الناس ثلاثة : زاهد، وصابر، وراغب،

فاما الزاهد : فقد خرجت الاحزان والافراح من قلبه، فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته. فهو مستريح. واما الصابر : فانه يتمناها بقلبه فاذا نال منها الجم نفسه عنها بسوء عاقبتها، وشنآنها، ولو اطلعت على قلبه لعجبت من عفته، وتواضعه، وحزمه، واما الراغب : فلا يبالي من اين جاءته الدنيا من حلال او حرام ولا يبالي ما دنس فيها عرضه، واهلك نفسه، واذهب مروءته فهم في غمرة يعمهون، ويضطربون).

«طمأنينة الوجدان الإسلامي»

وجدان الانسان الجاهلي في اضطراب دائم. وقلق مستمر، وانفعال قتال، ذلك أن وجدانه يرتبط بالدنيا ومفاهيمها، والدنيا، ومعانيها في تغير من حال الى حال لا استقرار فيها، ولا

ركون.. وهذا الاضطراب، والحركة، والتغير الذي يقع في الاوضاع الدنيوية للانسان ينعكس على وجدانه فيمزقه، ويتركه في لجة من الاضطرابات والانفعالات السريعة القوية.. اما الانسان المؤمن فقلبه مطمئن، ووجدانه هادئ.

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللّه)

(يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي الى

ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي)(٢٩)

وهذه احدى سمات الوجدان الايماني.. الطمأنينة بذكر الله.. وتنعكس على سلوكه، وتعامله مع الناس، ومشيه على الارض بين الناس.

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)(٣٠)

وتنبع عن قطع القلب بالمعنى المتغير المتذبذب، والرائح الجائي الذي ينعكس اضطرابه، وتذبذبه على كل قلب تعلق به، وانشد اليه من جاه، وبنين، ومال، ورفاه.. وغير ذلك من دنيا الناس، وهمومهم.

أن اولى محاولات الاسلام التربوية، وقد تكون من اهمها على الاطلاق، هي بناء شخصية الانسان المسلم على ان تكون (مستقلة) عن الاحداث مستعلية على صغار الدنيا، ومتجاوزة لمعانيها، وبالتالي قطع (الصلة التأثيرية) للمؤمن بحركة معاني الحياة وتذبذبها.. واستبدال ذلك بشدها الى الله، وايجاد نحو من الصلة الجديدة بالاحداث، وهي صلة التأثير، والقيادة، والتغير، وقد يعتبر الانسان المؤمن من حركة الاحداث، واضطراب امور الحياة، ويعرج من خلال ذلك

الى الله.. المطلق المتعال.. ولكنه – في صياغة الاسلام – اسمى من ان تمزقه هموم الحياة، أو تكون قائدة له عاملة فيه..

من الممكن ان نختصر الامور.. او الانفعالات التي تأكل قلوب الناس، وتمزق وحدتهم الشخصية، – وتفقدهم الارادة، والتماسك في ثلاثة :

١ – الخوف والقلق.

٢ – الجزع والضيق.

٣ – الغضب، والاحقاد الشخصية.

(١) – قلق الانسان، وخوفه على ماله من الضياع، وتجارته من الخسران، والكساد، وخوفه، وقلقه على اوضاعه الهادئة من ان تصاب بأذى ومتاعب، وقلقه، وخوفه على حياته من ان تتعرض للمخاطر.. ومركزه، وجاهه ان يصاب بسوء هذه وغيرها هي المخاوف التي اعتادها الناس، ووعي المؤمن للحياة بصورة اخرى غير الصورة المادية، واتجاهه النفسي المتمثل بالزهد بالمعاني الدنيوية.. هما الامران الكفيلان في مواجهة عقد المخاوف، والقلق. ان زهد المؤمن بالمال وزهده بالراحة، والرخاء، والامن اذا ما قيسا الى الراحة الابدية والرخاء الابدي، وزهده بالحياة الدنيا بالقياس الى الحياة الابدية، السعادة الدائمة، أن هذا الزهد لكفيل بالحد من درجة المخاوف، أو ازالته من صفحة النفس نهائياً، لان الخوف، والقلق لا يكون الا بالنسبة الى المعاني التي تملك النفس وتملأ الوجدان، والزهد في منطق الاسلام هو التحرر الوجداني من هذه الاشياء، والمعاني.

واذا كانت قمة مخاوف الناس، وقلقهم، وخوفهم على انفسهم من

المكاره، والاذى، وخوفهم على حياتهم من الخطر، والهلاك فان المؤمن المشبع بروح الرسالة.. المربى على هدي كتاب الله يأنس بالموت في سبيل الله كما يأنس الطفل بثدي امه.

(وذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين)(٣١)

واذا كان الناس يفرون من الموت فان المؤمن بدلاً عن ذلك يستعد له، وينتظره بفارغ الصبر ويتطلع الى اليوم الذي يستشهد فيه في سبيل الله ولو على يد شر خلق الله، وذلك لان مؤمن الرسالة لا ينظر الى الموت في سبيل الله على أنه اعدام الحياة.. بل على انه بداية الحياة الحقيقية التي يجهلها الناس، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم.

(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل اللّه اموات بل احياء ولكن لا تشعرون)(٣٢)

(٢) – ومن مظاهر اضطراب الشخصية الانسانية الجزع والضيق عند المصيبة، والفشل.

(خلق الانسان هلوعاً، اذا مسه الخير منوعاً، واذا مسه الشر جزوعاً)(٣٣)

وللشر الدنيوي اشكال كثيرة خسارة في مال، فقدان ولد، أو حبيب.. سقوط الهيبة والمكانة في اعين الناس، فشل مشروع عملي.. الخ.. والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم المصلون المؤمنون الذين يعيشون صلاتهم مع ربهم احاسيس وتوجهات، والواقع ان مصائب الناس هذه ليست مصائب عند المؤمن حتى يجزع عليها، أو تضيق نفسه بها.. ولو صدقت عليها انها

مصائب بالنسبة له، فانما تقع عليه، وهو يعاملها ضمن تصور شامل للوجود، والحياة، ومفاهيم واقعية يتعزى بها المؤمن، ويستلهم منها الثبات، ويستمد منها الطاقة.

المؤمن اساساً.. لا يصل انفعاله عند المصيبة الشخصية الى حد الضيق فضلاً عن الجزع.. لان مستوى (الزهد) الذي عنده، ودرجة ارتباط قلبه بالله تعالى يخففان من درجة (الاصابة)، والتأثر بالحدث، ولا يمنع هذا من ان تدمع عينه على فلذة كبده مثلاً، وهو يموت بين يديه، ويحزن قلبه حزناً ضعيفاً هادئاً.. ولكن لا يتضايق، ولا يقول ما لا يرضي الرب، ولا يستقل منه شيء.

ان المؤمن يحافظ على درجة كبيرة من الانفتاح النفسي على الحياة، والابتسام لها مهما تداكّت عليه المصائب ونزلت به النوائب الشخصية وحلت به الخطوب، والانتكاسات.. والذين يبكون من كل شيء، ويضيقون من كل حدث ويسودون وجه الحياة البسام، فانهم يعوزهم الكثير الكثير من معاني الايمان ودرجات التعالي الروحي، والزهد الواعي الاصيل..

(٣) – والغضب، والاحقاد الشخصية.. هي الاخرى مما يأكل في قلوب الناس، ويمزق تماسكهم الشخصي.. الغضب للذات عندما تهان، أو تتعرض لبعض الالوان البسيطة أو الشديدة من الاعتداءات، والاخطاء في حقها.

والحقد على الانسان الذي يرتكب بعض الاعمال المشينة عن غفلة أو تعمد.. أو على الانسان الذي يهبه الله بعض القابليات، والقدرات التي يتقدم بها علينا، ويبرزها في مراكزنا.. هذا جزء آخر.. ووجه آخر لاضطراب الوجدان البشري.. ولكن الوجدان الذي لم يرب في ظل هداية الله تعالى.. فان الغضب حسب ما توحي به هذه الهداية يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل.

(ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت اوداجه، ودخل الشيطان فيه)(٣٤)

ان هذا الغضب من الشيطان لانه ينبع من قيم شخصية ذاتية ومن (انا) فاسد لا نضج فيه، وان الغضب يفسد الايمان.. لان الغاضب في غضبه يخرج عن حدود المنطق الديني، والمنطق الاخلاقي.

وكذلك الحال في الحقد، والعداوات الشخصية.. التي تصدر من وجهة نفسية عن قيم انانية، وخبث في الذات، والمؤمن لا يكون مؤمناً وهو حاقد على اخيه، أو كاره له حتى يرجع الى حبه فان المؤمن يأنس الى اخيه المؤمن

كما يأنس الظمآن الى الماء.. أو كما يأنس الطير الى وكره واين هذا من حقد متأصل، وعداوة متمكنة من القلب مفسدة له، ان المؤمن ليتسامى فلا يرد على الاساءة.. بل وهو في اكثر الاحيان لا ينظر اليها على انها اساءة، أو يحسب لها في نفسه أي حساب.. في خبر معتبر عن ابي عبد اللّه (ع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته :

(الا اخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة ؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والاحسان الى من اساء اليك، واعطاء من حرمك) الاصول ج ٢ ص ١٠٧

وان المؤمن ذو قلب رحيم، عطوف حنون يسامح ويكظم الغيظ، ويعفو عن الناس وان اساءوا، ويصلهم وإن قطعوا، ويحترمهم وان اهانوا، والمؤمن اسمى من ان يصدر عن غيظ، وينطلق عن غضب أو حقد، وكيف يعرف قلبه الاحقاد وقد تمكنت فيه هداية الله وحب المؤمنين ؟

«العلاقة الوجدانية بالرسالة ونجاح الدعوة»

المؤمن في الاساس ينطلق في عمله الرسال الدعوتي، لان الله تعالى يطلب منه ذلك، ولانه يثيبه عليه.. ولكن الانسان المسلم لا يتعامل مع عمله على اساس انه (مسؤولية) يريد التنصل منها، وابراء ذمته، وعهدته من عبء الامر، والطلب الالهي.. بل، ولا يتعامل معه على انه (طريق للثواب) الاخروي.. فقط.. وانما تنشأ عنده قبل العمل لله، واثناءه علاقات وجدانية تتمثل في حب هداية الناس، والتطلع الى تغييرهم،

واصلاح دينهم، وآخرتهم، وينشط لديه الحس الاخلاقي فيهمه امر الناس، والاحسان اليهم وطاعتهم لله.. ففي الرواية عن عمار السابطي قال قلت لابي عبد الله (ع) : (ايما افضل العبادة في السر مع الامام منكم المستتر في دولة الباطل، أو العبادة في ظهور الحق، ودولته، مع الامام منكم الظاهر ؟ فقال : يا عمار الصدقة في السر والله افضل من الصدقة في العلانية وكذلك والله عبادتكم في السر مع امامكم المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل، وحال الهدنة افضل ممن يعبد الله عز وجل ذكره في ظهور دولة الحق مع امام حق ظاهر في دولة الحق..

ثم قال عمار : قلت : جعلت فداك فما ترى اذاً ان نكون من اصحاب القائم، ويظهر الحق، ونحن اليوم في امامتك وطاعتك افضل أعمالاً من اصحاب دولة الحق والعدل ؟

قال (ع) :

(سبحان الله اما تحبون ان يظهر الله تبارك وتعالى الحق، والعدل في البلاد، ويجمع الله الكلمة ويؤلف الله بين قلوب مختلفة، ولا يعصون الله عز وجل في ارضه وتقام حدوده في

خلقه، ويرد الله الحق الى اهله فيظهر حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة احد من الخلق)(٣٥)

وهكذا لا يريد الامام ان يجعل من قضية تطبيق حدود الله أو اقامة

دعائم ومعالم رسالته في الارض مجرد قضية مسؤولية باردة.. يتهرب عنها الانسان في أي لحظة يتوهم فيها أن عملاً آخر اكثر ثواباً، واجراً.. ويتعامل معها تعاملاً فردياً جافاً، وانما هي قضية رسالة ربانية.. وارادة الله تعالى في الارض يكتّل لها الامام، والاسلام القيم الدينية النفسية المتعلقة بالثواب، والقيم العاطفية الراجعة الى حب الله، وحب رسالته، والغضب لمحارمه، اذا انتهكت، والقيم الانسانية الاخلاقية المتعلقة بالعدل، والاحسان، والتأليف بين القلوب، وامثالها من المعاني، التي لا يريد الاسلام ان يميتها، ويذيبها في الحس الديني بمعناه الضيق المحدود، وانما يشركها في عملية البناء والتربية.

ونتيجة للتعامل العاطفي مع قضية الدعوة.. والعلائق الوجدانية بها، فمن المعقول ان يألم المؤمن في اللحظات التي ينحرف فيها الناس، ولا تحقق الدعوة نجاحاً حسياً ملموساً ويحس بحزن هادئ رزين، وتصيبه حالات من التحسر على الناس وشيء من الاسى المخفف ومن الطبيعي ان يسر، ويفرح عندما يتحقق نحو من التقدم للدعوة والعمل عند الناس.. وليس في هذا ما ينقص من دينه وارتباطه بالناس.. وهذه سيرة الرسول صلى الله عليه وآله والائمة (ع) حاشدة بالامثلة على هذه الاواصر القلبية، والتعلق الوجداني (العاطفي، والانفعالي) بينهم وبين الدعوة ومع الناس.. واسبق الامثلة الى الاذهان.. ما يبدو من خلال القرآن الكريم من ان رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قمة ما امكن للهدى الالهي ان ينشئه ويربيه – كان يتحسر

على قومه ويصيبه نحو من انحاء الالم النفسي على أنهم لا يؤمنون.. وكل ما حاوله كتاب الله تعالى هو ان عزاه وسلاه، والفت نظره الى وسائل

التثبيت، والتسلية، والعزاء من خلال معايشة التصور الرباني للحياة.. واللجوء الى الله.

«الحد من العلاقة الوجدانية بالدعوة»

هذا وجه المسألة. والوجه الآخر لها.. هو ان التربية الاسلامية، اذ تحاول تنمية العلاقة الوجدانية بالدعوة والرسالة، وتوطيد العواطف الدعوتية، والاسلامية التغيرية من حب الناس، وحب هدايتهم، والسرور بذلك، وما يترتب على ذلك – بحسب قوانين النفس – من آلام نفسية معينة عند تكذيب الناس وسخريتهم بالرسالة، واعراضهم عنها.. ان التربية الاسلامية اذ تحاول ذلك تحذر من نقطتين تعبران عن الافراط في هذا الجانب.

١ – أن تنمو العلاقة العاطفية بالدعوة الى الله والى رسالته.. على حساب العلاقة العاطفية بالله تعالى نفسه.. بحيث يكون حب الدعوة اكبر من حب الله.. وتتقدم بالتالي قضية الدعوة من الناحية العملية على قضية الالتزام الشرعي والتعبد بحدود الشريعة، وخط الاسلام يذكرنا هذا بالمحاولات التي كانت تبذل من قبل بعض اصحاب الامام (ع) من اجل حمله (ع)، لانتهاج بعض الوسائل والاساليب ليبقى الناس الى صفه، ويتحركوا للجهاد.. وكان جوابه (ع).. انني اعرف ما يصلحهم، ولكن لا اريد اصلاحهم بفساد نفسي..

ان الهدف النهائي في الدعوة.. وكل ما يتصل بها من تخطيط، وجهود هو رضا الله سبحانه.. وان المنبع النفسي الذي نشأت عنه العلاقة

{ ٢٠٢ }

– العاطفية والوجدانية بقضية الاسلام هو العاطفة الربانية والوجدان الديني.. فلا يمكن بحال ان تكون العاطفة الدعوتية في شخصية الانسان المسلم – اركز، واقوى من العاطفة الدينية.. أو العاطفة الالهية بحيث تحكمها وتتمكن منها عند التزاحم والتعارض.

وقد نلاحظ في واقعنا التربوي بعض النماذج التي تعكس الامور، وتجعل قضية الدعوة (هدفاً) وقضية الله (وسيلة) لا بمعنى النفاق، والعياذ بالله.. ولكن بمعنى ان الاصالة النفسية للدعوة والرجحان لها في كثير من موارد التزاحم والتعارض.

وقد تكون الاستقامة السلوكية.. وسيلة للتأثير في الناس، وقد يفسر في هذا الاتجاه وهو، ان لا يملك الهدف الاجتماعي سوى قيمة نفسية اضعف من القيمة النفسية لله تعالى، وفي طولها لا في عرضها – قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون)(٣٦)

فليس في الآية دلالة على النهي عن هداية الناس، وامرهم بالرشاد لان الامر بالمعروف، والعمل في سبيل هداية الناس من شؤون هداية النفس، فالانسان لا يهتدي، الا اذا امتثل اوامر الله بما فيها الامر المتعلق بهداية الناس، والاهتمام بشؤون المسلمين.

{ ٢٠٣ }

وانما تهدف الآية – في ضوء بعض التقادير – الى النهي عن أن ترتبط قلوب العاملين الاسلاميين بالناس، وهدايتهم بحيث تكون هداية الناس هي الاول، والاخير، والشغل الشاغل، والمعبود من دون الله.. انما المؤمن الرسالي حقاً هو ذلك الذي يعبد الله ولا يعبد سواه،

ويهدف بالدرجة الاولى الى هداية نفسه، وعبادة الله. واذا كانت هداية النفس، وعبادة الله تنتهي الى الاهتمام بامور المسلمين، والعودة الى الخير، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر فليس هذا سوى (شأن) من شؤون هداية النفس، وليس له شخصية مستقلة، أو كيان خاص.

٢ – والنقطة الثانية : هي ان لا تخرج العلاقة الوجدانية بالدعوة، والعمل الى مستوى يضر العمل، ولا يخدمه.. فان العواطف الدعوتية قد تدعو الانسان الى تجاوز مصالح العمل والدعوة والاضرار بها.. لان من طبيعة العاطفة أن تكون عمياء.. وانما تكتسب رؤيتها من العقل والانتباه.

والامر كذلك بالنسبة الى الانفعالات.. فقد يؤدي تجمد الدعوة، وتكذيب الناس، وسخريتهم، واعراضهم عن الرسالة الى حدوث شيء من الحزن الهادئ، والألم النفسي البطيء.

وهذا امر طبيعي نتج عن الحد الادنى المعروض من العواطف الرسالية.. ولكن قد يؤدي ذلك الى (الضيق) النفسي، والهلاك، والاحساس بالفشل وهذا معنى مرفوض من وجهة نظر الاسلام التربوية لان مثل الانفعالات التي لا يحتفظ الانسان المسلم معها بالحد الادنى من الانفتاح النفسي الذي تستلزمه الدعوة، ويستلزمه الاستمرار فيها وزيادة

فعاليتها، وتنشيطها، مثل هذه الانفعالات لا تكون في مصلحة العمل، وانما على حسابه، وعلى حساب الدعوة والرسالة خاصة اذا ادى مثل هذا الضيق الى شيء من الحيف، والانحراف والخروج عن الجادة الاسلامية من الزاوية النفسية، والفكرية.

وهذا هو الذي كان الهدي الالهي يحول بينه، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله في اللحظات الحرجة، والايام الصعبة.. ايام التكذيب، والسخرية، والاعراض.. أيام الغربة،

والجفاء، والضيق، والاضطهاد.. فليس المهم ان لا يألم رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحزن على الناس.. ولكن المهم ان لا تتطور هذه الحالة الى معنى لا ينسجم مع النموذج الامثل للشخصية الاسلامية.. كان الهدي الالهي يحول بين هذا المعنى وبين رسول الله وذاك من خلال تذكيره بالله تعالى وتحسيسه بالتصور الرباني للكون، والحياة، وحثه على الممارسات العبادية.. واقامة الصلاة.

(ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك، وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)(٣٧)

(واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، ان اللّه مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون)(٣٨)

(لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزّل عليهم من السماء)(٣٩)

والحال في انفعال الفرح والسرور عند النصر.. كالحال في انفعال الحسرة والألم النفسي والضيق.. عند التكذيب والسخرية والاعراض. فالسرور عند النصر أمر طبيعي ومرغوب ولكن المفروض أن لا يتحول الى فرحة نفسية غامرة تفقد الانسان المسلم توازنه وتنسيه اللّه، وتوهمه امكانية الاعتماد على الذات أو تنسيه نفسه وعيوبها.

(إذا جاء نصر اللّه والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً).

١٠٠ إذ تفيد هذه الآيات أن لحظة النصر.. يحتاج الانسان فيها الى ذكر اللّه، واستغفاره والتوجه الى عيوب النفس حتى لا يطغى أو ينسى.. بل حتى لا تتضررّ قضية الدعوة نتيجة لتمكن النشوة والفرح من قلوب الدعاة.

الغضب الرسالي

إن الغضب الشخصي مرفوض في الخلق الاسلامي.. أما الغضب الرسالي، الغضب لمحارم اللّه إذا انتهكت، ولدين اللّه إذ حُرّف، فأمر يُربّي عليه الاسلام (٤٠) وهو نتيجة طبيعية للقيم الرسالية في الشخصية الاسلامية.. وإذا ما وجدنا أنفسنا أحياناً لا نشعر بالانكار القلبي للمنكر والغضب عليه فهذا ما يعني أن علينا أن نشحذ قوانا الانفعالية وننشئها على الاسلام من جديد.

غير أن هذا الغضب.. الرسالي يجب أن لا يخرج عملياً عن حدود الرسالة

نفسها.. وكثيراً ما لا يكون التصرف الغاضب منسجماً مع مقاييس الرسالة وموافقاً لأحكامها.. والجهاز الحاكم في الشخصية هو العقل الذي يحدد الموقف الذي يستلزمه المنطق الديني، وليس العواطف والانفعالات.

والمؤمن في ميدان العمل يحتاج أكثر من غيره الى ارادة حازمة وشخصية مستقلة عن الاحداث والاثارات، فيجب أن لا يرد إذا جُهل عليه، ولا يثور إذا استثير وانما يكون حكيماً.. متعقلاً باستمرار، وفي كل مجال.

قال ابو جعفر عليه السلام :

(في حكمة آل داود ينبغي للمسلم أن يكون مالكاً لنفسه مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه، فاتقوا اللّه، ولا تذيعوا حديثنا)(٤١)

٠١٠٠ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام :

(كظم الغيظ عن العدو في دولاتهم تقية حزم (الحزم ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة) لمن أخذ به، وتحرر، من التعرض للبلاء في الدنيا، ومعاندة الأعداء في دولاتهم ومحاظتهم في غير تقية ترك أمر اللّه. فجاملوا الناس يُسمن لكم عندهم، ولا تعادوهم فتحملوهم على رقابكم

فتذلوا)(٤٢)

٠١٠٠ وليس كظم الغيظ والغضب عن العدو أمامه فقط وانما في كل أمر تقتضي فيه مصلحة الرسالة الكف ويقتضي فيه الغضب الحركة والاستجابة للاثارات.

هذا وقد سجل اللّه تعالى لنبيه الكريم في القرآن قصة ذي النون (يونس «ع») وأمر بذكرها.

(وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)(٤٣)

٠١٠٠ وخلاصة القصة وما عليها من تعليق كما في (ظلال القرآن لسيد قطب):

«انه أُرسل الى قرية فدعا أهلها الى اللّه فاستعصوا عليه فضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ظاناً أن اللّه لن يُضيّق عليه الأرض، فهي فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه اللّه الى قوم

آخرين. ذلك معنى (فظن أن لن نقدر عليه) وقاده غضبه الجامح وضيقه الخانق الى شاطئ البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها إذا كانت في اللّجة ثقلت وقال ربانها : انه لا بد

من القاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق فساهموا فجاء السهم على يونس فالقوه أو ألقى هو نفسه فالتقمه الحوت مضيقاً عليه أشد التضيق..

«إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدراً بالقوم والقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً ضيق الصدر حرج النفس فأوقعه اللّه في الضيق الذي تهون الى جانبه مضايقات المكذبين.. وأصحاب الدعوات لا بد أن يتحملوا تكاليفها، وان يصبروا على التكذيب بها والايذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس. مرير على النفس حقاً، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بد لمن يكلفون عمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدوا فيها ويعيدوا..

«إن من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لان الناس لا يستجبون لدعوته فيهجر الناس.. انه عمل مريح قد يُفتِّر الغضب ويهدئ الأعصاب ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره.. ولكن ليكظم الغيظ ويمضِ. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون.

«إن الداعية أداة في يد القدرة، واللّه أرعى لدعوته وأحفظ فليؤدِ هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو، والبقية على اللّه والهدى هدى اللّه.

«وان في قضية ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه،

وان في رجعة ذي النون الى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها وان في رحمة اللّه لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات بشرى للمؤمنين «وكذلك ننجي المؤمنين».

هوامش الفصل الثالث

(١) – اعلام الورى للطبرسي ص ٩٧ – ٩٨

(٢) – نهج البلاغة نص رقم / ٤٨ تعليق صبحي الصالح

(٣) – البقرة / ٤٨

(٤) – سورة التوبة / ٢٤

(٥ و٦) – الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٧ – ٣٣٨

(٧) – الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٨ – ٣٨٩

(٨) – اصول الكافي ج ٢ ص ١٢٥ – ١٢٧

(٩) – اصول الكافي ج ٢ موارد متفرقة

(١٠) – سورة الحديد / ١٦

(١١) – الوسائل جهاد النفس باب ١٢ ص ١٦٧ – ١٦٨

(١٢) – الوسائل جهاد النفس باب ١٣

(١٣) – اصول الكافي ج ٢ ص ٦٢

(١٤) – جامع السعادات ج ٣

(١٥) – الوسائل ابواب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باب ١٣

(١٦) – من المناسب هنا ان نشير اولاً الى موقف الاسلام من الحياة الدنيا.. فان للاسلام ثلاثة مواقف من الدنيا موقف نظري، وموقف تشريعي، وموقف اخلاقي، ويتمثل الموقف النظري في اعتبار الحياة الدنيا مرحلة من مراحل الحياة وليست كل الحياة (وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) وفي كونها داراً للفتنة والمسؤولية يؤكد فيها الانسان ذاته واختباره بين الخير والشر (الذي خلق لكم الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً وهو العزيز الغفور) وفي معانيها من مال، وبنين، ونساء.. نعماً الهية تستحق الشكر والحمد والانفتاح النفسي، وفي كون العامل الدنيوي عاملاً رئيسياً محركاً في

التاريخ.. الخ.

واما الموقف التشريعي فيتمثل في السماح ويحث على استغلال الخيرات والنعم الالهية انطلاقاً من مفهوم الخلافة عن الله وفي تنظيم عملية استغلال النعمة بالشكل الذي ينسجم مع مصالح الانسان العامة ودور الانسان كعابدٍ لله تعالى.

ويتمثل الموقف الاخلاقي في محاولة الاسلام تحرير الانسان المسلم من الاهواء والشهوات وحب الدنيا.

وبتقرير آخر لموقف الاسلام من الدنيا : ان للدنيا معاني ثلاثة وللاسلام من كل معنى وموقف.

(١) – الدنيا بمعنى الحياة المحدودة للانسان على وجه الارض وينظر الاسلام اليها على انها مرحلة من مراحل الحياة.. ومخلوقة من اجل الفتنة وتأكيد فعالية الانسان في الارض ونعمة من نعم الله.

(٢) – الدنيا بمعنى الاشياء التي تقع محطاً لاغراض الناس كالمال والبنين والنساء والقناطير المقنطرة وكذلك الاوضاع كالامن، والراحة، وما شاكل ذلك وهذه معان يؤمنها التشريع الاسلامي للانسان ويشجعه على تناولها والسعي لها، وان كان يقوم بعملية تنظيم تشريعية من اجل تحديد هذا السعي وتنظيمه.

(٣) – الدنيا بمعنى الاهواء الباطلة وكل هوى غير رسالي وهذه الدنيا التي تحاول (الاخلاق) الاسلامية تطهير وجدان المسلم وتأمره بالاعراض عنها.

(١٧) – الوسائل جهاد النفس باب ٦٥ ص ٣١٩

(١٨) – اصول الكافي ج ٢ ص ٣٢٠

(١٩) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢١٥

(٢٠) – الوسائل جهاد النفس باب ٦٢ ص ٣١٣

(٢١) – سورة الحديد / ٢٣

(٢٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٢ – ٤٢٣

(٢٣) – تحف العقول ص ٢٧٥

(٢٤) – سورة الحديد / ٢٨

(٢٥) – الوسائل مقدمات التجارة باب ٨

(٢٦) – الوسائل مقدمات التجارة باب ٧

(٢٧) – اصول الكافي ج ٢ ص ١٣٨

(٢٨) – الوسائل مقدمات التجارة باب ١٣

(٢٩) – سورة الفجر ٢٧ – ٣٠

(٣٠) – الفرقان / ٦٣

(٣١) – سورة التوبة / ١٢٠

(٣٢) – سورة البقرة / ١٥٤

(٣٣) – المعارج ١٩ – ٢١

(٣٤) – اصول الكافي ج ٢ ص ٣٠٤ – ٣٠٥

(٣٥) – اصول الكافي ج ١ ص ٣٣٣ – ٣٣٤

(٣٦) – سورة المائدة / ١٠٥

(٣٧) – سورة الحجر / ٩٧

(٣٨) – سورة النحل ١٢٧ – ١٢٨

(٣٩) – سورة الشعراء / ٣

(٤٠) – في الخبر عن ابي عبد الله (ع) : (ان الله بعث ملكين الى اهل مدينة ليقلباها على اهلها، فلما انتهيا الى المدينة، وجدا فيها رجلاً يدعو، ويتضرع.. الى ان قال : فعاد احدهما

الى الله فقال : يا رب اني انتهيت الى المدينة، فوجدت عبدك فلاناً يدعوك، ويتضرع اليك، فقال امض كما امرتك به فان ذا رجل لم يتمعر – أي يبدي – وجهه غيظاً لي قط : (الوسائل ابواب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٦).

وعن ابي جعفر (ع) اوحى الله الى شعيب النبي (ع) (اني معذب من قومك مئة الف : اربعين الفاً من شرارهم وستين الفاً من خيارهم فقال يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الاخيار ؟ فاوحى الله عز وجل اليه : داهنوا اهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي (الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٨).

وعن علي بن الحسين (ع) (قال : قال موسى بن عمران : يا رب من اولئك الذين تظلهم في ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك ؟ فاوحى الله اليه، الطاهرة قلوبهم والبرية ايديهم الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم الى ان قال : (والذين يغضبون لمحارمي اذا استحلت مثل النمر اذا جرح (الوسائل كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٨)

(٤١) – الوسائل ابواب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٣٤

(٤٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ١١٩

(٤٣) – الانبياء

الفصل الرابع : العبودية (الإرادة الحازمة والعمل الخالص)

{ ٢١٣ }

الارادة الربانية محور مركزي في الشخصية الاسلامية :

قد نطلق كلمة (الارادة) ونقصد بها الاختيار، وإعمال القدرة في ترجيح جانب الفعل او جانب الترك، فنقول : ان فلاناً اراد كذا، ولم يرد كذا.. وقد نطلق كلمة (الارادة) ونريد بها الشوق الى الفعل، أو بعضه بالنسبة الى تركه فيقول الاصولي، ان منا مبادئ الحكم.. الملاك والارادة.. وقد نطلقها ونريد بها الجهاز الحاكم في الشخصية الذي يسيطر على رغبات النفس، فيمنع من بعض الافعال، ويلزم بالبعض الآخر.. ومن هنا يقال : ان ارادة فلان ضعيفة بمعنى، انه منساق مع رغباته، وليس لديه القدرة على التحكم فيها، وارادة فلان قوية بمعنى أن لديه قدرة كافية على التحكم في الاهواء، والرغبات الشائعة الآنية.. وهذا هو المقصود.

ويتلخص هذا الجانب في شخصية الانسان المسلم في (حلول الارادة الربانية محل الارادة الشخصية) بحيث تكون ارادة المسلم، وجهازه الحاكم في شخصيته ممتثلاً لارادة الله تعالى الارادة التشريعية بالطبع(١) ومنسجماً معها ولهذه الارادة التي تشكل العنصر الثالث البارز في الشخصية الاسلامية – مضافاً الى عنصري الايمان، والحب – حيثيات، وجهات ثلاث :

١ – القدرة على التحكم في الاهواء، والشهوات، والسيطرة عليها، ومخالفتها، والارادة من هذه الجهة تسمى ب(الصبر) .

{ ٢١٤ }

(الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد، واذا ذهب الصبر ذهب الايمان)

٢ – انسجام هذه الارادة، وتوافقها مع الارادة الربانية التشريعية.. وتسمى الارادة بهذا اللحاظ ب(الطاعة) أو (الالتزام).

(تلك حدود اللّه ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار، خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم، ومن يعص اللّه ورسوله، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)(النساء / ١٤)

(وما كان لمؤمن أو مؤمنة اذا قضى اللّه ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة)

٣ – انبعاث الارادة الشخصية عن الارادة الالهية أو عن دافع ديني عام وهذا هو (الاخلاص).

(وما امروا الا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين حنفاء).

وسندرس هذه الجوانب الثلاثة إن شاء الله.. وندرس معها ايضاً.. قضية (التعقل) في السلوك بوصفه بعداً آخر للارادة المسلمة.. وقضية

(التوكل) بصفة عملية تعزيز لارادة المواجهة والاقدام في شخصية المسلم.

والشخصية الاسلامية.. باعتبار تمكن الارادة الربانية فيها.. تخرج في سلوكها، ومواقفها من دائرة السلوك الفطري الشهوي الى دائرة السلوك الهادف، والملتزم.. ومن دائرة السلوك الفوضوي المزدوج الى النظام، والوحدة والتماسك.. ومن دائرة السلوك الاناني الذاتي.. الى دائرة السلوك الغيري، الاخلاقي..

وبهذا يتجلى الفرق من هذه الناحية بين الشخصية العادية، وتصرفاتها الجاهلية التي لم يتمكن فيها الايمان الجاهلي.

ولم يدخل الايمان في وجدانها، وقلبها، وبين الشخصية الاسلامية.

(*) الشخصية الجاهلية تعيش على شهواتها، وغرائزها الفطرية المصاغة بصيغة اجتماعية مادية.. وبهذا تكون لديها الغرائز (طاقة) و(دافعاً) و(غاية) اما في الشخصية الاسلامية فالغرائز لا تكون في العموم سوى طاقة نفسية، ولكنها طاقة تستخدم في غايات اسمى ولخدمة هدف اخلاقي معين، وانسجاماً مع خط رسالي خاص وهذا معنى خروج الشخصية الاسلامية من دائرة الفطرية والشهوة الى دائرة الالتزام والهدفية.

(*) والانسان له شهوات متعددة، وغرائز مختلفة وميول متباينة – نابعة من الغرائز، والشهوات الفطرية والشخصية الجاهلية لا تملك (المحور المركزي) والقيادة المركزية التي تنسق بين هذه الشهوات، والغرائز، والميول وبذلك فهي تعاني من الفوضى والتعدد، والازدواج والاضطراب

النفسي.. اما الشخصية الاسلامية فهي على العكس، تمتلك هذا المحور المركزي، متمثلاً في الارادة الربانية، والحس الاخلاقي المتعلق بالله تعالى، وهي بذلك تحقق (وحدة) الشخصية، وانسجام طاقاتها، وتلاحمها لخدمة هدف معين.. وهذا معنى خروج الشخصية الاسلامية من دائرة السلوك الفوضوي المزدوج الى النظام، والوحدة والتماسك الذاتي.

(*) – والشخصية الجاهلية – التي تنتمي الى الحضارة الجاهلية في أي وقت، واي مكان – شخصية انانية لا تعمل لسوى ذاتها، ولا تخدم غير اغراضها الشخصية والشخصية

الاسلامية شخصية اخلاقية تسعى الى مثل اخلاقي اعلى يحقق للمجتمع مصلحته في الوقت الذي يحقق فيه للفرد مصالحه الشخصية.

«الشخصية الإسلامية والشخصية المزدوجة»

اذن فالشخصية الاسلامية هي التي تشكل الارادة الربانية فيها المحور المركزي، والجهاز الحاكم الذي ينظم لها عملياتها السلوكية، ومواقفها في الحياة.. وتصرفاته الخاصة في الاسرة والمجتمع..

ولا توجد ارادة اخرى تفوق، او تساوي، او تقارب هذه الارادة الربانية فيها.. وفي مقابل ذلك نجد في واقعنا.. ما يمكن تسميته ب(الشخصية المزدوجة) من الناحية الدينية.. والازدواج في الشخصية من الناحية الدينية هو، تشتت قواها، واتجاه الدوافع المتقاربة في القوة الى

العمل في اتجاهات متعاكسة، أو هو بكلمة، عدم تمكن (الارادة الربانية) من السيطرة الكاملة على الشخصية.. والتحكم الكامل في قواها، ودوافعها.. ونلاحظ عند بعض الناس المسلمين انهم يعملون الخيرات ويخلصون للّه تعالى.. واحياناً كثيرة مساوية أو مقاربة يعملون لذواتهم، ومراكزهم، وجاههم حتى لو خالفوا بذلك ارادة الله عز وجل.

والازدواج على قسمين :

١) – الازدواج الفكري.. وهو الصدور فكرياً عن منابع ثقافية مختلفة ورؤى مذهبية متناقضة، فتراه مرة يفكر بطريقة الاسلام في التفكير، ويتحدث بلغته، ويتبنى مفاهيمه واخرى يفكر بطريقة التفكير الغربي، ويتبنى الكثير من مفاهيم الحضارة الغربية، وقيمها مع تغليفها

بالغلاف الاسلامي وهو لا يشعر بذلك.. وسنتناول هذا النحو من الازدواج في الجزء الثاني ان شاء اللّه تعالى.

٢) – الازدواج النفسي والسلوكي.. وهو وجود عوامل، ودوافع نفسية متناقضة الاتجاه متقاربة المستوى والدرجة، بحيث لم يتضاءل احدها مقابل الآخر، فهو صاحب مركز يفكر، ويسعى إلى تكوين مركز اجتماعي، أو ثقافي مرموق ويحب الظهور في هذا المجال، وذاك.. وصاحب دين يخشى الله، ويعمل له.. وهذا الازدواج ما يمكن ان نسميه بالشرك في العبادة، لان هذا الانسان له معبودان.. احدهما الله والآخر هو الهوى.. ومن الممكن ان نسمي الازدواج الاول ب(الشرك الثقافي) ونعمم هذين الشركين الى الشرك في الذات (الايمان بتعدد الآلهة) والشرك في الصفات

(الايمان بمفارقة الصفات الالهية للذات المقدسة).

الازدواج، والنفاق

والفرق على هذا الاساس بين الازدواج، والنفاق واضح وذلك لان المنافق ليس مزدوج الشخصية بين الكفر والاسلام لا من جهة عقائدية، ولا من جهة ثقافية، ولا من جهة نفسية سلوكية.. وانما هو كافر خالص يعلن ايمانه زوراً ومنافاة.

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤون)(٢)

(اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول اللّه واللّه يعلم انك لرسوله، واللّه يشهد ان المنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنة)(٣)

واما الانسان المزدوج فهذا الذي تعيش في نفسه قوى متصارعة ليس لاحدها الغلبة على الاخرى.. هو هذا الانسان، الذي ساعة لربه، واخرى لقلبه، ويمارس في الساعة التي لقلبه الواناً من الفجور، والمحارم والشبهات.. هو هذا الانسان ذو العاطفة الدينية التي تستنفر في لحظات خاصة.

الازدواج الصريح والازدواج الخفي

وفي حياتنا الدينية نجد ازدواجاً صريحاً كالذي ذكرناه يعترف فيه

الانسان بأن هذا شيء يختلف عن ذاك، وانه مرة يعمل لدينه، وأخرى يعمل لشياطينه.. ويمكن للانسان من الخارج ان يكتشفه، ويحكم عليه.. والى جانب هذا، هناك ازدواج آخر.. ازدواج خفي.. يظهر فيه الانسان متديناً في كل شيء.. وهو في حقيقة امره منشطر الذات الى شخصيتين شخصية متدينة، واخرى منحرفة.. ويتم هذا عن طريق ارضاء كل من الجانب الشخصي الذاتي والجانب الديني، والتوفيق الشكلي المظهري فيما بينهما.

لنأخذ على ذلك مثلاً..

ناس متقاعسون كالذين ذكروا في الرواية عن أبي جعفر (ع) : (يكون في آخر الزمان قوم ينبع فيهم قوم مراؤون.. ولو أضرت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم، وأبدانهم لرفضوها، كما رفضوا اسمى الفرائض، واشرفها (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) هم هؤلاء أن

يحافظوا على دينهم في الاطار الذي يحفظ اموالهم، وانفسهم، واذا خرج الامر عن هذه الحدود لم يلزموا انفسهم بعد بالدين.. ولكن كيف ترى يترك هؤلاء واجب الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر ؟! هل يتركونه مع اعلانهم بأن هذه ساعة من ساعات القلب وللرب ساعات اخرى ؟! ابداً.. انما يقومون بعملية تبرير.. اما عن طريق تحريف احكام الله، وتشويه نظرية الاسلام في ميدان من أهم ميادينه، وأشرف فرائضه.. أو عن طريق تحريف الواقع، وتقديم (الاعذار).. (وسائل – ابواب الامر وانلهى – ب ١٠)

ومثال آخر..

هذا الذي يظهر بمظهر ديني.. ويخفي في ذاته ما الله مبديه من حب المال، والمركز والجاه.. ماذا تراه يصنع عندما (يجمع) من اموال الله تعالى، وحقوق الامة من أجل ان يبني المسكن الواسع، ويقتني الدابة الفارهة، أو عندما يسعى لتأكيد ذاته، والظهور من اجل الظهور ؟! ان ما يقدمه في هذا الميدان، هو ان المسكن ضروري للخدمة والدابة الفارهة تحفظ حرمته، ومكانته، لا باعتباره الشخصي وانما (باعتباره النوعي) وتأكيد شخصيته انما هو من اجل تأكيد أفكاره الدينية.. الى آخر ما يلقي الشيطان في روعه من التبريرات والتزييفات اعاذنا الله تعالى من كل ذلك.

فعن طريق الخداع، خداع الذات والتبرير يستطيع ان يقضي هذا الانسان على الصراع النفسي بين قوتين نفسيتين، ودافعين متقاربين في درجة التأصل في النفس اذ تتحايل احدى القوتين، وهي هنا القوة الشهوية على القوة الاخرى، وتحقق له راحة التوافق، والانسجام الداخلي وتجنبه آلام الصراع والتناحر الذاتي.

كيف تتحقق الحاكمية العامة للارادة الربانية ؟

تكوّن الجهاز المركزي الحاكم في الشخصية الاسلامية وهو الجهاز المؤلف من الصبر، والطاعة، والاخلاص. أي من الارادة الربانية، يتم عندما يتحقق الشرطان التاليان :

(١) – قوة الدافع الديني في الشخصية.. وكونه اقوى الدوافع واصلها في النفس، والدافع الديني هو العواطف، والاحاسيس الدينية في النفس كحب الله، وخوفه، ورجائه والتطلع الى ثوابه الجزيل.. والمحاسبة

الاخلاقية الحاكمة بوجوب طاعة الله في النفس.. وهكذا.

(٢) – الوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس، واساليبها في الدفاع، والخداع.. وليس يكفي لحكومة الدين على شخصية الانسان ان يكون اقوى الدوافع، واثبتها في النفس، لان من الممكن مع هذا، أن يؤثر دافع دنيوي شهوي تأثيراً بالغاً في النفس حتى على حساب الدين، ولكن من خلال خداع الضمير الديني.. وخداع النفس.

الالتزام العملي بخط الإسلام في الحياة (الطاعة)

نأخذ الارادة الربانية في شخصية الانسان المسلم من المظهر الخارجي.. وهو الاستقامة السلوكية على خط الاسلام في الحياة.. وموافقة الشريعة.. وعدم مخالفتها في واجب، أو حرام كحد ادنى.. ثم البناء على اداء المستحبات، واجتناب المكروهات كحد أعلى للسلوك، ويسمى هذا ب(الطاعة) و(الالتزام) أو (الاستقامة).

١) – والطاعة لله تعالى في احكامه الالزامية.. واجبة بحكم العقول التي تقرر ان الله تعالى بحكم كونه خالقاً للانسان مُوجِداً له منعماً عليه، له حق الطاعة على عباده.. وحق الانسجام مع شريعته اوامر، ونواه. وتحكيمها في السلوك.

(يا أيها الناس اعبدوا رَبكم الذي خلقَكم والذين من قبلكم)(٤)

فالطاعة لله تعالى – بالاستقامة على خط رسالته ودينه.. ومتابعة اوامره

ونواهيه – عمل اخلاقي يقوم على اساس هذا الحق، الذي يدركه العقل ببداهته، وسجيته.

٢) – وطاعة الله تعالى هي الاساس السلوكي الذي يرجو به الانسان غداً – في اليوم الآخر – التخلص من العقاب، وتحصيل الاجر الالهي بخلاف المعصية التي هي تعدٍ لحدود اللّه وطريق لدخول اللّه.

(تلكَ حدُودُ اللّه، ومَن يُطِع اللهَ ورسُولَهُ يُدخِلهُ جنّات تجري من تحتها الانهارُ خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم ومن يعص اللّه، ورسوله، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها، وله عذابُ مهينُ)(٥)

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ اذا قضى اللّه ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مُبيناً)(٦)

(ومن يطع اللّه، ورسوله، ويخشَ اللّه ويتّقّه فأولئك هُم الفائزوُن)(٧)

٣) – والطاعة.. أو الالتزام بالخط العملي للاسلام في الحياة يعتبر جزءاً ضرورياً متمماً للشخصية الاسلامية، فلا يمكن ان تكون الشخصية الاسلامية كاملة من دون الطاعة، والالتزام الجدي بخط الله.. بل لا يمكن ان تكمل العناصر الاخرى من دون الطاعة، وذلك لان للمعاصي آثاراً

سلبية كبيرة في النفس، والقلب، حتى لتكاد تمسخه مسخاً.. ان الانسان، وحدة متكاملة يؤثر بعضها على بعض، وجهاز موحد تتناول اجزاؤه التأثير، والعمل.

يقول الله تعالى :

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)(٨)

عن ابي عبد الله (ع) :

(كان ابي يقول : ما من شيء افسد للقلب من خطيئة. ان القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير اعلاه اسفله) (وسائل، جهاد النفس ب ٤)

وعن ابي عبد الله (ع) في خبر معتبر :

(اذا أذنب الرجل خرجت في قلبه نقطة سوداء، فان تاب انمحت، وان زاد، زادت حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً) (الموضع نفسه)

وعنه (ع) :

(ان الرجل يذنب الذنب فيحرم من

صلاة الليل، وان العمل السيّئ اسرع في صاحبه من السكين في اللحم)

والنصوص التي تدل على ان الشخصية الاسلامية متكاملة الاجزاء، والاطراف، لا يكفي فيها الفكر وحده، والاخلاق وحدها ولا الطاعة.. وانما يشترط فيها الطاعة الى جانب الفكر، والجهاد، والاخلاق.. كثيرة..

عن أمير المؤمنين (ع) :

(ان الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو العمل، والعمل هو الاداء..)

وعن الصادق (ع) بعد ان سئل عن، ان العمل من الايمان قال :

(نعم، الايمان لا يكون الا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الايمان الا بعمل).

وعنه (ع) في خبر :

(فاذا اتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي، أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عز وجل عنها كان خارجاً من الايمان، ساقطاً عن اسم الايمان)

(راجع أصول الكافي الأبواب الاولى من كتاب الايمان والكفر)

٤) – والاستقامة على خط الاسلام، شرط اساسي لمجموعة من الممارسات المتقدمة في الحياة الاسلامية سوى العدول أي المستقيمين سلوكياً على خط الاسلام بنحو تكون الاستقامة طبعاً لهم، وملكة متمكنة في نفوسهم.

فلا يجوز تقليد غير العادل، فان المرجعية الدينية مشروطة بالاستقامة، كما نقل عليه اجماع الفقهاء.. وعن الامام العسكري (ع) :

(وكذلك عوامنا اذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، – والعصبية الشديدة، والتكالب على الدنيا، وحرامها فمن قلد هؤلاء فهو متل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم. فاما من كان من الفقهاء، صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لامر مولاه فللعوام ان يقلدوه)

(الوسائل – صفات القاضي – ب ١٠)

وكذلك قال بعضهم، انه لا يجوز للعاصي الافتاء أو التصدي لهذا المقام الخطير، وكذلك تجب العدالة والاستقامة في القاضي، وامام الجماعة، والشهادة، وموارد اخرى.

وليست هذه الاحتياطات من الاسلام من اجل الاحتياط على هذه الوظائف الخطيرة في الحياة الاجتماعية، وانما هي من جهة اخرى تركيزاً لقيمة الاستقامة، والتقوى في الحياة الاسلامية.

٥) – وقد اكد الاسلام تأكيداً بالغاً على من نصب نفسه للناس هادياً، واماماً أن يلتزم بما يقول، ويعلم نفسه قبل تعليم غيره (بنحو شمول المسؤولية، لا تقييدها بالمطيعين والملتزمين فقط).

وعن الامام علي (ع) :

(من نصب نفسه للناس اماماً فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)

(الوسائل – الامر والنهي ب ١٠)

وعن ابي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته له :

(يا ابا ذر يطلع قوم من اهل الجنة الى قوم من اهل النار، فيقولون : ما ادخلكم النار وانما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم، وتأديبكم، فيقولون انا كنا نأمركم بالخير، ولا نفعله)

وعن ابي عبد الله (ع) :

(كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير، فان ذلك داعية)

٦) – هذا ويعتبر اعداد الشخصية الاسلامية المتورعة الملتزمة بالخط الاسلامي في الحياة احد اهداف عمل الائمة (ع)،

عن ابي عبد الله (ع) :

(ليس منا، ولا كرامة من كان في مصر فيه مائة الف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر احد اورع منه)

وعنه ايضاً :

(انا لا نعد الرجل مؤمناً حتى يكون بجميع امرنا متبعاً مريداً الا وان من اتباع امرنا وارادته الورع فتزينوا به يرحمكم الله وكيدوا اعدائنا ينعشكم الله)

الاستقامة والفكر التبريري

عرفنا ان الاستقامة من صلب الايمان، وانها شرط اساسي في الشخصية الاسلامية.. وهذا امر واضح من خلال الكتاب الكريم والسنة المطهرة.. وطبيعة الرسالات السماوية لم تتنزل لتصحيح الاعتقادات فقط، وانما لبناء الانسان وتغيير السلوك، واختطاط نهج خاص للسلوك الفردي والاجتماعي في حياة الانسان، والتركيز على مجموعة من القيم الاخلاقية.

ويعبّر ذلك عن مشروع رباني لصياغة انسان جديد، انسان رباني في فكره وروحه وقيمه النفسية وفي سلوكه الشخصي، وتعامله مع الناس. والصعود بالانسان الى مستوى بنائي متميز، وشخصية فريدة تمشي بين

الناس بنور الهدى الالهي.. وعلى السبيل الذي حدده الله لهذا الانسان..

ومن الواضح ان هذا المشروع التغييري الذي تبنته رسالات السماء لم يفرض على الانسان فرض الجاء، والا لاهتدى الناس جميعاً.. وانما اريد له أن يتم من خلال الانسان، وفعاليته، وارادته.. وان كان برعاية الله، وهداية الله. ومن الواضح الى جانب ذلك ان للانسان اهواءه، وشهواته، وميوله النفسية التي تتعارض مع الصيغة الربانية المقترحة.. وأنه ليس من السهل للانسان ان ينسجم مع هذه الصيغة الا من خلال الصبر، والمعاناة، والمجاهدة النفسية، وترويض النفس.

وكان الناس امام هذا المشروع التغييري الجبار القائم في الاساس على عبودية الله، وتحرير النفس من الاهواء والالتزام بالعدل، والمصالح النوعية للناس على ثلاثة اصناف : صنف رفض الايمان، والالتزام المبدئي بالرسالات السماوية وركن الى مجاميع متعددة من تسويلات الشيطان، وخدعه.. وصنف ثان رحب بالصيغة الربانية، وآمن بها، وتعاطف معها والتزم بها التزاماً جدياً، وتصاعد بها الى المستوى الانساني المطلوب، والشكل الرباني المقترح للانسان.. واكثر الناس آمنوا بالانبياء، ورسالاتهم، وعاشوهم في جزء، وآخر من شخصياتهم.. الا انهم لم يرتفعوا بها، ولم يتصاعدوا من خلالها، ولم يلتزموا بها الالتزام الضروري المطلوب.. لان الانسان بشكل عام، ليس مستعداً ان يجاهد الجهاد الاكبر ويعاني باستمرار في سبيل الطاعة، والالتزام، ويتوافق، ولو على حساب ميوله، واهوائه مع ارادة الله.

والناس هؤلاء يعيش الايمان في ذواتهم، وينبض ضميرهم الديني

بالحركة، ويدعوهم باستمرار الى العمل، والانسجام مع الدين ومن هنا ينشأ صراع داخلي بين القوى الدينية في النفس، القوى الخيرة التي تدعو الى التعالي الاخلاقي والالتزام الديني، وبين القوى الشهوية، والاهواء، والميول الشخصية من جنس، وعدوان، وامن الخ. وهو صراع – ككل صراع نفسي – بغيض للنفس البشرية تحاول بشتى الاساليب ان تتخلص منه، وان تجد له (حلاً).. تتوافق به القوى النفسية، وتنسجم في عملها، واتجاهاتها.

والفكر التبريري هو ابسط الاساليب، واشملها في حل الصراعات الداخلية بين القوى الاخلاقية، والقوى الغريزية الشهوية، والميول، والاهواء.. ومن هنا يحاول الانسان دائماً ان يخدع ضميره الاخلاقي، ليمارس شهواته واهواءه براحة بال..

والمعنى السائد في الفكر التبريري، الذي يحاول التغطية على الانحراف، والتوفيق بين الاوضاع المنحرفة المائعة، وبين الدين هو (تغيير الرسالة)، وتحريفها لتنسجم مع واقع الانحراف، والانحلال.. ومن خلال الفكر التبريري هذا يغير الانسان الرسالة السماوية، ويحرفها، بدلاً عن ان يتغير بها.. ويشوهها.. وينزل بها الى واقعه، بدلاً عن ان يصعد بها ويتنمّى.

ونستعرض هنا ألواناً من الفكر التبريري لتغطية الانحراف.. والخروج عن الاستقامة الشرعية، وطاعة الله سبحانه.. مستخلصة من واقع الحياة الدينية للمسلم المعاصر.

أ) – تحوّل الولاء الى أداة تبرير :

كان التشيع.. في ايامه الاولى رسالة تغييرية، واصلاحية كبرى في جسم العالم الاسلامي تستهدف الالتزام المر بقيم هذا الدين، والقضاء على كل التميعات، والانحرافات التي تولدت في المجتمع الاسلامي نتيجة لاختلاط الحضارات، وفقدان القادة المبدئيين، وكان التشيع حركة وعي ملتزمة.. متمحورة حول قيادات اسلامية نقية تشع على اتباعها التعبد، والزهد، والقيم، والالتزام.. (وما كانوا «الشيعة» يعرفون يا جابر الا بالتواضع، والتخشع، والامانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء، وأهل المسكنة، والغارمين، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الالسن عن الناس الا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الاشياء)(٩).

(ان شيعة علي كانوا خمص البطون، ذبل الشفاه، اهل رأفة، وعلم، وحلم، يعرفون بالرهبانية)(١٠)

والذي يبدو انه حدث تغير اجتماعي في هذا الاتجاه زمن الامام الباقر (ع).. او بدأ واضحاً في ذلك الوقت.. اذ تكونت في الذهنية الشيعية مفاهيم، وافكار تبريرية تغطي على الانحراف، وتستوعبه.. كمفهوم الشفاعة في صيغته المحرفة، ومفهوم انه لا معصية مع حب اهل البيت (ع).. وقد يكون ذلك نتيجة للانعطاف الجماهيري على التشيع بعد مقتل الحسين (ع).. ونتيجة لظهور التيارات الغالية في الصف الشيعي..

وسوء فهم كلمات اهل البيت الواردة في تأثير منزلتهم.. ولا زالت هذه الافكار تعيش في ذهن الانسان المسلم الى اليوم تكرس من بعده عن الشريعة وتحلله من الالتزامات الدينية.

وقد واجه الائمة (ع) هذا التيار الذي يحاول تحريف التشيع، وتحويله من نقائه، وصفائه، واصالته الاسلامية والتزاماته الحدية، الى فكر يقدم التنازلات تلو التنازلات لواقع الانحراف، وسلوك التحلل، والتميع. ما امامي من نصوص عنهم (ع) في شجب هذه الظاهرة اكثرها عن الامام الباقر (ع) وهو امر قد تكون له دلالته التاريخية، عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (ع) قال :

(لا تذهب بكم المذاهب فواللّه ما شيعتنا الا من أطاع اللّه عز وجل)

وعن جابر عن ابي جعفر (ع) قال لي :

(يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع، ان يقول بحبنا اهل البيت، فوالله ما شيعتنا الا من اتقى الله، واطاعه.. يا جابر لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل ان يقول : احب علياً، واتولاه ثم لا يكونن مع ذلك فعالاً، فلو قال اني احب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من علي (ع)، ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته

ما نفعه حبه اياه شيئاً فاتقوا الله، واعلموا لما عن الله، ليس بين الله وبين احد قرابة، احب العباد الى الله عز وجل (واكرمهم عليه) اتقاهم، واعملهم بطاعته.. ومن كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما ننال ولايتنا الا بالعمل، والورع)

وهكذا فان (الحب) لاهل البيت (ع) وتوليهم ليس تعويضاً، أو بديلاً عن الطاعة، والالتزام – كما تفهمه الاجيال المتخلفة – وانما هو طريق اليها، وتأكيد عليها من خلال تجسيد القدوة الحية.. والقيادة المعصومة، والايمان بها ومتابعتها، والاقتداء بها.

(الا وان لكل مأموم اماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طمعه بقرصيه، الا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن اعينوني بورع، واجتهاد، وعفة، وسداد)

ب) – الفهم الاجتماعي والسياسي للدين :

والاسلام كما نعرف رسالة شاملة.. فيها التعاليم الاجتماعية الى جانب النظام السياسي والنظام الاقتصادي والتربوي.. الخ. ولكن في

جوهره، وروحه استسلام لله تعالى، وعبودية كاملة له.

(ان الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين)

والانسان المسلم هو الانسان الذي يلتزم باحكام الله، ويتورع عن محارمه.. مهما بدت، وفي أي مجال شرعت من مجالات الحياة.. غير ان الكثيرين ممن يعيشون في هذا العصر – ومن اجل التوفيق بين انتمائهم التقليدي للدين من جهة، وبين التسيب السلوكي عندهم وتأثرهم

بالمضمون الحضاري الغربي – يفهمون جوهر الاسلام في مجموعة من التعاليم الاجتماعية، والاخلاقية، وفي الالتزام السياسي بقضيته، واما الجوانب الفردية فهي موضع اهمال وتجاوز، لانها لا تتناسب مع السياق العام، الذي يبدو لهم الاسلام فيه.. وهؤلاء – في واقع الامر – يأخذون من الاسلام.. ولا يأخذون بالاسلام منهجاً كاملاً للحياة.. ان الاسلام في جوهره فتنة لهذا الانسان، واختبار لحس العبودية لله عنده، ووسيلة لاظهار المضمون الاخلاقي الديني في شخصيته.. وهو لهذا شامل التشريع، واسع المجالات، فيه التعليم الاجتماعي الى جانب النهج السياسي، والنهج التربوي الروحي، والنظام الاخلاقي، والاحكام التي لا نعرف لها سراً، ولا حكمة.. والاحكام التي اريد بها اختبارنا، وفتنتنا.. ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة. ونحن ملزمون في كل ذلك محاسبون عليه مسؤولون عنه.

فليس الاسلام، اذن جمعية سياسية لا تجد فيها سوى الفكر

الاجتماعي السياسي، والالتزامات السياسية والتنظيمية، وانما هو اولاً (دين) وعبودية خالصة لله.. وهو بعد ذلك كل شيء.. سياسة، واقتصاد، واجتماع، وتربية.. و.. والمنطق الاساسي للتربية، والبناء هو الالتزام بكل شيء في هذا الدين عرفنا حكمته، أو جهلناها. وسبحان الله.. قال الانسان للانسان : نفذ ثم ناقش، وقبل منه ذلك عن طواعية، واختيار.. وقال الله للانسان لا تأكل من هذه الشجرة وقدم له حيثيات الامر، والحكم ولكنه ناقش، وتفلسف، وعصى.. فخرج من الجنة، يعيش الهموم، والآلام.. وهذه عبرة من عبر قصة آدم (ع)..

ج) – الجبر والارجاء :

مذهب الجبر، هو المذهب القائل بان الفعل الانساني في مجال الطاعة والمعصية وغيرهما هو – في حقيقته – فعل الله تعالى الواقع بمشيئة الازلية.. واما العبد فلا اختيار له.. أو اذا كان له اختيار، وقدرة فليس الفعل صادراً عنه.. وللجبر صورة علمية.. وانصار باحثون.. وله صورة شعبية ايضاً نجد انها تعيش في واقعنا المعاصر، كما عاشت في العصر الجاهلي.

(وقال الذين أشركوا لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء)(١١)

(وسيقول الذين أشركوا لو شاء اللّه ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم)(١٢)

والارجاء، هو المذهب الذي مات امام ضغوطات الفكر الحق.. ولكنه لا يزال يعيش في الوسط الشعبي.. ويؤكد على ان القيمة الحقيقية للايمان، وتقوى القلوب، وأن الاعمال الظاهرية لا يحاسب الله عليها، وليس لها قيمة من وجهة النظر الدينية..

هذان الاتجاهان التبريريان – الجبر، والارجاء – يرجعان من الناحية التاريخية – حسب بعض التقديرات – الى الحاكم الاموي (معاوية)، الذي حاول ان يكرس الانحراف ويبرر الفسق، والفجور، والخروج عن حدود الشرع، ودائرة الدين من خلال وضع الاحاديث من جهة.. والترويج للافكار التبريرية كالفكرتين السابقتين..

د) – التشكيك بالحكم الشرعي، واستصغار الذنب :

وبعض الناس يرتكبون الذنوب، ويقترفون السيئات والمعاصي.. ويبررون ذلك عن طريق انكار الحكم الشرعي الذي خالفوه لانهم لا يجدونه في القرآن الكريم، ومسموعاتهم عن السنة..

ومن الواضح أن الانسان الاعتيادي لا يتاح له أن يبت بانكار هذا الحكم، وذاك، واثبات هذا، وذاك.. لان مثل هذا الاثبات، وذاك النفي يحتاجان الى خبرة طويلة، ومعايشة مستمرة للقرآن الكريم، والسنة المطهرة، وتاريخ الرسول صلى الله عليه وآله والائمة (ع)، وتدبر مستغرق فيها، وتخصص وتفرغ.. وليس من حق الانسان أن يتسرع في اثبات الحكم، ونفيه، فانه بذلك يضيف ذنباً الى ذنبه وخطيئة الى خطيئته.

(وان اسوأهم (اصحابي) عندي حالاً

{ ٢٣٦ }

وامقتهم الذي اذا سمع الحديث ينسب الينا ويروى عنا فلم يقبله اشمأز منه، وجحده، وكفر من دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، والينا اسند، فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا)

هكذا قال الامام الصادق (ع).

والانسان الذي لا خبرة له في مجال البحث الاصولي والفقهي والرجالي وسائر المجالات، التي تتصل بالتفقه بالدين، والتعرف على الشريعة، يجب عليه ان يرجع الى اهل الخبرة – والرجوع الى اهل الخبرة مبدأ عقلاني اقره الاسلام في كثير من المجالات –.

(فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)

(ومن كان من الفقهاء حافظاً لدينه صائناً لنفسه مخالفاً لهواه مطيعاً لامر مولاه فللعوام ان يقلّدوه)

واحتقار الذنوب، واستصغارها من الترضيات النفسية للمخالفة، ولكنه هو الآخر مما يزيد الذنب ذنباً، والخطيئة خطيئة فعن سماعة عن ابي الحسن (ع) يقول :

(لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلوا قليل

الذنوب فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر تعطوا من انفسكم النصف)

(اشد الذنوب، ما استهان به صاحبه)(١٣)

الصبر

الوجه الآخر للارادة الربانية في شخصية المسلم هو الصبر. فانت عندما تقيس الارادة الربانية من حيث نتائجها العملية الى الشريعة.. تكون بذلك طاعة، والتزاماً، وعندما تنظر اليها باعتبار مواجهتها للاهواء النفسية، ودوافع الانحراف، والتثبيط تكون صبراً. وعندما تنظر اليها باعتبار دافعها الرباني وهدف التقرب الى الله تكون «اخلاصاً» حسبما مر معنا سابقاً.

وقصة الصبر معنا هي قصة المفاهيم الاسلامية الممسوخة والمشوهة في الذهنية العامة للمسلمين.. تلك المفاهيم الدافعة.. والمحركة.. المفاهيم التي كانت يوماً وقود الثورة الاسلامية الذي لا يستهلك، واداة تجاوز الانسان لصغاره.. واهوائه قليلة الشأن.. ورياضة روحية تنشط الارادة، وتبني استقلال شخصية الانسان المسلم.

فاصبح الصبر – وهو واحد من هذه المفاهيم – أداة تخديرية.. اصبح (صبراً على الانحراف بعد ان كان صبراً على مواجهة الانحراف، والمنحرفين. وبعد أن كان صبراً على

الثبات على طريق ذات الشوكة، وتحمل الامانة، والالتزام بدين الله في احرج اللحظات واقسى الظروف،

{ ٢٣٨ }

اصبح صبراً على (التنصل) عن الالتزامات المبدئية في هذا الدين، وعلى مواجهة الضمير الديني الحي الذي ينبض بشيء من الحياة..

وليس التوكل.. بعيداً عنا.. التوكل الذي كان عوناً للمقاتل في الساحة، وللمجاهد في مراحل الصراع، واداة للاستهانة بقدرات العدو الكافر، والثقة بالنفس.. اصبح هذا المفهوم الرائد.. والبعد الاصيل في شخصية المسلم.. اتكالاً مريضاً، وتفويضاً، وتكاسلاً من تحمل اعباء المسيرة. والزهد الذي يمثل قمة التحرر، والانعتاق، وتجاوز الاهواء والشهوات والتحرر الداخلي الحقيقي للانسان، اصبح كلمة ذليلة حتى في اسماع بعض المسلمين المؤمنين نتيجة لما قرنت به من الممارسات الشاذة، والوان القطيعة الاجتماعية، والهروب عن الحياة.

وهكذا دائماً يغير الانسان المفاهيم التي جاءت لتغييره وينزل بها الى الحضيض بدلاً من ان يرقى معها الى الكمال.. فليس من الهين، والسهل ان يرقى الانسان، وانما التصاعد معاناة، وزهد، ومرارة.. ومن اجل ان يبقى في حالته المريحة هذه فعليه – حتى يريح ذاته من الشعور بالانفصام بين الفكر، والسلوك – أن يحرف مفاهيمه الثورية وان يسحبها الى وراء، بدلاً من ان يتقدم معها الى امام.. هذه هي خلاصة التحريف الاجتماعي للمفاهيم، والرسالات، وعلينا باستمرار ان نرجع الى النبع الاصيل لتوضيح مفاهيمنا لا الى عقلية الانحراف والتخلف والتحلل.

والصبر في مفهومه الاسلامي الاصيل تمرد الارادة المسلمة على اهواء النفس، وشهواتها.. التي تهدف الى اخلاد الانسان الى الارض.. وهو

امتلاك النفس، وحبسها على الخط المستقيم، في مواجهة حازمة للضغوط الخارجية والداخلية على السواء.. انه الصبر على الالتزام المر بقيم هذا الدين.. في مواجهة قوى الضغط في الداخل، والخارج، وليس هو الصبر على الخلود الى الطين.. في مواجهة الضمير الديني، وقوى الخير النابضة للحياة في النفس البشرية.. وهو الصبر على تحمل مشاق الطريق، واعباء المسيرة، واجتناب الآلام، والغربة والعذاب في سبيل الله، تحقيقاً للارادة الربانية، وتمثلها في النفس، والسلوك.. وليس الصبر على الانحراف والمنكرات، والمحارم تحقيقاً لقيم الكسل والرخاء، والامن والراحة.. في دنيا مليئة بالمتاعب، والمكاره واشكال الآلام والهموم.

وعلى هذا الاساس اصبح الصبر ركناً ركيناً من الايمان.

(الصبر رأس الايمان)

(الصبر من الايمان، بمنزلة الرأس من الجسد، فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك اذا ذهب الصبر ذهب الايمان)

(ولا ايمان لمن لا صبر له)

(الجنة محفوفة بالمكاره، والصبر، فمن صبر على المكاره والدنيا دخل الجنة)

الصبر عند البلاء

النوازل والمكاره، وشظف العيش، وفقدان الاعزة، والاحبة، والغربة

بين الناس.. هذه وامثالها، يتعرض لها المؤمنون في كل مكان.. وخصوصاً المجاهدون في الله منهم كضريبة لصراعهم مع الكفر، ومواجهتهم للجاهلية في كل زمان ومكان وعلى كل المستويات.. وكتدخل الهي اريد به تمييز الصادق من الكاذب، وتمحيص الفئة المجاهدة، واعدادها وتعميقها.. لتكون حلقة ربانية ضمن حلقات مسلسل الهدى الالهي، الذي سوف ينتهي لا محالة الى بسط الحق، والعدل وانتشار القسط، والخير بعد ان ملئت الارض ظلماً وجوراً، وعانت البشرية من آلام الصراع بين الهدى، والضلال.. وقد جعل الله سبحانه البلاء، والآلام، والمكاره في صلب تخطيطه للحياة، وفي صلب تخطيطه للدعوة، والدعاة.. كما يوضح ذلك كل عرض مدرسي مبسط لنظرية الفتنة في القرآن الكريم.

هذه المصائب، والآلام المتعددة في الحياة فتنة للانسان المسلم يسعد فيها من سعد، ويشقى فيها من يشقى، ويبتعد عن الله.. ويعكس لنا (النص الاسلامي) هاتين الاستجابتين المختلفتين للاصابة بالبلاء..

١) – (أوَلما أصابتكم مصيبةُ قد أصبتم مثليها قلتُم أنى هذا)(١٤)

(ومن الناس من يعبدُ اللّه على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنةٌ انقلب على وجههِ خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسرانُ المبين)(١٥)

(وان تصبهمُ سيئةٌ يطيروا بموسى ومن

معهُ)(١٦)

(وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون)(١٧)

(وان تصبهمُ سيئةٌ بما قدمت أيديهم فان الانسان كفورٌ)(١٨)

وهكذا فان (التزلزل) و(الارتداد) و(التطير) و(القنوط) و(كفران نعمة الله) هي النتائج السلبية التي يصل اليها بعض الناس من خلال فتنة البلاء، والمصيبة..

٢) – واما المؤمنون فلهم شأن آخر من البلاء.. اذ تشخذ فيهم النوازل الشعور بالحاجة الى الله، والتوجه اليه وتزيدهم ثباتاً، وصلابة، وعناداً في الحق، ويجددون الصبر والشكر لله، ويعيدون تقييم ذواتهم، واختبارها..

(الذين اذا أصابتهمُ مصيبة قالوا انا للّه وانا اليه راجعونَ)(١٩)

(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم)(٢٠)

(وكأين من نبي قاتل معهُ ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللّه، وما ضعفوا، وما استكانوا)(٢١)

(الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم، والصابرين على ما اصابهم)(٢٢)

(والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون)(٢٣)

(والصابرين في البأساء وحين البأس)(٢٤)

(قل لن يُصيبنا الا ما كتب اللّه لنا هُو مولانا)(٢٥)

(فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)(٢٦)

وهكذا فالمؤمن عند المصيبة، والبلاء يراجع تصوراته الكونية ووعيه الكوني للحياة، ولا يحزن، ولا يهن، ولا يضعف، ولا يستكين، بل على العكس يصبر، وينتصر، ويرضى بقضاء الله، وقدره، ويتضرع الى الله ويلتجئ الى الله.. ويزداد ايماناً وثباتاً.

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لك فأخشوهُم فزادهم ايماناً، وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيلُ)(٢٧)

بعد هذا ننتقل الى السنة، وهي تتحدث عن حتمية البلاء، والنوازل

بالنسبة الى المؤمن، وموقفه تجاه النازلة ودرجات المبتلين..

(ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الذين يلونهم ثم الامثل فالامثل)

(ان للّه عز وجلَّ في الارض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة الى الارض الا حرفها عنهم الى غيرهم ولا بلية الا حرفها اليهم)

(أن المؤمن يبتلى بكل بلية، ويموت بكل ميتة الا انه لا يقتل نفسه)

(ان المؤمن من اللّه عزَّ وجلَّ لبأفضل مكان – يكرر الامام ذلك ثلاثاً – انه ليبتليه بالبلاء، ثم ينزع نفسه عضواً عضواً من جسده، وهو يحمد اللّه على ذلك)

(ولو يعلم المؤمن ما له من الأجر على المصائب لتمنى انه قرض بالمقاريض)(٢٨)

(أن الحر حر على جميع احواله : ان نابته نائبة صبر لها، وان تداكت عليه المصائب لم تكسره، وان أسر وقهر، واستبدل بالصبر عسراً)

ومن خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة يتبين، ان المؤمن في ايام المحنة، والبلاء، ووقت المكاره، والمصائب.. يتمثل موقفه.. في (الثبات) والاستقامة على الخط الرباني عقيدة.. وروحاً.. وسلوكاً فلا يتنازل، ولا يستقل منه شيء.

(المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول.. والمؤمن لا يستقل منه شيء)

ولا يتنازل عن جهاده، وعمله في سبيل الله لان

(المؤمن مجاهد.. يجاهد في دولة الحق بالسيف، ويجاهد في دولة الباطل بالتقية)

ولا يعاني من الضعف والتردد والتلكؤ.

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما اصابهم في سبيل اللّه، وما ضعفوا، وما استكانوا)(٢٩)

ولا تصدر منه كلمة جزع، أو سخط، ولا يتشكك، ولا يتزلزل..

هذا ما يتمثل موقفه فيه اولاً.. ويتمثل موقفه ثانياً في (الاستزادة) والنمو من خلال المحنة، والبلاء.

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايماناً)

وهذه زيادة في الايمان.. وهناك زيادة في اللجوء الى الله تعالى، والانشداد له.

(فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)

وهناك استبصار للذات واكتشاف لها.. لاحظ قوله تعالى :

(فما وهنوا لما اصابهم في سبيل اللّه، وما ضعفوا، وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم، الا أن قالوا، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واسرافنا في أمرنا)

الى آخر مجالات الاستزادة على المستوى الفردي والجماعي..

والملاحظ – على مستوى النصوص، وعلى المستوى التحليلي – ان كلاً من الثبات، والاستقامة، والاستزادة من الفتنة والبلاء لا يتم الا من خلال الصبر، والتحكم في الاهواء التي تنزع بالانسان المؤمن الى الانحراف، وتطليق الشريعة، والحيود عن الجادة.. لكي يتوافق مع مجتمعه ويبعد عنه شبح الغربة، ويتخلص من الآلام، والمتاعب والمكاره، واشواك الطريق..

الصبر عند الاهواء

والاهواء لدى الانسان كثيرة.. منها الاصيل في النفس ومنها

المتشكل، والمتفرع عن معان اصيلة.. وهو يعاني منها في اكثر من مجال.. أو في كل مجال من مجالات العمل في سبيل الله.. مع النفس.. ومع الناس. والصبر هو التحكم في هذه الاهواء والسيطرة عليها. وعلى الانفعالات، وعن الامام (ع) :

(من ملك نفسه اذا رغب، واذا رهب واذا اشتهى، واذا غضب، واذا رضي، حرم اللّه جسده على النار)

ومن اجل تسهيل البحث، وتوضيح المطلب نصنف الصبر – من زاوية مما يصبر عليه – الى الصبر في المجال الروحي.. أو العبادة.. والصبر في المجال الاخلاقي بالمعنى الخاص.. والصبر في ميدان العمل لله.. وهداية النفس.. «العمل الاجتماعي».

أ) – الصبر على العبادة :

قال تعالى :

(وأمرُ اهلك بالصلاة واصطبر عليها)(٣٠)

التقرب الى الله تعالى جوهر هذا الدين واساسه المتين الذي بنيت عليه انظمته في المجالات كافة.. ويتم التقرب الى الله تعالى في اوضح صورة عن طريق العبادة الخاصة من الصلاة والذكر، والدعاء، والقرآن الكريم.. وللانسان من المعوقات عن العبادة – اداء، واستفادة – اهواء كثيرة تضغط عليه، وتحول بينه، وبين ان يؤدي العبادة، او يستفيد من

قبيل الميل الجنسي في الذهن البشري، والانشداد الخيالي الى المعاني المادية، وصعوبة التعامل مع الغيب والتعب البدني، والارهاق الناتج عن السعي في سبيل الحياة المادية، والالفة، والعادة التي تمنع من عيش الصلاة عيشاً جديداً منتجاً، والاستثارة الروحية بالاذكار، والدعوات.. والمشاغل النفسية، وهموم الحياة التي تشغل بال الانسان وهو يؤدي الصلاة لله..

وبسبب هذا كله، وغيره، احتاج المؤمن في اداء العبادة والاكثار منها، وعيشها، والاستفادة منها، ومداومتها الى تحكم في اهوائه، ودوافعه النفسية المثبطة له عن القيام بحق الله في العبادة، والذكر، والشكر، والى مراجعة مستمرة لمفاهيمه عن الكون، والحياة وتصوراته الاصيلة عن هذا الدين حتى يعيشها احاسيس منشطة، ومحركة، ودافعة لعيش الصلاة وعيش العبادة.. دروساً روحية، ودورات تربوية، تتم بعين الله، ورعايته، وامامه، تساعد المؤمن على تطهير الذات وتحريرها، والعروج بها في مدارج الرقي الروحي والكمال والنفسي.

ب) – الصبر الاخلاقي :

١) – الصبر عند الغضب، والغيظ..

(والذين اذا غضبوا هم يغفرون)

(والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس)

وفي السنة :

(من كف غضبه ستر اللّه عورته)

(فيما ناجى الله عز وجل به موسى : يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي)

(من لم يملك غضبه لم يملك عقله)

(من كف غضبه عن الناس كف اللّه تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة)

(ما احب ان لي بذل نفسي حمر النعم، وما تجرعت جرعة احب الي من جرعة غيظ لا اكافي بها صاحبها)

(ما من عبد كظم غيظاً الا زاده اللّه عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة)

٢) – الصبر امام شهوة البطن، والفرج.

(ما عبد اللّه بشيء أفضل من عفة بطن، وفرج)

٣) – الصبر في مواجهة هوى الثرثرة، الكلام الزائد والمحرم... في الخبر (جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله اوصني. قال : احفظ لسانك. قال : يا رسول الله اوصني. قال : احفظ لسانك قال : يا رسول الله

{ ٢٤٩ }

اوصني. قال : احفظ لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصائد ألسنتهم)

وفي الخبر عن الرضا (ع) :

(من علامات الفقه : الحلم، والعلم، والصمت ان الصمت باب من ابواب الحكمة، ان الصمت يكسب المحبة، انه دليل على كل خير)

ج) – الصبر على الكتمان :

يحب الانسان التظاهر، والثرثرة، والتجريح بالآخرين وكشف عيوبهم، واسرارهم، ويحب ان يكشف حاله ومشاريعه للناس، وبيان كل ما في ذهنه من حقائق وافكار.. ان اللسان.. والتحدث في ما لا ينبغي التحدث به محطّ اهواء كثيرة.. هوى الظهور، والبروز امام الناس بمظهر العارف بهذه الامور.. وهوى الحط من كرامة الآخرين، وتجريحهم.. وهوى الالفة مع الآخرين من خلال طرح كل ما في نفسه.. وضغوط الاصدقاء، والعلاقات بهم ومن هنا، فان الكتمان عنصر يحتاج الى الصبر، والمعاناة.. ليكون بعد ذلك سجية، وسليقة ككل الموارد التي يصبر عليها الانسان ابتداء ثم يالفها، ويعتادها، ولا يشعر معها بالكلفة والعناء.

الكتمان ضرورة..

{ ٢٥٠ }

(استعينوا على اموركم بالكتمان)

(وددت اني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعدي النزق، وقلة الكتمان)

كما ورد عن علي بن الحسين (ع) : الكتمان ضرورة، وواجب في كثير من الاحيان من الزاوية الشرعية لحفظ كرامة الآخرين..

وضرورة للحفاظ على النفس.. وضرورة للحفاظ على الآخرين.. وضرورة لنجاح الكثير من المشاريع التي يجب ان لا تسلط عليها الاضواء، والملاحقات من قبل الآخرين، وتدخلاتهم السلبية، وفضول الكثير من الناس.. وفي جل الناس شيء من الفضول..

١) – كتمان عيوب الناس، وسترها.. مما ينبغي، ويجب الصبر عليه لان

(الغيبة اسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه)(٣١)

ولان

(من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته، ليسقط من أعين الناس اخرجه الله من ولايته الى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان)(٣٢)

ولان الله تعالى يقول :

(ولا يغتب بعضكم بعضاً ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه)(٣٣)

وللغيبة موارد ذكر الفقهاء جوازها فيها، ولكنها موارد مستثناة، والاصل في الغيبة الحرمة.. فينبغي التورع من ذكر عيوب الناس، وكشف ما ستره الله تعالى من امراضهم وذنوبهم.. وكثيراً ما ينتهي باحدنا الغيظ، والحقد، والتنافس الى ذكر مساوئ اخوانه في الله.. وفضحهم بما فيهم وما ليس فيهم. مما يقطع بين المؤمنين من ولاية.. فان

(من قال لاخيه المؤمن اف، انقطع ما بينهما من ولاية، ومن قال له : انت عدوي كفر احدهما، ومن اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء)

وهكذا الحال في الظنون السيئة والاحتمالات التي لا ينبغي للمؤمن ان يتحقق فيها، ويشيعها الا عند الضرورة الشرعية لذلك.. واين هذا من واقع التجريح والتشهير، والغيبة، والبهتان، وغير ذلك من المعاني التي يعاني منها واقعنا الاجتماعي.. ؟!

٢) – كتمان اسرار الآخرين التي يخافون كشفها ويتوقع الضرر الاجتماعي عليه منها، وعدم الاذاعة والثرثرة في هذا الميدان، مما يحتاج، ويجب فيه هو الآخر الصبر والصمت.. فقد وردت النصوص الكثيرة في

تحريم الاذاعة، وكشف السر.

فعن ابي عبد الله (ع) :

(ما قتلنا من اذاع حديثنا قتل خطأ، ولكن قتلنا قتل عمد)

(من اذاع علينا حديثنا سلبه الله الايمان)

وعن ابي جعفر (ع) :

(يحشر العبد، يوم القيامة، وما ندى دماً، فيدفع اليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له : هذا سهمك من دم فلان، فيقول : يا رب انك لتعلم انك قبضتني، وما سفكت دماً فيقول : بلى سمعت من فلان رواية كذا، وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت الى فلان الجبار فقتله)

وعن ابي عبد الله (ع) : تلا هذه الآية:

(ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)(٣٤)

قال : (والله ما قتلوهم بايديهم ولا ضربوهم باسيافهم، ولكنهم سمعوا احاديثهم فاذاعوها فاخذوا عليها، فقتلوا فصار قتلاً، واعتداء، ومعصية)

وعنه (ع) :

(من استفتح نهاره باذاعة سرنا، سلط الله عليه حر الحديد وضيق المحابس)

د) – الصبر على الاستقامة الفكرية :

وعدم المساومة في الافكار، وتقديم التنازلات، والتميعات الفكرية امام ضغوط القيم الاجتماعية، والحضارية، والاشكال الاخرى من ضواغط الحياة.

قال الله تعالى :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره، واذاً لاتخذوك خليلاً.. ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً. اذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيراً)(٣٥)

تتحدث هذه الآيات.. عن محاولة جاهلية لفتن الرسول صلى الله عليه وآله عما

اوحي اليه من الله تعالى.. او بعض ما اوحي اليه.. ويتلخص هذا العرض في ان يقدم الرسول بعض التنازلات الفكرية للمشركين في مكة، لينضموا الى صفوف الدعوة..

«لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى.. منها : مساومتهم له ان يعبدوا الهه، في مقابل ان يترك التنديد بآلهتهم، وما كان عليه آباؤهم.. ومنها مساومة بعضهم له ان يجعل ارضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله ومنها طلب بعض الكبراء، ان يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء».

«هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات اصحاب السلطان مع اصحاب الدعوات دائماً محاولة اغرائهم، لينحرفوا – ولو قليلاً – عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لانه يرى الامر هيناً، فاصحاب السلطان لا يطلبون اليه ان يترك دعوته كلية، انما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور ان خير الدعوة في كسب اصحاب السلطان اليها، ولو بالتنازل عن جانب منها ولكن الانحراف الطفيف في اول الطريق ينتهي الى الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها، ولو يسير، وفي اغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك ان يقف عندما سلم به اول مرة، لان استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة الى الوراء»..

«والتسليم في جانب، ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب اصحاب السلطان الى صفها : هو هزيمة روحية بالاعتماد على اصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم. ومتى دبت الهزيمة في اعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصراً»..

«لذلك امتنّ الله على رسوله صلى الله عليه وآله ان ثبته على ما اوحى الله، وعصمه من فتنة المشركين له، ووقاه الركون اليهم، ولو قليلاً، ورحمه من عاقبة هذا الركون، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً، وفقدان المعين، والنصير»(٣٦).

وتنشأ المساومة الفكرية والتنازلات الفكرية من مناشئ مختلفة اهمها اثنان :

(١) – التعجيل بتقدم الدعوة، ونمو العمل في الوسط الاجتماعي.. وهنا يتم التنازل عن بعض افكار الرسالة الاصيلة لعدم تقبل الناس لهذه الافكار، ورفضهم لها، حتى تتقدم الدعوة بشكل عام، وان كان على حساب التفاصيل وبعض الاجزاء منها.. ومن هذا القبيل التنازلات الفكرية الكبيرة التي قدمتها الاحزاب الشيوعية الاوروبية بعد ان وقف نموها، وتجمدت فعاليتها في المجتمعات الغربية ذات التقاليد الفكرية الخاصة.

(٢) – تأثر اصحاب الدعوة بالقيم الحضارية والفكرية للمجتمع الذي ينوون تغييره.. وذلك لانهم ابناء هذا المجتمع يؤثر فيهم من حيث

يشعرون، أو لا يشعرون عن طريق الايحاء الاجتماعي، والبنية الفكرية، ويغلب هنا الارتباط الحضاري، والاجتماعي عند هؤلاء على الارتباط المبدئي، والرسالي فيطمسون بعض معالم رسالتهم بسبب انتمائهم الجزئي الى حضارة مختلفة.

ومن هنا احتاج المؤمنون الرساليون الى (ملكة صبر) عالية يواجهون بها الضغوط السياسية، والاجتماعية، وضغوط التعجل والترف في داخلهم.. التي تعمل على تمييع شخصيتهم الفكرية، واحتوائهم فكرياً، والى انشداد خاص بالله تعالى.. ينمي فيهم الاستقلال عن

الجو المنحرف ويصعد من درجة تحكمهم بعواطفهم، وانفعالاتهم الآنية، ومن هنا امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله – بعد ان ذكر العرض الجاهلي – بالصلاة.

(اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محمودا)(٣٧)

هـ) – الصبر على الاستمرار، والفعالية العملية :

ان (خوف) الانسان من مخاطر الطريق، و(شعوره بالغربة) في مجتمع يتناقض مع افكاره، ومبادئه، و(مللـه) من العمل و(الفته) له، وكذلك (انشغاله) النفسي بالدنيا من جاه، ومال، وملذات، و(تزلزل) ثقته بالصف، و(وساوسه) الشيطانية في الداخل و(ازدراء) اعين الناس له، ولمن يقوم معه، و(روح الفردية) وحبه الاستقلال، هذه كلها وغيرها عوامل

تحول.. او تثبط او تضعف من الروح العملية من الاستمرار على خط العمل لله تعالى، والفعالية والنشاط عن المواصلة.. ومن هنا احتاج المؤمن كذلك ليحفظ استقامته على خط العمل، وفعاليته فيه الى ملكة صبر يواجه بها اهواء الانفصال، والبرود في العطاء..

و) – الصبر على الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي

تعتمد الروح العملية والنشاط الاجتماعي في الاساس على سرعة المبادرة، وسرعة الحركة، والاداء.. على السرعة في تقييم الناس.. وتقديم الافكار، وتصحيحها، والسرعة في اعطاء الصلاحيات.. الخ. والانسان عندئذ في هذه الحركة السريعة قد لا يحفظ انضباطه الشرعي، ويتقيد بحدود الاسلام فيكون امره عليه غمة.. ويدخل في الانحراف من حيث هو يعمل للقضاء عليه..

الانسان العامل في الحقل الاجتماعي معرض اكثر من غيره.. الى الوقوع في خطيئة (التضليل) وتربية الناس على الافكار المنحرفة التي دخلت حوزته نتيجة للتعجل في تقديم الافكار، وتربية الآخرين.. وهو معرض اكثر من غيره للوقوع في خطيئة (ظلم) الناس، واتهامهم، وتجريحهم وذكر ما ليس فيهم من العيوب، وهدر كرامتهم.. وهو معرض اكثر من غيره الى اعطاء الصلاحيات لغير اهلها، ووضع الشيء في غير موضعه..

ولعل من اصعب الاشياء في ميدان العمل الاجتماعي هو الموازنة بين الانضباط الشرعي من جهة، وبين الروح العملية، والفعالية الاجتماعية

من جهة اخرى.. ولهذا ينبغي للانسان المؤمن ان يعاني في هذا الميدان، ويكتوي بنار هذه المعاناة.. ويجاهد في الله.. نفسه حتى يهديه الله تعالى سبله، ويجعل الاستقامة، والفعالية سليقة، وطبعاً له لا يجد حرجاً، ولا صعوبة فيه.. والله تعالى مع المحسنين.

الاخلاص

الوجه الثالث للارادة الربانية الحاكمة في الشخصية الاسلامية، هو الاخلاص. والناس غير المؤمنين على قسمين :

١) – الناس الذين لا يملكون انفسهم امام شهواتهم الرخيصة الآنية ورغباتهم العاجلة كالجنس، والمال، والاكل.. ولا يتمتعون بافق واسع، ونظر بعيد..

٢) – الذين يملكون انفسهم امام شهواتهم الرخيصة ورغباته العاجلة، وذلك بأمل تحقق مكاسب شخصية اكبر في الاصل.. وهؤلاء يمثلون نحواً من التجاوز بالنسبة للآخرين من حيث (نوعية) الهوى الذي يعملون له، والزمن الذي يحققون فيه هدفهم الشخصي..

فالانسان من النوع الاول ينطلق من هوى الطمع في المال وشهوة البطن، والفرج، وليس هذا النوع على استعداد لان يضحي بهذه الامور.. في أي حقل كان.. لان هذه الاشياء في وعيه يضحي من اجلها ولا يضحي بها من اجل شيء آخر.. اما الانسان من النوع الثاني فهو ينطلق من اهواء اخرى.. لنسمها بالاهواء المعنوية.. مقابل الاهواء المادية.. من

قبيل هوى (العظمة، والمجد، والخلود) وهوى (التحكّم، والسيطرة، والتسلط) وهوى (تحقيق الذات من خلال تحقيق المبادئ، والافكار التي يؤمن بها) وهوى (الانتصار للعرق، والقومية، والوطن).. وغير ذلك من المعاني التي تمثل توسعاً في دائرة ونطاق الذات الفردية..

والانسان من النوع الاول انسان عجول، وليس مثقفاً في ابداء رغباته، واظهار شهواته، فلا هو يصبر على تأجيلها ولا هو بالذي يتفنن في العمل من اجلها. وهذا بخلاف الانسان من النوع الثاني.. الذي يملك النفس الطويل في تحقيق اهدافه، والسعي وراءها.

والشخصية الاسلامية قسم ثالث، يختلف نوعياً عن القسمين السابقين، وليست هذه الشخصية بأحد النمطين السابقين اذا اضفنا له الايمان.. والالتزام السلوكي والمظهر الديني.. فان الاسلام كما يحاول تغيير المضمون العقائدي.. والسلوك الاجتماعي، كذلك يهدف الى تغيير المضمون النفسي والوجداني، ودوافع السلوك، وبواعث الاعمال.. لان الاسلام يبني صياغة جديدة للانسان، ويحاول ان ينشئ خلقاً خلقاً آخر من الناس يتميز عن كل ما عرفه التاريخ البشري وتعرفه الحضارة المادية اليوم باشكالها، ومظاهرها المختلفة من ناس.. والاسلام اذ يحاول انشاء انسان جديد.. فهو يهمه في هذا الانشاء المضمون اكثر من الشكل.. وتهمه النية بقدر ما يهمه العمل لان خلق الانسان العابد.. الذي يحكم الله تعالى في كل جوانب حياته.. وهذا هو هدف الاسلام التربوي.. لا يتم الا بتطهير النية، وربطها بالله تعالى.. وهذا هو الاخلاص. فالاخلاص، هو ان يكون الدافع على العمل، والباعث له (التقرب) الى الله، والحصول على مرضاته.

ومن الممكن ان يتم هذا عن طريق احد الدوافع التالية التي تشترك جميعاً في كونها دوافع دينية هدفها الله تعالى :

(١) – الدافع الاخلاقي : وهو ان تمتثل.. وتؤدي اعمالك بسبب ان الله تعالى يامر بها. وانه تعالى أهل للعبادة وواجب الطاعة بحسب رؤية العقل العملي للانسان.

(الهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك)

(٢) – الدافع الوجداني العاطفي النابع من حب الله تعالى والانس به، والتشوق اليه.

(٣) – الدافع (الرباني / الذاتي) وهو ان تتقرب الى الله تعالى، وتطلب رضاه من اجل تأمين سعادتك الأُخروية، أو الحصول على نتائج عملية في الحياة الدنيا بنحو تعي ان هذا الهدف الذاتي، لا يحصل من دون توسيط الله من خلال التقرب اليه، وليس نتيجة طبيعية لفعلك الذي تقوم به.

ان الدافع هو الاساس النفسي للفعل.. والمقياس للقيمة النفسية التي يصدر عنها الفعل، كالاحساس بالواجب الاخلاقي، وحب الله، وحب رضاه وجنته، أو الخوف من عقابه. ويختلف (الدافع) عن (الهدف) في ان هدف الفعل، هو النتيجة التي تقصد اليها في ادائك للفعل.. فالحصول على

الجنة هدف، والوقاية من النار هدف اما حب الجنة والخوف من النار فدافعان للعمل.

وهناك اهداف اجتماعية للعمل فالهدف من الوعظ هو هداية الانسان، والهدف من هداية الفرد تكثير عدد المؤمنين.. وتكثيرهم وسيلة لهدف آخر. والعمل من اجل تحقيق هذه الاهداف لا يتنافى مع الاخلاص.. لاننا في هذه الحالة نسأل لماذا يسعى الانسان الى هذا الهدف ويخطط له ؟ وما هو الدافع النفسي له في ذلك ؟ فاذا لم يكن الدافع شخصياً انانياً، وكان خالصاً لله.. كان هذا العمل في طريق الاخلاص، وعملاً مخلصاً من دون شك، وبكلمة اخرى : ان هذه الاهداف هي نفسها محبوبة عند الله تعالى أو مأمور بها من قبله، وهي لهذا من الممكن ان تقع اهدافاً في عمل خالص لوجه الله الكريم، ولا يتنافى قصد التوصل اليها بالعمل الخاص مع قربيّة هذا العمل..

الاخلاص هو المقياس للقيمة الحقيقية للعمل

ينظر ابن الحضارة الغربية – سواء كان يعيش في الغرب، أو الشرق أو في اوساطنا – الى العمل البشري ويقيمه على أساس من عطائه، ونتائجه، ودوره في الحياة الفردية، أو الاجتماعية، ولا يلتفت الى النوايا، والدوافع لهذا العمل..

اما الاسلام، من هذه الوجهة يلزم بمجموعة كبيرة من الاعمال، من دون ان يشترط فيها شكلاً خاصاً للباعث، والدافع النفسي وراءها. وذلك من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، ونفقة الزوجة،

وتوفير الطب والاطباء.. فهذه الاعمال، وغيرها يلزم بها التشريع الاسلامي من دون ان يشترط صدورها عن قصد التقرب الى الله تعالى.. لان لهذه النشاطات مصالح ملزمة في انفسها تتحقق من دون قصد القربة.. وهناك الواجبات، أو المستحبات العبادية، وهي النشاطات التي يطلبها الاسلام من اتباعه مشروطة بنية التقرب، وقصد القربة الى الله تعالى.

وعلى هذا.. فمن الممكن في القسم الاول ان يقوم الانسان المسلم بهذه النشاطات المذكورة.. ويسقط بها الوجوب الشرعي، ويبرئ ذمته من عهدة التكليف، وعبء المسؤولية حتى لو لم يقصد التقرب، وانما قصد السمعة والرياء او دفع اللوم والنقد وما شاكل ذلك.

واما في القسم الثاني – العبادات – فهي لا تصح الا بقصد القربة، ونية التقرب الى الله تعالى.. بل يحرم ان يؤتى بها رياء، وسمعة..

ولكن هذا كله من الزاوية التشريعية.. واما من الزاوية الاخلاقية الاسلامية، فان كل عمل ليس له قيمة الا اذا كان صادراً عن اخلاص لله تعالى لان قيمة العمل (قبوله) .. ولا يتم (قبول) العمل من الله تعالى الا بالاخلاص، وان امكن ان يكون صحيحاً مسقطاً للتكليف مبرئاً للذمة من دون اخلاص.

وبهذا جاءت النصوص عنهم (ع) :

(لا عمل الا بنية)

(انما الاعمال بالنيات، ولكل امرئ ما

نوى، فمن غزى ابتغاء ما عند الله فقد وقع اجره على الله عز وجل ومن غزى يريد عرض الدنيا، أو نوى عقالاً لم يكن له الا ما نوى)

(رسول الله صلى الله عليه وآله) :

(اخشوا الله خشية ليست بتقدير، واعملوا لله في غير رياء، ولا سمعة فان من عمل لغير الله، وكله الله الى عمله يوم القيامة)

(عن علي (ع)) :

(ان الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فاذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل، اجعلوها في سجين، انه ليس اياي اراد به)

(عن الصادق عن الرسول صلى الله عليه وآله) :

(اجعلوا امركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فان ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد الى الله)

(عن ابي عبد الله (ع)) :

ولا شك ان كثيراً من الانجازات العظمى التي يهلل لها في تاريخ

الاسلام، والمسلمين (ادخال بلاد في سيادة الاسلام – كتاب شامخ من الكتب الاسلامية..) قد لا يحصل اصحابها من ورائها غداً على شيء لانهم ارادوا بها حطام الدنيا، وغفلوا فيها عن الله ويعرض القرآن الكريم صورة حية لنبيين كريمين، وهما يقومان بارساء قواعد انجاز من اعظم الانجازات في التاريخ الديني للانسان النبيان الكريمان هما ابراهيم واسماعيل، والصورة:

(واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت، واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك)(٣٨)

انهما وهما النبيان الكريمان على الله.. وانجازهما من اعظم الانجازات يتضرعان الى الله.. ويمدان بطرفهما الى السماء.. ويخشعان.. ويدمعان.. ربنا تقبل منا.. يقولان ذلك في وعي عميق في ان كل انجاز لا قيمة له في ذاته ما لم يتقبله الله.. ولا يتقبله سبحانه الا من المتقين المخلصين.

ولا تتمثل قيمة الاخلاص في (قبول) العمل، والانابة عليه فقط، وان كانت هذه قيمة كبيرة محسوبة من جانب الانسان المسلم، وانما تتمثل قيمته مضافاً الى ذلك في مستوى الشخصية الذي بلغته.. في التجرد عن الاهواء، ودواعي السمعة والرياء، والتظاهر امام الناس، أو السعي وراء طموحات شخصية. ان الشخصية التي تعمل فيها (دوافع) اخرى غير دينية لا يأمن منها الانحراف، والخروج عن حدود الشريعة وتقديم الحسابات

الشخصية على الحسابات الرسالية في لحظات الترجيح والتزاحم الحاسمة، وهي مهما بلغت من مستوى الاداء، والانجاز، وحجم الخدمات غير مضمونة الاستقامة والاستمرار على خط الله تعالى.. بما يحصل فيه من اشواك، ومكاره، وما يحفه من شهوات، واهواء عصمنا الله تعالى من الزلل والرياء.

(اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك واوردنا حياض حبك، واذقنا حلاوة ودك، وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، واخلص نياتنا في معاملتك فانا بك، ولك، ولا وسيلة لنا اليك الا انت)

صعوبة الاخلاص لله تعالى

يوجد الكثير من المؤمنين من يشغله الجهاد، والعمل في سبيل خدمة قضية الاسلام عن التأكيد من مضمون عمله وطبيعة نيته، ودافعه.. وقد لا يستسيغ المؤمن أن يراجع ذاته، وينفق الوقت في ذلك ليتحقق من درجة اخلاصه ومستوى نموه الروحي.. الا ان الواقع ان مواصلة الجهاد والعمل في سبيل الله تعالى، والاهتمام بشؤون الناس وهدايتهم، وان كان امراً ضرورياً، وواجباً شرعياً الا ان التركيز، وتحصين الذات من الانحراف، والتنمية الروحية ايضاً من الامور المهمة،

والضرورية التي لا ينبغي اغفالها.. هذا مع ان مراجعة الذات، والتربية الروحية لا تتنافى مع العمل في سبيل الله، ولا هذا بالذي يشغل عن ذاك، والاعتكاف اروع صيغة

{ ٢٦٦ }

للعزلة الواعية التي يؤمن بها الاسلام ويدعو لها ويحث عليها.. وهي كما تساعد على الانشداد الى الله تعالى تساعد كذلك على مراجعة الذات وتقييمها والتعرف على مواطن الضعف والقوة فيها بعيداً عن ضوضاء العمل الاجتماعي، والانشغال بالناس ومعهم.

ويوجد من جهة اخرى من يحسب أنه في قمة الاخلاص.. لانه لا يطلب من وراء عمله مالاً، ولا منصباً حكومياً.. وانه لو اراد ذلك فطريقه معروف، ولم يكن من الضروري، أو اللازم ان يسلك طريق الجهاد والعمل الدؤوب.. ولكن الانسان اعقد من ذلك، ودوافعه الذاتية لا تنحصر في المال، والمنصب الحكومي.. ولكل انسان مخاطبوه، والبيئة التي يتعامل معها وللانسان اهواء معنوية كما له اهواء مادية.. فهناك من يحب أن يظهر.. وهناك من يسعى نحو الجاه، والمركز في قلوب الناس.. والرياء – كما في الحديث – اخفى من دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء لان حب الدنيا متمكن من قلوب الناس.. وتساميهم عليها، وتوجههم الى الله من الامور الصعبة.. ورغم كل ذلك، فالاخلاص ليس مستحيلاً، ولا بعيد المنال، يوفق الله تعالى له، من يبذل الجهد ويصدق النية في محاولة التنمية الروحية، والتربية الدينية والتصاعد الى الله، فلا ينبغي ان تكون صعوبة الاخلاص حاجزاً دون السعي اليه.. والتنصل منها.. وللمؤمن مجالات عديدة لشحذ اخلاصه، وتنمية دوافعه الدينية.. عاشر الناس.. وعش انحرافهم.. وتحسس به، وانطلق في عملك غاضباً لله.. علم نفسك على عبادة السر صلاة السر.. وتسبيح السر.. وصدقة السر ولا تحدث بذلك الناس.. فان ذلك تثبيت للصلة بالله تعالى

{ ٢٦٧ }

وتنمية، وقطعاً لعلاقة القلب بالناس. عش مفاهيمك في الحياة من خلال تلاوة القرآن، الدعاء الاسلامي، قراءة الكتب الاخلاقية ففي كل ذلك وامثالها شحذ للهمم ودوافع الخير، والحياة النفسية مع الله..

شمول العبادة، وسعة الاخلاص

اذا انحصرت العبادات بالمعنى الخاص – المطلوبات التي يشترط فيها قصد القربة – في دائرة محدودة هي الصلاة، والصوم، والحج، والاعتكاف.. الخ، فان هناك مجالاً كبيراً لتوسيع الفعل العبادي بحيث يشمل الكثير من الافعال، والمطلوبات الشرعية التوصيلية.. بل، وكل مطلوب كذلك. لان هذه المطلوبات وان كان لا يشترط الله سبحانه ان يأتي بها عن طريق قصد القربة، ولا يلزمنا بذلك الا من الممكن ان نجعلها عبادة، ونقصد بها وجه الله الكريم.. خذ مثلاً الاكل، والشرب، التوسعة على الاهل، اللقاء مع الاصدقاء.. وغير ذلك مما هو مطلوب شرعاً بنحو من

انجاز المطلب الشرعي فان بالامكان ان ننوي بكل ذلك التقرب الى الله تعالى.. ونرجو من خلاله الاجر، والثواب،.. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصية لابي ذر :

(يا ابا ذر ليكن لك في كل شيء نية حتى في النوم والاكل)

التوكل.. تعزيز لارادة المسلم

في القرآن الكريم اهتمام كبير بالتوكل والحث عليه.

{ ٢٦٨ }

فالتوكل في القرآن الكريم ظاهرة عامة في سلوك الانبياء :

(قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان، الا باذن اللّه. وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون. وما لنا الا نتوكل على اللّه، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى اللّه فليتوكل المتوكلون)(٣٩)

وهو ضرورة من ضرورات الايمان، ولازمة من لوازمه.. كما يبدو ذلك في القرآن الكريم :

(ان كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا، ان كنتم مسلمين)(٤٠)

(وعلى اللّه فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) (٤١)

وهو معنى من المعاني التي ينشئ القرآن الكريم عليها النبي ويربيه.

(فاعرض عنهم، وتوكل على اللّه، وكفى باللّه وكيلا)(٤٢)

(ولا تطع الكافرين، والمنافقين، ودع اذاهم وتوكل على اللّه)(٤٣)

{ ٢٦٩ }

ويحث عليه المؤمنين :

(وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون)(٤٤)

(أن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا)(٤٥)

اذهب أنت وربك فقاتلا

عندما خرج موسى (ع) من ارض بني اسرائيل، واجهته مهمة اعدادهم للدخول في الارض المقدسة، التي كتب الله لهم، ولم تكن الارض المقدسة خالية من الناس، بل كان فيها قوم جبارون.. وبنو اسرائيل كسرتهم الايام السود في مصر في ظل الارهاب، والتفرقة العنصرية، والاستخدام كسرتهم نفسياً واذلتهم اذلالاً شديداً. فما كان منهم حين امرهم بدخول الارض المقدسة الا ان قالوا:

(ان فيها قوماً جبارين، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها)

(قال رجلان من الذين يخافون انعم اللّه عليهما، ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون.. وعلى اللّه فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)(٤٦)

واجاب المنطق الاسرائيلي المتخاذل المشبع بالذل :

{ ٢٧٠ }

(يا موسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون)(٤٧)

يبدو أن غاية ما فهمه هؤلاء من التوكل هو ما يفهمه الكثيرون اليوم القاء الكل على الله. واعطاؤه (وكالة) وتفويضاً في التصرف في هذه المواقف، واتكال، وقعود، وكسل فالتوكل، هو : استنابة الله.. في مواقف هي من صلب المهام التي القاها الله تعالى على عاتق البشر.. التوكل عندهم في العيش، والرزق.. بطالة، وفراغ.. على أمل ان يرزقهم الله الرزق الحلال، أو الحرام على طريقة (الغراب الاعمى) المعروفة – والتوكل عندهم في مواجهة الانحراف تفويض، وانتظار سلبي لا عين له، ولا يد – والتوكل عندهم في كل شيء، اتكالية ميتة ممسوخة، ما انزل الله بها من سلطان.

فاذا عزمت فتوكل

وجل موارد التوكل تأتي لشيء آخر هو تعزيز ارادة الصمود في وجه تحديات الكفر والضلال.. وتعزيز ارادة الاقوام في اللحظات الحرجة.. وهو لهذا داعية للعمل، وباعث عليه وليس مثبطاً عنه، أو تفويضاً عنه، وبديلاً.

أ) – تعزيز ارادة الصمود في وجه التحديات :

(*) – (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليهم مقامي، وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت

فاجمعوا امركم، وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي، ولا تنظرون)(٤٨)

(*) – (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً، وقالوا حسبنا اللّه، ونعم الوكيل)(٤٩)

(*) – (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون، وملائهم ان يفتنهم، وان فرعون لعال في الارض، وانه لمن المسرفين. وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)(٥٠)

(*) – (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم، ولكن اللّه يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن اللّه، وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون.. وما لنا الا نتوكل على اللّه، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى اللّه فليتوكل المتوكلون)(٥١)

في هذه الآيات المباركات تبدو واضحة قيمة التوكل في تعزيز ارادة الصمود. والصبر في المحنة، والبلاء. والثبات على الاستقامة فنوح (ع) يستهين بملة الكفر على ضخامة الحجم، وشراسة المواجهة، لانه توكل على الله.. والمؤمنون عندما يقول لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.. لا يخشونهم وانما يزدادون ايماناً.. ويحتسبون الامر عند الله وعليه يتوكلون.. وموسى (ع) يغذي قومه في الايام الصعبة بالتوكل، لان التوكل زاد الصامدين الصابرين، وهكذا الرسل يصبرون على الاذى، والتكذيب بمعونة التوكل والاحتساب.

من اين جاءت هذه القيمة العملية الكبرى للتوكل.. وكيف يتاح للتوكل ان يعزز فينا ارادة الصمود، والقدرة على المواجهة ؟!

هذه القيمة العملية للتوكل تنبع في حقيقة الامر من تفويض العنصر غير الاختياري الى الله، فانت تقوم بدورك، وتنتهي مهمتك، وما تبقّى على الله تفوضه الى الله وحده.. بعد ان تحذر من الوقوع في الخطأ، والتهور، وتجاهد قدر ما تستطيع.. بعد هذا لن تبقى قلقاً على ما تبقّى.. فانت لا يهمك ما تبقى لا يهمك، ان قتلت، أو مت، أو عذبت.. لانك قد جعلت هذا بعين الله، ووكلت الامر اليه.. يقرر ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وليس لك سوى الرضا، والقناعة.

ب) – تعزيز ارادة الاقدام :

(فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الامر، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله

يحب المتوكلين. ان ينصركم الله فلا غالب لكم، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٥٢)

(قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون انعم اللّه عليهما، ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)(٥٣)

بينما كان التوكل في الآيات السابقة تعزيزاً لارادة الصمود، للصبر، للثبات، والاستقامة، رغم الضغوط والتحديات. فانه في هاتين الآيتين يقوم بدور المعزز لارادة الاقدام.. والفعل.. للارادة المؤمنة الهجومية، التي تفتح على الجبارين معاقلهم، وتلقنهم الدروس في عقر ديارهم والحصون التي يحتمون بها من ارادة الله.. !

وفي كل مشروع في الحياة العملية يستهدف بعض النتائج توجد اسباب اختيارية، واسباب خارج دائرة هذا الفرد أو ذاك، والانسان كثيراً ما يتردد، او يضعف، وتضعف ثقته بنفسه، وادائه، لتوقعه دخول عناصر ليست بالحسبان تنتهي الى فشل المشروع المذكور.

والتوكل يعالج هذه النقطة فانت عليك ان تؤدي ما باختيارك واوكل

ما ليس بالاختيار الى الله تعالى.. واستمد العون منه.. وادعه ان يتمم عملك، يكمله لك..

الاتكالية. الاعتماد على الذات. التوكل

الاتكالية.. هي ان تنفض يدك.. وتسحب نفسك من معركة العيش، ومعركة الاصلاح والتغيير.. لانك تفوض الله في هذه العملية وتستنيبه في التصرف تماماً كما يفعل الموكل مع

الوكيل في عقد الوكالة.. والاتكالية انحراف في الفكر والسلوك، لان قاعدة (اعقل وتوكل) أي قم بما عليك، واوكل الباقي الى الله.. هي القاعدة السلوكية المعمول بها عند المسلم، وليست قاعدة.

(اذهب انت وربك فقاتلا)

والاعتماد على الذات، هو ان يقوم الانسان وحده، من دون أن يتوكل على الله تعالى، ويتطلع الى نصره، ومساندته.. وهو شعبة من شعب القطيعة مع الله.. يرهق بها الانسان نفسه بعبء المسيرة، ومسؤولية الحياة.. ثم لا يجد له ولياً ولا نصيراً.. والانسان الذي يقطع صلته النفسية بالله.. ويتمرد على ربه جل وعلا بين اثنتين : بين صيغة الانسان الضائع المشتت القلق المرهق.. وصيغة الانسان الذي يطغى.. ويفاجئ الناس بانه (ربهم الاعلى) وحتى هذا الانسان ينطلق في ذلك من عقد الحقارة والنقص، والشعور بالحاجة الذي يحاول ان يتغلب عليه من خلال الخلع الكاذب المزعوم لصفات الاله على الذات..

والتوكل صورة بين اثنتين بين الاتكالية، والاعتماد على الذات تتجاوز سلبيات كل منهما.. وتحقق في معنى ابداعي جديد صيغة الحياة الرائدة.. المطمئنة في الحياة.

التوكل والتخطيط

١) – عرفنا ان التوكل لا يعني نفض اليد من الالتزامات وان اداءها، ويبني الثقة بالذات، والقدرة على الصمود والاقدام.. وهو على هذا (استعانة) بالله، وليس استنابة له في التصرف..

والاستعانة بالله تفترض، أن الفعل فعل الانسان ودور الله تعالى دور المساند والمعزز والمعين.

٢) – والسؤال الآن : هل يتنافى التخطيط مع التوكل ؟

ابداً.. لان التوكل كما عرفنا استعانة بالله تعالى وليس اتكالية كسولة.. والتخطيط في حقيقة امره.. اختيار الخطوات المناسبة التي من شانها ان توصل الى هدف معين. والبحث عن الخطوة المناسبة الى هدف معين مثله، مثل الخطوة ذاتها لا يتنافى مع التوكل.

الدخول الى الارض المقدسة كان هدفاً فكيف حاول التوصل اليه الرجلان اللذان يخافان انعم الله عليهما ؟! كان ذلك عن طريق (التخطيط + التوكل).

(ادخلوا عليهم الباب، فاذا دخلتموه فانكم غالبون)

وهذا عين التخطيط، وقمة التخطيط، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين.

وفي المثال الساذج المعروف، كيف يستطيع الاعرابي ان يحفظ بعيره، قد يفهم الاعرابي التوكل فهماً خاطئاً فيتصور ان حفظ البعير بالتوكل وحده، وبايكال حفظه الى الله، غير ان الذي فهمه الرسول صلى الله عليه وآله له، هو (اعقل وتوكل) وعقل البعير صورة بسيطة لعملية تخطيطية واضحة.

التعقل بعد آخر للارادة المسلمة

عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبد الله (ع) قال : (ان رجلاً اتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : يا رسول الله اوصني، فقال له : فهل انت مستوص ان انا اوصيتك ؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله :

(فاني اوصيك اذا هممت بامر فتدبر عاقبته فان يك رشداً فامضه، وان يك غياً فانته عنه)

للارادة الربانية بعدان آخران :

١) – التعقل.. وهو التفكير المسبق في كل فعل قبل وقوعه، ودراسة ما اذا كان من الصحيح فعله اولاً. وهذا هو الذي يوصي به الرسول صلى الله عليه وآله في الحديث المذكور.. فيقوم التعقل على اساس:

(اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان يك

رشداً فامضه، وان يك غياً فانته عنه)

ويعني ذلك بالتالي عدم الاعتماد على العواطف، والانفعالات والحماس الآني وعدم التسرع في الموقف، والاجراءات.

٢) – التخطيط، والتنظيم.. ويقوم على اساس تحديد الخطوات وتعيين المراحل، والاجراءات اللازمة للوصول الى النتيجة الفعلية، أو الهدف المعين الذي يقوم عليها، والعمل وفق ذلك بالدقة التامة. وهذا شأن من شؤون الحكمة التي امر الله تعالى بها رسوله، والمؤمنين.

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة)

تعقل بلا إرادة، وإرادة بلا تعقل

نلاحظ – كما في كثير من المجالات – وجود افراط وتفريط بصدد قضية التعقل والتخطيط.. فهناك من يبني مواقفه عملياً على اساس الحماس، والعزم، والتصميم من دون ان يتأمل فيها، ويتدبر ومن دون أن يدرس الخطوات الضرورية اللازمة للوصول الى الاهداف الاجتماعية التي يحاول تحقيقها.

وهناك في المقابل من يكثر من التأمل والتفكير. ولكن لا ينتهي الى يقين، وانما الى وسوسة، وشك، وتلكؤ، او الى تجميد، وتعطيل فيصاب هؤلاء في العادة بمرضين :

(١) – مرض الوسوسة، والتردد، و(الجربزة) لانهم بتفكيرهم الزائد وتأملهم العميقً يخرجون عن اطار الرؤية الفكرية للاسلام، والعمل الاسلامي، والبصائر، والهدايات العامة التي ينبغي، ويجب على الانسان ان يتمسك بها في ميادين العمل، والجهاد..

(٢) – مرض التلكؤ العملي، والجمود والضمور الذاتي والانطواء على الذات.

ان الله سبحانه يريد منا أن نوازن في امورنا جميعاً.. والمطلوب هنا ان نوازن بين القلب، والعقل، والروح، والفكر والعزم والتعقل.. وان نعطي لعقولنا حقها من التفكير ولارادتنا حقها من العمل.. لا عمل من دون علم وتدبر لان

(العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير الا بُعداً)

ولان

(من عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح)

كما عن الرسول صلى الله عليه وآله ومن جهة اخرى :

(لا علم بلا عمل، لان بين العمل والعلم تكاملاً)

{ ٢٧٩ }

ذكره الامام (ع) كما في الرواية التالية :

(لا يقبل الله عملاً بلا معرفة، ولا معرفة الا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، الا ان الايمان بعضه من بعض)

وأما المتشككون المتلكؤون فيقول لهم الامام علي (ع) كما في نهج البلاغة :

(لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكاً، اذا علمتم فاعلموا، واذا تيقنتم فاقدموا)

هوامش الفصل الرابع

(١) – لله سبحانه ارادتان : ارادة تتعلق بذات الفعل والحدث، وهذه هي الارادة التكوينية، ومن هنا (اذا اراد الله شيئاً قال له كن فيكون)، وارادة تتعلق بفعل الانسان، على ان يصدر باختياره وحريته، وهي الارادة التشريعية، كارادة الصلاة والصوم، وترك شرب الخمر.

(٢) – سورة البقرة / ١٤

(٣) – سورة المنافقون / ١

(٤) – سورة البقرة / ٢١

(٥) – سورة النساء : ١٣ – ١٤

(٦) – سورة الاحزاب / ٣٦

(٧) – سورة التوبة / ٥٢

(٨) – سورة المطففين / ١٤

(٩) – اصول الكافي ج ٢ ص ٧٤

(١٠) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢٣٢

(١١) – سورة الانعام / ٤٨

(١٢) – سورة النحل / ٣٥

(١٣) – اصول الكافي ج ٢ ص ٢٨٧

(١٤) – سورة آل عمران / ١٦٥

(١٥) – سورة الحج / ١١

(١٦) – سورة الاعراف / ١٣١

(١٧) – سورة الروم / ٣٦

(١٨) – سورة الشورى / ٤٨

(١٩) – سورة البقرة / ١٥٦

(٢٠) – سورة آل عمران / ١٥٣

(٢١) – سورة آل عمران / ١٤٦

(٢٢) – سورة الحج / ٣٥

(٢٣) – سورة الشورى / ٢٦

(٢٤) – سورة البقرة / ١٧٧

(٢٥) – سورة التوبة / ٥١

(٢٦) – سورة الانعام / ٤٢

(٢٧) – سورة آل عمران / ١٧٣

(٢٨) – اصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمنين

(٢٩) – سورة آل عمران / ١٤٦

(٣٠) – سورة طه / ١٣٢

(٣١ – ٣٢) – اصول الكافي ج ٢ ص ٣٥٧ – ٣٥٨

(٣٣) – سورة الحجرات / ١٢

(٣٤) – سورة البقرة / ٦١

(٣٥) – سورة الاسراء ٧٣، ٧٤، ٧٥

(٣٦) – في ظلال القرآن الشهيد سيد قطب م ٥ ص ٣٥١ وما بعدها

(٣٧) – سورة الاسراء / ٧٩

(٣٨) – سورة البقرة / ١٢٧

(٣٩) – سورة ابراهيم / ١٢

(٤٠) – سورة يونس / ٨٤

(٤١) – سورة المائدة / ٢٣

(٤٢) – سورة النساء / ٨١

(٤٣) – سورة الاحزاب / ٤١

(٤٤) – سورة آل عمران / ١٦٠

(٤٥) – سورة يونس / ٨٤

(٤٦) – سورة المائدة ٢١ – ٢٢

(٤٧) –

(٤٨) – سورة يونس / ٧١

(٤٩) – سورة آل عمران / ١٣٣

(٥٠) – سورة يونس ٨٣ – ٨٦

(٥١) – سورة ابراهيم ١١ – ١٢

(٥٢) – سورة آل عمران / ١٥٩

الفصل الخامس : «وسائل التربية الروحية»

{ ٢٨٣ }

تربية الجانب الروحي :

عرفنا في ما مضى أن الجانب الروحي في شخصية الانسان المسلم يتمثل في مجموعة من العناصر النفسية الداخلية المنشدة الى الله تعالى.. والمرتبطة به، بصائر وعواطف، وارادة.

فايمانك بالله تعالى، واطمئنانك له، وخوفك، ورجاؤك منه، وحبه، وحب المؤمنين، والاخلاص والصبر، والزهد، وامثال ذلك من المعاني التي يتشكل منها الجانب الروحي.

واما الصلاة وتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله، وما شاكل ذلك فهي وسائل التربية الروحية والاعداد الروحي.. وليست هي في ذاتها عناصر روحية..

ومن روائع دين الله، انه لم يحث على ربط القلب والارادة بالله تعالى ولم يلزم به فقط وانما بين طريق ذلك واسلوبه الصحيح، وتسهيلاً للناس وتوضيحاً للسبيل المستقيم في مسألة قابلة الانقسام في التربية الروحية تقوم على اساس من القوانين النفسية، ونظم الترابط بين الذهن، والقلب، والارادة، والسلوك، وليس المقصود من ان الاسلام بيّن الطريق الى التربية الروحية وتنمية الصلة النفسية بالله تعالى، انه قد تحمل مسؤولية للتربية، والبناء على الانسان المسلم.. وانما كل ما فعله هو، ان وضح المعالم، ورسم الطريق، وعلى المسلم ان يبادر، ويعاني في سلوك هذا الطريق حتى ينتهي

{ ٢٨٤ }

اخيراً الى الدرجة اللائقة من الصلة بالله والعلاقة الروحية به.

وهكذا فان بناء الجانب الروحي، والتربية الروحية لا تتم بالشكل الصحيح الا بشروط ثلاثة :

١) – الشرط التكويني : وهو وجود قوانين نفسية تحكم العلاقة بين الجانب الروحي والصلة النفسية بالله، وبين مجموعة من المواقف والاعمال يمكن من خلال اداء هذه الاعمال. وعلى اساس الترابط الموجود بين الفعل، والجانب الروحي، تنمية هذا الجانب، وتكوين الصلة الداخلية بالله تعالى. وقد تكفل الله سبحانه بهذا الشرط في النظام التكويني للاشياء ويكشف القرآن في آيات متعددة عن الكثير من هذه القوانين النفسية، والترابطات الموجودة بين اجهزة الشخصية الانسانية.. ويقيم على اساس من ذلك نظامه التربوي..

٢) – الشرط التشريعي : وهو وضوح الوسائل والمواقف التي تؤدي الى تلك النتائج النفسية بحكم القانون النفسي المغروس فطرياً.. والمودع في جهاز التكوين البشري.. وقد قام الاسلام بذلك، فحدد مجموعة كبيرة من وسائل التنمية الروحية، وتكوين الانشداد الداخلي بالله. وسنأتي على ذكر هذه الوسائل ان شاء الله تعالى.

٣) – المبادرة الفردية، والمعاناة في اتباع هذا الخط وتبنّي هذه الوسائل، وانتهاجها.. واذا كان الشرط الاول من مهمات الجانب التكويني في خلق الانسان، وكان الشرط التالي من مهمات الاسلام التشريعية فهذا الشرط كما هو واضح من مهمات الفرد، الانسان المسلم نفسه. وليس من

مهمات الانسان المسلم ان يستحدث وسائل عبادية منه، واساليب للتربية الروحية، بل قد لا ينبغي من ذلك بعد ان وضح الاسلام الطريق، ورسم المعالم في هذا الميدان، وقد يؤدي

استحداث هذه الوسائل، والاساليب الى شكل من اشكال الابتداع في الدين، وبالتالي الانحراف عن الاهداف الاسلامية للتربية الروحية.. كما وقعت في ذلك اتجاهات التصوف..

المعاناة في سبيل التربية الروحية

دور الانسان المسلم اذن هو تبني التربية الروحية التي حدّدها الاسلام من صلاة، وذكر، وصيام، و.. ولكن تبنيها ليس دائماً امراً سهلاً. صحيح ان الاسلام عندما يوضح اساليب التنمية الروحية يكون بذلك قد سهل هذه العملية، ولكن لتسهيل امر نسبي. فعلى الانسان ان يعاني في سبيل البناء الروحي، ويجاهد نفسه، واهواءه من اجل سلوك الطريق الى الله الذي يبدأ صعباً وينتهي سهلاً وسجية للسالكين..

ان الضواغط على التربية الروحية كثيرة ولكن ارادة الانسان المؤمن يجب ان تكون اكبر من الضواغط، واكبر من الحواجز الطبيعية والاجتماعية والنفسية، بيئة المؤمن الاجتماعية، وبيئته الثقافية، وزاده الفكري الذي يتلقاه، ويتفاعل معه، ومشاغله الحياتية، وتربيته الاولى، وطبيعته كانسان له اهواؤه وحسه، كل ذلك لا يشجع على الصلة بالله.. ولكن في هذا ايضاً قيمة الاتصال بالله، وتعميق العلاقة به.. وفي تجاوز المصاعب، والتمرد على القوانين الاجتماعية، والنفسية.. تتبدى (تتجلى) انسانية الانسان، وجوهره الروحي الخلاق. وفي هذا ايضاً ميزة الانسان المسلم الذي يتبنى الاسلام عقيدة، وخلقاً، وسلوكاً، على الانسان المادي

فهذا يبقى خالداً الى الطين محكوماً بقوانين الشهوة، الحس، وعالم الشهادة، وذاك يرتفع ويتصاعد الى السماء، ويتجاوز قوانين الشهوة، والحس، والتعامل مع عالم الغيب.. لمجرداته، ومغيباته..

الانسان المادي يشكل حقاً حقارة معنوية لعالم الحيوان.. ضيق الافق، ومحدودية الطموح، والمحسوبية للشهوات.

(ان هم الا كالانعام بل هم اضلّ)

والانسان المسلم يمثل التجاوز الحقيقي للوضع الحيواني بحدودهما الضيقة وآفاقهما المحدودة.. وبالكدح والمعاناة، وبهداية الله تنمو روحية الانسان وتلتقي بالله..

(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه)

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)

وسنذكر فيما يلي وسائل التربية الروحية، وهي في الاسلام كثيرة ولكننا سنقتصر هنا على ما يلي منها :

١) – قيام الليل.

٢) – ذكر الله كثيراً.

٣) – تلاوة القرآن الكريم.

٤) – الاجواء الايمانية.

٥) – الثقافة الايمانية.

٦) – مخالفة الاهواء – الصوم.

٧) – المحاسبة، والنقد الذاتي.

٨) – الاعتكاف.

أولاً قيام الليل

ورد الحث الشديد – كتاباً وسنة – على صلاة الليل.

١) – (يا أيها المزمل قم الليل الا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا) (المزمل)

٢) – (اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل، وقرآن الفجر، ان قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محمودا) (الاسراء / ٧٩)

٣) – (ان المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من الليل ما

يهجعون. وبالاسحار هم يستغفرون)(١)

٤) – (واذكر ربك بكرة واصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا)(٢)

٥) – عنهم (ع) :

(شرف المؤمن صلاته بالليل، وعز المؤمن كفه عن اعراض الناس)

٦) – عن ابي عبد الله (ع) قال :

(عليكم بصلاة الليل فانها سنة نبيكم ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن اجسادكم)

٧) – وعنهم (ع) في مجموعة احاديث :

(ان صلاة الليل تذهب ذنب النهار وتطرد الداء من الاجساد، وتبيض الوجه، وتطيب الريح، وتجلب الرزق، وتذهب بالهم، وتجلو البصر، وتحسن الخلق، وتقضي الدين، وهي مصحة للبدن، ورضا للرب، وتمسك باخلاق النبيين (ع))

٨) – عن ابي عبد الله (ع) :

(ليس من عبد الا ويوقظ في كل ليلة مرة، أو مرتين، أو مراراً. فان قام كان ذلك والا فجج الشيطان فبال باذنه أوَلا يرى احدكم اذا قام، ولم يكن ذلك منه قام وهو متحير (متخثر) ثقيل كسلان)

٩) – وعنه (ع) :

(يا سليمان لا تدع قيام الليل فان المغبون من حرم قيام الليل)

وعنه (ع) :

(ليس منا من لم يصل صلاة الليل)

١٠) – وفي الحديث..

(جاء رجل الى امير المؤمنين (ع) فقال : اني حرمت الصلاة بالليل، فقال أمير المؤمنين (ع) : انت رجل قد قيدتك ذنوبك)(٣)

الاثر التربوي لصلاة الليل

ان هذا التأكيد الشديد على صلاة الليل انما هو باعتبار اثرها التربوي الخطير في حياة الانسان الروحية.. فهي وراء كونها عبادة وصلاة، لها ما

للصلاة وللعبادة من آثار. تحتوي على اثرين مهمين، سجلتهما الآية المباركة :

(ان ناشئة الليل هي اشد وطئاً واقوم قيلا)

فقيام الليل بما فيه من مجاهدة للنفس، وتحكم في الهوى، ومعاناة في سبيل الوقوف بين يدي الله.. باعتبار مواجهة اتعاب النهار، وسلطان النوم، والشعور بالوحدة في جوف الليل. وباعتبار ذلك يكون قيام الليل اشد وطئاً، وأكبر اثراً على بناء الارادة، والصبر، وبناء الجهاز الحاكم في الشخصية الاسلامية.. وما احوج الانسان المؤمن في الدرب الطويل.. والمسيرة الصعبة وعناء الدعوة.. الى بناء الارادة، وتكوين ملكة الصبر.. الصبر الذي يكون لله، وعلى عبادة الله.. وما احوج الانسان القائد الذي ينتظر منه تحرير الامة من اسر الشهوة، والانحراف، والخضوع للدنيا والركون للطواغيت ان يتحرر من داخله.. وان يخرج عن اسر الكسل الى دائرة النشاط.. وقيود الشهوة الى دائرة القدرة، والارادة، والتجاوز.. وبالتالي ما احوجه الى هذه اللحظات القصيرة – من عمر الزمن – في جوف الليل.. ويؤكد فيها استعلاءه على كل شيء.. على كل شيء غير الله الكبير المتعال..

هذا من جهة.. ومن جهة اخرى، لما كانت عبادة الليل.. بعيدة عن مشتتات الانتباه، وتتخذ الطابع السري بعيداً عن أعين الناس فهي لهذا «اقوم قيلا»، واكثر تثبيتاً على الكلمة الربانية، كل التعاملات الشرعية

{ ٢٩١ }

التي يراها الناس منك قابلة لان تكون موقفاً اجتماعياً، وتوافقاً مع البيئة، التي ننفتح لها، وتتخاطب معها.. فاكتب ما شئت ان تكتب للاسلام، وتحدث ما شئت ان تتحدث عن دين الله.. واسع لاخوتك.. كل هذا واجب، وكله مطلوب.. وكله فيه نحو من التثبت، والابقاء على خط الله.. ولكن ليس هذا مثل عبادة البشر.. مثل العيش وحيداً، بعيداً عن اعين الناس.. وحيداً الا من الله.. وغريباً الا مع الله.. تلتقي به، تتلقى منه وتتضرع اليه. هناك فقط، واكثر من غيره يتجلى لك (الصدور) عن الله.. والجهاد في الله هي لحظات تحاسب موقفك بين يدي الله.. وتصفي حساباتك في اليوم السابق. وتؤكد له، ولنفسك انك فيه وبه وليس لك من قصد الا هو.. وهذا هو التثبيت، والتمحيص، وبناء الاخلاص، والصدور عن الله.

صراحة.. لا افهم من عبادات الاسلام شيئين الا للدعاة، الاعتكاف، وقيام الليل.. افهم الحج عبادة عامة يجتمع فيها المسلمون، ويؤدون شعائر الحج، ويستفيدون في الفكر والروح، وفي هذا يشترك الدعاة مع غيرهم من المسلمين وافهم الصلاة اليومية للمسلمين عموماً، كما افهم الصوم.. وغيره. في هذا الاطار، ولكن كلما تلح على الذهن صلاة الليل.. والاعتكاف يقترن ذلك بذكر الدعاة.. وتشكل في نفسي إنطباعاً انهما شرعا في الاسلام لهم، ولهم فقط وان كان لهما صورة تشريعية عامة تشملهم، وتشمل غيرهم.

الوحدة مع الله.. العزلة الموقتة، مراجعة الذات مع الله.. احوج ما يحتاج اليها الداعية.. ليكون داعية لله.. ولله ومن الله.. ليحكي لربه

{ ٢٩٢ }

شيئاً من اتعابه في سبيله.. ليحاسب نفسه امامه عن اخطائه. ليستزيده، ويستهديه ليخلص له نيّته من كل ما يشوب نيات العاملين في العبادة ويداخلها من حب الظهور، والرغبة في

التوافق مع الاجواء الخاصة، ليقول له يا رب. هذا جهدي، ومستطاعي، ومنك العون وبك الاعتصام من كل المغريات، والضغوط والمكاره، والاتعاب.

إعداد الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه من خلال قيام الليل

يحفل القرآن الكريم بالآيات النازلة من اجل اعداد الرسول صلى الله عليه وآله ، وتوجيهه لتحمل اعباء المسيرة، وطريق ذات الشوكة.. وقد عرفنا – فيما مر – ان الرسول صلى الله عليه وآله مر بثلاث فترات للاعداد..

(١) – الاعداد ما قبل النبوة من اجل تلقي الكلمة.. والوصول الى مستوى تلقي الوحي..

(٢) – الاعداد ما بعد الوحي.. من اجل تحمل العبء الثقيل والقول الثقيل في الدعوة، والتبليغ، والمواجهة..

(٣) – اعداده صلى الله عليه وآله على استمرار خطه الجهادي.. الى ان توفاه الله تعالى.. ورفعه اليه، ولكل مرحلة من هذه المراحل طابعها، واسبابها.

المهم الآن.. ان المرحلة الثانية من الاعداد الروحي كانت الاعداد لتحمل القول الثقيل، وتحمل اعباء مسيرة الدعوة.. وهي التي تنزل من اجلها قوله تعالى :

(يا أيها المزمل قم الليل الا قليلاً نصفه، او انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا)

«وكان الزاد فيها، ومادة العمل قيام الليل، وتلاوة القرآن. بالليل..» ان قيام الليل والناس نيام والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، وسفاسفها والاتصال بالله وتلقي فيضه، ونوره،

والانس بالوحدة معه والخلوة اليه، وترتيل القرآن، والكون ساكن كانماً يتنزل من الملأ الاعلى، وتتجاوب معه ارجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري، ولا عبارة، واستقبال اشعاعاته وايحاءاته، وايقاعاته في الليل الساجي.. ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهض، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل.. ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.(٤)

وما كان من الرسول صلى الله عليه وآله ، وصحبه الا ان امتثلوا، فقاموا الليل كما امرهم الله، نصفه، أو ثلثه، او ثلثيه الى سنة كاملة او اكثر حتى تورمت اقدامهم، وانتفخت ثم خفف الله عنهم بعد انتهاء فترة الاعداد.. كما تقول بعض الروايات.

(٢) – ذكر اللّه كثيراً

لذكر الله معنيان :

١) – الذكر الذهني : وهو المعايشة الشعورية، والذهنية لعقيدة الايمان بالله تعالى، وهذا هو الاصل في الذكر. وقد عرفنا فيما سبق، ان الذكر عنصر ضروري من عناصر الجانب الروحي من شخصية الانسان المسلم.

٢) – الذكر اللفظي : وهو ذكر الله تعالى باللسان كتسبيحه، وتحميده، واستغفاره، وتهليله، وتكبيره، وما شاكل ذلك. وقد ورد الحث الشديد عليه، باعتباره وسيلة من وسائل التربية والمعايشة الشعورية، والذكر اللفظي لله هو ما حوى اصواتاً دالة على التعظيم، والتقديس له.. وانما يستمد قيمته من كونه (وسيلة) لغاية ذات قيمة في نفسها. وهي ذكر الله ذكراً ذهنياً اما مثل الصلاة، والصوم كحركات، وامساك مجردة لا قيمة لها، الا ان الالتزام بها انما هو باعتبار دورها التربوي، أي باعتباره انتهاء عن الفحشاء والمنكر، وعروجاً الى الله، وخلق حالة التقوى، والصوم من تلك المحارم.

عن ابي عبد الله (ع) :

(شيعتنا الذين اذا خلوا ذكروا الله كثيرا)(٥)

وعنه (ع) قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(من اكثر من ذكر الله عز وجل احبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق)(٦)

وعن أمير المؤمنين (ع) :

(من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيراً إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية، ولا يذكرونه في السر)

فقال الله عز وجل :

(يراؤون الناس، ولا يذكرون اللّه الا قليلا)(٧)

وفي حديث عن الصادق (ع) :

(الذاكر للّه عز وجل في الغافلين، كالمقاتل في المحاربين)(٨)

ويلاحظ في هذه النصوص، التأكيد على الطابع السري للذكر، وذلك للتخلص من شوائب الرياء، ودواعي السمعة والذكر الحسن بين الناس، وتثبيتاً للعلاقة بالله تعالى..

صورتان تربويتان

١) – عن الصادق (ع) :

(وكان ابي كثير الذكر، لقد كنت امشي معه وانه ليذكر الله، وآكل معه الطعام،

وانه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم، وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت ارى لسانه لازقاً بحنكه يقول : (لا اله الا اللّه) وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس. ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا امره بالذكر)(٩)

٢) – عن ابي اسامة قال : زاملت ابا عبد الله (ع) قال : قال لي : اقرأ فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها، فرق وبكى. ثم قال :

(يا ابا اسامة اوعوا قلوبكم ذكر الله عز وجل واحذروا النكت، فانه يأتي على القلب تارات، أو ساعات الشك من صباح ليس فيه ايمان، ولا كفر، شبه الخرقة البالية، أو العظم النخر، يا ابا اسامة الست وما تفقدت قلبك، فلا تذكر به خيراً، ولا شراً، ولا تدري اين هو ؟ قال : قلت له : بلى انه ليصيبني واراه يصيب الناس. قال : اجل ليس يغري منه احد، قال : فاذا كان ذلك فاذكروا الله عز وجل واحذروا النكت فانه اذا اراد بعبد خيراً نكت ايماناً واذا اراد به غير ذلك نكت غير ذلك)(١٠)

(٣) – تلاوة القرآن الكريم التدبر فيه

(روى الحارث الهمداني قال دخلت المسجد فاذا الناس يخوضون في احاديث، فدخلت على علي فقلت الا ترى ان اناساً يخوضون في الاحاديث في المسجد ؟ فقال : قد فعلوها ؟ قلت : نعم قال : اما اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ستكون فتن. قلت : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم.. وهو الصراط المستقيم.. وهو الذي لا تزيغ به الاهواء، ولا تلتبس به الالسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم ينته الجن اذ سمعته، ان قالوا : انا سمعنا قرآناً عجباً. هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن علم به اجر ومن دعا اليه هدي الى صراط المستقيم. خذها اليك يا اعور).(١١)

وعن امير المؤمنين (ع) :

(ثم انزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضؤوه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وبنياناً لا تهدم اركانه وشفاء لا تخشى اسقامه، وعزاً لا تهزم انصاره، وحقاً

لا تخذل اعوانه، فهو معدن الايمان، وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره.. جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، وفجاجاً لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به وعذراً لمن انتحله)(١٢)

١) – الصفة الاولى للقرآن الكريم انه كتاب الله تعالى.. الذي انزله على قلب رسوله الكريم.. وليس على وجه الدنيا كتاب لله.. صانه الله تعالى من يد الاثم والتحريف كهذا الكتاب. وليس على وجه الدنيا كتاب.. تطمئن الى انه سليم.. فكرة فكرة.. وكلمة .. وعبارة عبارة كهذا الكتاب.. وليس على وجه الدنيا كتاب تشعر وانت تقرأ فيه بحنان الله وعطف الله وتكريم الله لهذا الانسان كهذا الكتاب.

٢) – والصفة الثانية للقرآن الكريم.. انه كتاب الله النازل لهداية الناس، وتعبيدهم الطريق.. فهو ليس كتاب ملغّز، نزل من اجل ان يحار فيه العلماء، واهل التحقيق والتدقيق !! ولم ينزل لفئة خاصة، بحيث لا يفهمه الا من خوطب به، – انما هو كتاب الله للناس يستقي منه الانسان – أي انسان بمقدار ما يقربه روحياً من الله تعالى، ويتبع النهج السليم في البحث والتدبر والتفكير..

{ ٢٩٩ }

(هذا بصائر للناس، وهدى، ورحمة لقوم يوقنون)

(قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي، هذا بصائر من ربكم وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون، واذا قرئ القرآن فاستمعوا له، وانصتوا لعلكم ترحمون)

ومن صفة «الربانية» وصفة (الهداية والتبصير) تتبع كل الصفات الاخرى التي تعرف عن القرآن الكريم.

القرآن الأساس الفكري والروحي

والقرآن الكريم هو المنبع الثقافي والروحي للانسان المسلم.. منه يأخذ تصوره عن الله تعالى، وعن الوجود، والحياة، والمجتمع، والناس.. ومنه يأخذ معالم التشريع الالهي لهذا الانسان على هذه الارض.. ومنه يتعرف على اهداف الله في الخلق، واغراضه من هذا الخلق والحياة..

والقرآن الكريم سند روحي ايضاً، يتصاعد الانسان في تلاوته لانه يلتقي بالله تعالى، وهو يتحدث اليه، ويتحبب اليه، ويحنو عليه، – وفيه يشعر هذا الكائن الضعيف بالحنان الالهي ودفء التكريم لهذا الكائن الفقير، ويعايش الحقائق الوجودية الكبرى، ويذكر الله.. ويتحسس الحياة معنى ومسؤولية، وابتلاء.. فيسمو، ويسمو حتى لكأنه في عالم آخر من عوالم التكوين..

{ ٣٠٠ }

ويبدأ الانحراف في مسيرة الانسان المسلم عندما يبحث عن زاد آخر غير القرآن، وغير ما ثبته القرآن الكريم من مقاييس، ويتلقى الثقافة، والفكر، والتربية من تحت منبر آخر غير منبر

القرآن الكريم. وقد سجلت رواية الحارث الهمداني بداية الانحراف الحضاري في المسيرة الاسلامية عندما بدأ الناس في عهد علي (ع) يخوضون في المسجد بالاحاديث، لا اعرف الآن هذه الاحاديث بالضبط.. ولكنها تؤشر بداية مرحلة العقل، وتوديع مرحلة الروح، ومرحلة القرآن الكريم. وهكذا (فعلوها) واستمر المسلمون في الانحراف.. وتصدى اهل البيت (ع) لهذا الانحراف عن طريق بناء اجيال قرآنية (تعي) قيمة هذا القرآن.. كما (تفهمها) وتبني سلوكها، وفكرها في ضوء هذا الوعي والشعور..

و(التلقي) من القرآن الكريم.. هو المعنى الاساس الذي انحرفت به الثقافة الغربية في الماضي، وفي الحاضر. فسواء في الماضي، أو في الحاضر بدأنا نتلقى من مصادر اخرى غير القرآن.. وبدأنا اذا التقينا بالقرآن الكريم نحكم عليه ونؤوله، ونجره الى ما نريد من اهواء جراً. ومع انه كان في التقدير الالهي ولا يزال (حاكماً) و(مهيمناً) وسلطاناً على كل المقاييس الفكرية والثقافية..

ونحن على الدوام ظلمنا أنفسنا.. ولا اقول القرآن.. عندما ودعناه وعندما حكمنا عليه مرة (الروايات)(١٣) باعتباره انه كتاب الغاز، واحاجي لا يفهمه الا من خوطب به، ومرة (الثقافات) لانها احكام العقول، واحكام العقول مقدمة على ظواهر النصوص والتي هي قواعد الصرف، والنحو الجامدة وغيرها.. كل ذلك، والقرآن لا زال ربيعاً لقلوب

المؤمنين تسامى به الدهر، منار هدى، وسبيل نجاة، وبصائر للناس وذكرى للعالمين..

واداء حق القرآن علينا لا يتم الا من خلال :

(١) – احلاله الموقع النفسي والشعوري الذي يتناسب معه بوصفه الكتاب الرباني الوحيد في الناس..

(٢) – تحكيمه في كل شؤوننا الثقافية، والفكرية، والصدور عنه، والتلقي منه بلا تدخل أو تأويل..

(٣) – معايشته المستمرة في التأمل، والتدبر والتلاوة والحفظ..

تلاوة القرآن الكريم

١) – عن الصادق (ع) قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(ان اهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين، ما خلا النبيين، والمرسلين فلا تستضعفوا اهل القرآن حقوقهم فان لهم من الله العزيز الجبار مكانة عليا)

٢) – وعنه (ع) :

(من قرأ القرآن، وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه، ودمه، وجعله الله عز وجل

مع السفرة الكرام البررة. وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة)

٣) وعنه (ع) قال :

(القرآن عهد الله الى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم ان ينظر في عهده، وان يقرأ منه في كل يوم خمسين آية)

٤) وعنه (ع) :

(يدعى ابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن امامه في احسن صورة، فيقول : يا رب انا القرآن، وهذا عبدك المؤمن، قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه اذا تهجد، فارضه كما ارضاني. قال فيقول العزيز الجبار: عبدي ابسط يمينك فاملأها من رضوان الله، واملأ شمالك من رحمة الله ثم يقول : هذه الجنة مباحة لك، فاقرأ، واصعد، فاذا قد قرأ آية صعد درجة)

الى آخر النصوص الكثيرة الواردة في الحث على النظر الى عهد الله وقد وردت ايضاً نصوص اخرى في ادب التلاوة.. اهمها التفكر، والتدبر، والخشوع، والاستفادة، والترتيل والحزن..

واما مقدار القراءة فليس له في النصوص تحديد حديّ معين. وكذلك لم يكن في سلوكهم ما يشير الى حد مقدار قراءتهم.. وانما قراءة القرآن امر مستحب في ذاته.. والاكثار منه مستحب مهما بلغ من الكثرة.. ولكن بشرطين :

(١) – ان لا تزاحم تلاوة القرآن الكريم امراً اهم.

(٢) – ان لا تكون كثرة القراءة على حساب التأمل والتدبر..

ولعل من اهم اشكال اداء حق القرآن الكريم، ومعايشته والارتباط به هو ان يحاول الانسان المسلم البحث في القرآن الكريم.. من تفسير بعض السور، والكتابة في بعض الموضوعات القرآنية التي يستقصي فيها جميع ما ورد من آيات في ذلك الموضوع، أو الكتابة عن تاريخه، وعلومه.. الخ فان هذا يزيدنا بصيرة اكثر في الطريق الى فهم القرآن الكريم، ومعايشته ومن

خلال القراءة، والبحث، وحفظ الكثير من آيات القرآن.. يكون – وما اروع ان يكون – القرآن سليقة للمؤمن، وذوقاً له..

(٤) – الأجواء الإيمانية

وللاجواء تأثير كبير في التربية الروحية – وكل تربية – فعلى الانسان المسلم ان يقصد الاجواء الايمانية لكي يتأثر بها، ويستزيد.

ان المسجد من اهم الاجواء الايمانية.. وكذلك المشاهد المشرفة..

ومن الطبيعي ان الانسان عندما يدخل مكاناً مخصصاً او زماناً مخصصاً

لشيء يكون اكثر تهيؤاً من الناحية النفسية لاداء ذلك النشاط.. والمكتبة مثلاً – لما كانت مكاناً للمطالعة – يكون الانسان فيها اكثر توجهاً واستعداداً للمطالعة والدرس.. والمسجد.. وهو المكان المخصص للعبادة.. يكون الانسان فيه اكثر تهيؤاً للعبادة واستعداداً للتعامل مع الله تعالى.. بما يملكه من ايحاء وتأثير في النفس، وقدرة على التأثر من خلال المجتمع للصلاة.. وبسبب هذا وغيره حثت النصوص الاسلامية على ارتياد المساجد، والصلاة فيها، وعمارتها بالصلاة، والعبادة.

ومن هنا جاء عن الامام علي (ع) :

(من اختلف الى المسجد اصاب احدى ثمان : اخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرقاً، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدل على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة ترده عن ردى، أو يترك ذنباً خشية او رجاء)(١٤)

ومثل المساجد، والمشاهد المشرفة التي يتذكر فيها الانسان المؤمن الرجال الصالحين الذين زرعوا ربيع الهدى في النفوس، وفجروا الارض ينابيع من دم.. وعلماً غزيراً وتربية معصومة.. غيرت الاجيال اللاحقة بزاد الايمان والهدى، والصلاح.

كانت الزيارات يوماً في عهد الائمة (ع) مواصلة للثورة التي قام بها الامام الحسين (ع)، أو القضية التي حملها ابناؤه وآباؤه الطاهرون..

واصراراً على الاستمرار على النهج، وعلى الولاء للحق.. كانت (الزيارات) بيعاً وشراء للانفس، والاموال في سبيل الله تعالى.. وكانت تظاهرة وتعظيماً لشعائر الله في الارض.. واستهداء بمصابيح الهدى الزاهرة في ليل الانحراف الداجي.. والايام الصعبة السوداء.. فليس – على هذا – من عجب أن رأينا زيارة سيد الشهداء (ع) تفضل في النصوص على الكثير من الاعمال والمستحبات الخطيرة. هذا مضافاً الى ما ورد عن ابي الحسن الرضا (ع) :

(ان لكل امام عهداً في عنق اوليائه، وشيعته، وان من تمام الوفاء بالتعهد، زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه كانوا ائمتهم شفعاءهم يوم القيامة)

١) – عن ابي عبد الله (ع) :

(ان زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وزيارة قبور الشهداء، وزيارة قبر الحسين صلوات الله عليه، تعدل حجة مع رسول الله صلى الله عليه وآله)

٢) – (عن عمران بن عبد الله بن طلحة الهندي عن ابيه قال : دخلت على ابي عبد الله قال : يا عبد الله بن طلحة ما تزور قبر ابي الحسين. قلت : بلى إنّا لنأتيه. قال : اتأتونه في

كل جمعة ؟ قلت لا، قال افتأتونه في كل شهر ؟ قلت : لا، فقال : ما اجفاكم، ان زيارته تعدل حجة وعمرة).

{ ٣٠٦ }

٣) – وعن ابي الحسن موسى (ع) :

(ادنى ما يثاب به زائر ابي عبد الله (ع) بشط الفرات اذا عرف حقه، وحرمته وولايته، ان يغفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر)

٤) – من وصايا أبي جعفر (ع) لاصحابه – كما عن محمد بن مسلم :

(مروا شيعتنا بزيارة الحسين (ع)، فان اتيانه يزيد في الرزق، ويمد في العمر، ويدفع مدافع السوء، واتيانه مفترض على كل مؤمن يقر به بالامامة من الله)

٥) – علي بن ميمون الصائغ قال : قال لي ابو عبد الله (ع) :

(يا علي بلغني ان أناساً من شيعتنا تمر بهم السنة، والسنتان، واكثر من ذلك لا يزورون الحسين بن علي قلت : اني لأعرف اناساً كثيراً بهذه الصفة. فقال : اما والله لحظهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمد صلى الله عليه وآله في الجنة تباعدوا)(١٥)

ونلاحظ من خلال بعض هذه النصوص : ان من اهداف الائمة (ع)

{ ٣٠٧ }

ان يخلقوا تياراً اجتماعياً لزيارة الامام الحسين (ع).. وكان هذا مرتبطاً باهداف الثورة ونجاحها.

ونلاحظ ايضاً ان زيارة المشاهد ليست فقط محاولة لخلق جو ايماني.. وانما هي ايضاً استشعار لوجود القدوة.. وتمثل معانيها الخيرة في الفكر، والروح، والسلوك، وفي العطاء والجهاد ؟ تأكيداً للشعور بالائتمام والاقتداء..

الاخ الصالح في الله

ومما ينبغي على المؤمن – في مجال التربية الروحية – اتخاذ الاخ الصالح في الله.. والاخوة الصلحاء.. فان للاخوة والقرناء التأثير البالغ على شخصية الانسان، لانهم اكثر ما في البيئة الاجتماعية تأثيراً عليه، واثراً في شخصيته.. وقد سجل القرآن الكريم ان بعض الناس دخلوا الى النار بسبب قرناء السوء.. وبعض كادوا ان يدخلوها.. وعن الرسول صلى الله عليه وآله :

(المرء على دين خليله، وقرينه)(١٦)

والتعاشر بين المؤمنين، ولقاؤهم، وعلاقتهم الشخصية له دور كبير في استمرار الروح الايمانية عندهم، وتنميتها وتحصينهم من الانحراف، والتحلل، والتميع، وتركيز القيم الايمانية في نفوسهم فهي – باي مستوى كانت من الجدية والهدفية – مثمرة ومنتجة. وأفضل بكثير من العزلة والانطواء على الذات.. ان الانطواء، والعزلة عند اكثر الناس سبب لانحرافهم تماماً مثل معاشرة الاشرار..

وهكذا ينبغي على المؤمن :

(١) – التخلص من العلاقة بقرناء السوء اذ :

(لا ينبغي للمسلم ان يواخي الفاجر فانه يزين له فعله، ويحب ان يكون مثله، ولا يعينه على امر دنياه ولا امر معاده.. ومدخله اليه ومخرجه من عنده شين عليه)

كما ورد عن امير المؤمنين.(١٧)

ولكن اذا كان يضمن عدم التأثر به ويحتمل التأثير عليه فلا بأس بمصاحبته من اجل هدايته، واصلاحه، وفي ذلك ثواب عظيم.

(يا علي لان يهدين الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وما غربت)

(٢) – عدم العزلة والانقباض عن الناس خصوصاً عن المؤمنين لما للعزلة من اخطار كثيرة، وكبيرة على شخصية الانسان.. وان كانت العزلة الموقتة الدورية امراً ضرورياً في حياة المؤمن كما سيأتي ان شاء الله تعالى. ولذا ورد عنهم (ع) : الحث على التزاور والتعاطف.

(اتقوا الله كثيراً، وكونوا اخوة بررة، متحابين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا، وتلاقوا، وتذكروا امرنا، واحيوه)

(تواصوا، وتباروا، وتراحموا، وكونوا اخوة بررة، كما امركم الله عز وجل)

وعن خثيمة قال : دخلت على ابي جعفر (ع) اودعه فقال :

(يا خثيمة ابلغ من ترى من موالينا السلام، واوصهم بتقوى الله العظيم، وان يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم.. وان يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فان لقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا. رحم الله عبداً احيى امرنا، يا خثيمة : ابلغ

مواليناً انا لا نغني عنهم شيئاً الا بعمل، وانهم لن ينالوا ولايتنا الا بالورع، وان اشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره)

وعن أمير المؤمنين (ع) :

(لقاء الاخوان مغنم جسيم وان قلوا)

وعن ابي عبد الله (ع) :

(تزاوروا فان في زيارتكم احياء لقلوبكم وذكراً لاحاديثنا، واحاديثنا تعطف

بعضكم على بعض)

وعن ميسر عن ابي جعفر (ع) قال لي :

(اتخلون، وتتحدثون، وتقولون ما شئتم ؟ فقلت : اي والله، انا لنخلو ونتحدث، ونقول ما شئنا. فقال : اما والله لوددت اني معكم في تلك المواطن، اما والله اني لاحب ريحكم وارواحكم، وانكم على دين الله، ودين ملائكته، فاعينوا بورع واجتهاد)(١٨)

(٣) – وليس يكفي قطع العلاقة مع الاشرار، وقرناء السوء وتكوين العلاقات الوثيقة بالمؤمنين. وانما يلزم كل مؤمن – من اجل تكوين الجو الايماني – ان ينمي من جدية العلاقة لا بمعنى اخلائها من كل مضمون عاطفي، وصلات شخصية، بل بمعنى اثرائها، والاستفادة الرسالية منها.. لان هذا هدف رئيس من اهداف تمتين العلاقة، وتوثيقها بالمؤمنين..

الأزمنة الخاصة للعبادة والتربية

وكما امر الاسلام باتخاذ (امكنة) خاصة للتربية والعبادة كذلك ركز في الشعور الديني عند المسلمين (ازمنة معينة) خصصها للتربية، والعبادة من قبيل الشهر العظيم، شهر رمضان المبارك، شهر الله الذي يستضيف فيه المؤمنين ويستمطرون بركاته، وهداه، وغفرانه، ورحمته..

{ ٣١١ }

هذا الشهر الحافل بالعطاء، والممارسات العبادية التي يعز على الانسان المؤمن ان تفوته حتى لو كان يمارس اعمالاً اخرى أهم والزم..

هذا الشهر الذي فيه كثرة، وتركيزاً في الصلاة، وكثرة وتركيزاً في الدعاء، والتوجه الى الله تعالى.. واحتفالاً عاماً في مشاعر الناس، وشعاراتهم.. الشهر المليء بالخيرات، والمليء بالمناسبات الدينية العظيمة.

لقد شاء الله تعالى في تربيته لعباده.. ان يوجد الى جانب الخط الدائم في التربية.. خط الصلاة اليومية والذكر المستمر خطاً آخر دورياً يتمثل في اوقات معينة يستعد فيها المؤمنون الى نشاطات عبادية اكبر.

دورة اسبوعية تمثله في يوم الجمعة المباركة من حيث ما فيه من ادعية، وزيارات، وتوجيهات، ودورة سنوية متمثلة في شهر رمضان المبارك، الذي يتم الاعداد الروحي له في شهر رجب، وشعبان، والشهرين العظيمين في الشهور.. ودورة حياتية متمثلة في الحج قابلة للاستزادة في كل حين.. ودورة في ايام معدودات متمثلة في الاعتكاف الذي يمكن اداؤه في أي وقت تقريباً وفي هذه الدورات ينتفي مضعف الالفة الذي نجده في الصلاة اليومية، ويعيش المؤمن العبادة غضة طرية في ايام قليلة من العمر..

(٥) – الثقافة الإيمانية

الثقافة هي – في واحد من مداليلها المتعددة، نقصده هنا بالذات – هي الرؤى الفكرية التي تؤثر في عواطف الانسان وسلوكه، وقيمه،

وطريقته في الحياة.

والثقافة الايمانية، هي بصائر، وهدى، وافكار تقرب من الله وتسهل الطريق على من يريد ان يتكامل في هذا الطريق.

ليست الافكار مقطوعة الصلة بالحياة العاطفية والسلوكية للانسان، بل لها اكبر الاثر فيها، وتؤثر، وتتأثر بها. ويتكاملان، كما يقتضي ذلك منطق القرآن الكريم.

(كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)(١٩)

(لأنتم اشدّ رهبة في صدورهم من الله. ذلك بانهم قوم لا يفقهون)(٢٠)..

وعلى اساس هذا المنطق القرآني ففي الثقافات ما يقرب الى الله ومنها ما يبعد عنه : الدافع الى الله الذي يفتح للانسان عينه، ويبصره نقاط ضعفه، وسبيل نموه، واساسيات حياته الدينية، ومنها الحاجز الذي يحول بين الروح الانسانية، وبين الانطلاق في طريق التحرر الذاتي والتكامل الوجداني وعبادة الله.

والثقافة الايمانية التي تقرب الى الله تعالى.. تتألف من عنصرين :

١) – المنهج الاسلامي في التفكير الذي ينظر الى الاشياء بالطريقة القرآنية، أو المنطق الاسلامي الخاص، الصدور عن القرآن الكريم،

التلقي من الله تعالى، والانفتاح على كلماته التعامل الفكري مع الغيب، لا الغيبية الميتة، بل التعقل الذي يأخذ فيه الدين موقعاً مركزياً، سواء في الشعور، ام في الالتزام.. والمعايشة الفكرية الكثيرة، للفكر الغربي والاتجاهات المادية، وعدم الاهتمام الثقافي بالقرآن الكريم والسنة، والتأريخ الخاص يؤثر بشكل واضح على طريقة المؤمن في التفكير، وكيفية تناوله للامور، ويبدو له الدين من خلال ذلك اتجاهاً بين الاتجاهات.. وطريقة من الطرق يدافع عنها ولكن منهكاً مرهقاً.

٢) – الافكار والمعلومات الايمانية في مجال العبادة والاخلاق، والسيرة والقرآن الكريم، والنفس البشرية والعلاقات مع الناس، وغير ذلك مما تتشكل المعرفة فيه اعداداً فكرياً، للتربية الروحية، وتكوين الاحاسيس، والمشاعر الايمانية، وبناء السلوك الديني المستقيم، وقد تعيش مع الكثير من المؤمنين، يستهينون بالاعمال العبادية ، فلا يرونها مهمة انما المهم عندهم الفكر، والعمل الفكري، والاهتمام بامور الناس، وهؤلاء لا يفتقرون الى قلب سليم، أو نية حسنة أو روح دينية، وانما يفتقرون الى رؤية سليمة فقط من الممكن ان تتوضح لهم بسهولة.. فيفتح لهم ذلك الطريق الى الله.. والنمو الروحي والوجداني.

ان الافكار والثقافة التي تتصل بالقرآن الكريم، وكلمات الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته وسيرته تصحح الكثير من الافكار الخاطئة عن التربية الروحية، وعن الاسلام بشكل عام، وتصدر بالانسان المسلم من منبع ثقافي اصيل، وتخلق له اطاراً ذهنياً، وشعورياً يتعامل معه.. وداخله، وهو اطار يفترض المبادئ الدينية، ويجعل من المؤمن يتعامل مع الافكار

من خلالها، وليس على حسابها. وهي ايضاً معايشة، ولقاء مستمر مع الله تعالى، ومع القادة الميامين الاطهار (ع).

ومن الممكن هنا ان نسجل بعض الكتب في المجال الاخلاقي والتربوي نرى من الضروري للانسان المؤمن ان يتدارسها، ويتعامل معها باستمرار :

١) – اصول الكافي لثقة الاسلام الكليني المتوفى في النصف الاول من القرن الرابع الهجري، والجزء الثاني منه بالخصوص وهو يشتمل على كتاب الايمان، والكفر، كتاب الدعاء، كتاب فضل القرآن، كتاب العشرة.

٢) – وسائل الشيعة للحر العاملي، فان فيه مجموعة كبيرة مفيدة من هذه الناحية.. منها :

– كتاب جهاد النفس.. المذكور في كتاب الجهاد، وكتاب ابواب العشرة.. في كتاب الحج، كتاب جامع السعادات للنراقي، وهو كتاب اخلاقي اسلامي.. وهو على العموم كتاب نافع جليل، ومؤثر اريد به ان يكون رداً على الانحراف الصوفي والتحلل الديني في آن واحد، ولا يضر في الاستفادة من هذا الكتاب عدم ضبط رواياته، أو تأثره بالفلسفة الاغريقية وروحه الفردية احياناً. لانه كما قلنا نافع على العموم.. ومأمون الجانب في هذا المجال.

ومن الكتب النافعة وفي هذا المجال.. مجال الفكر الايماني كتاب فلسفة الصلاة، ومكة في ضمير المسلم للشيخ علي الكوراني، وتذكرة الدعاء للبهي الخولي، والكتاب المسيحي، دائرة المعارف السيكولوجية المترجم في

جزئين من قبل عبد اللطيف شرارة، وبعض آخر فانه كتاب نفسي عملي ومفيد..

(٦) – مخالفة الأهواء – الصوم

ان كل مؤمن له اهواؤه – قلت او كثرة وهي قد تتعلق بالمال، الاكل والشرب، الجاه والمركز، التحكم والسيطرة على الآخرين، الخ. والهدف النهائي الذي يطمح اليه المؤمن هو الغاء هذه الاهواء من نفسه، وتطهير مشاعره، ووجدانه ودوافعه منها تطهيراً كاملاً.

اما المهمة الآنية والملحة، فهي اضعاف تأثير هذه الاهواء على السلوك، والتحكم فيها، وعدم السماح لها بالسيطرة على النفس، بل عدم السماح لها بالنفوذ بأي شكل من الاشكال.. وبكلمة اخرى : ان المهمة الآنية للانسان المؤمن هي تأمين سيطرة الارادة الربانية على النشاط، والسلوك بحيث تكون مقدمة على الاهواء، والميول الذاتية في النفس..

والتحكم في الاهواء، والغاؤها نهائياً من صفحة النفس والشعور ينتج من مجموعة عوامل اهمها أو من اهمها.. مخالفة الهوى..

(واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)

وذلك لان كل عاطفة، أو انفعال او هوى، يضعف اذا لم تنفذ مطالبه، ولم يلب ما تقتضيه من تصرفات..

وبكلمة اخرى : توجد لدينا حقيقتان ثابتتان :

١) – ان لكل عاطفة ، أو هوى، أو انفعال تصرفاً يقتضيه وينتهي اليه، فحب المال ينتهي الى الحفاظ عليه، وعدم التصدق به وحب المركز يقتضي من الانسان أن يحاول الظهور امام الناس في المجالات الفكرية، أو الخطابية أو الدينية..

٢) – ان الفصل بين الهوى، وبين نتيجته العملية، وعدم تلبية مطالبه اضعاف له، وزعزعة لسيطرته على النفس، وتحكمه في السلوك، وتقوية للارادة الربانية (الجهاز الحاكم في الشخصية الاسلامية). والفصل بين الهوى، ونتيجته العملية امر ممكن لان العلاقة بينهما علاقة (الاقتضاء) لا علاقة (اللزوم).

ان مخالفة الاهواء بالنسبة الى الانسان المؤمن العامل في سبيل الله هي من اهم مهامه الآنية.. لانه احوج من غيره الى الارادة الحازمة، والقدرة على التحكم في الاهواء ومخالفة النفس.. ان خوف مقام الله تعالى، ومخالفة النفس، والصبر، واليقين هي دعائم الشخصية الرسالية القيادية، أو من دعائمها المهمة، وقد بين الله تعالى، انه قد جعل من بني اسرائيل ائمة لما صبروا، وكانوا بآياته يوقنون والصبر، هو الارادة الحازمة ضد ميول النفس، واتجاهاتها الذاتية، ولا يتم تكوين هذه الارادة الا من خلال مخالفة النفس.

وللاسلام طريقته الخاصة في مخالفة الاهواء.. ان الصوفي لا يهمه ان يخالف هواه عن طريق القاء ماله في البحر.. أو عن طريق سرقة اموال

الناس ليكتشفوه بعد ذلك فيهينوه، وتسقط هيبته من اعينهم فيعاف الظهور، والمركز، أو عن طريق الوقوف على رأسه الى الصباح كما ينقل الغزالي ذلك في (احياء علوم الدين) ان هذه الوسائل محرمة في نظر الاسلام، ولم ينزل الله بها من سلطان، قلنا فيما سبق ان من روائع الاسلام، ومن نعم الله تعالى علينا انه كما حدد لنا الاهداف التربوية كذلك حدد لنا الوسائل ولم يتركنا للتخبط الصوفي، وترهات الغزالي، وأمثاله، أو الى طريقة التأمل البوذي.. أو غير ذلك من محاولات هذا الكائن الجاهل الضعيف..

امر الاسلام بالتحكم في النفس.. واكد على ضرورة سيطرة الارادة الربانية ومخالفة الاهواء.. وحدد لنا الطريق.

لا ترمِ مالك في البحر، ولا تبسط يدك كل البسط فتقعد ملوماً مدحوراً، ولا تسرف لان الله لا يحب المسرفين، ولكن انفق العفو، واد الصدقات المستحبة والواجبة.. والاسلام يعي ان الهدف من الزكاة، والصدقة ليس هو اعانة الفقراء فقط ولكن تطهير الوجدان البشري من حب المال، وتمكنه من القلب.

(خذ من اموالهم صدقة تزكيهم بها وتطهرهم)

ومن هنا فان الاسلام في باب الصدقة اوجب الزكاة.. ولكن من جهة اخرى حث على الصدقة.. وكان هذا الحث بدرجة الاستحباب..

وهذا يعني ان الاسلام يريد من ذلك ان يكون طواعية، واختياراً ليكون اثر قدرة على التطهير والتزكية.. وحث الى جانب ذلك ان تكون الصدقة سراً لان صدقة السر افضل من صدقة العلانية.. واكثر قدرة على تنمية الروح المخلصة والروح المرتبطة بالله.. ومن هنا كان على المؤمن ان ينفق عفو ماله وفضله، ان يتحسس حاجات اخوانه. وان يحافظ على الطابع السري للانفاق قدر الامكان.

ولم يرد الاسلام ان يعيش على مزابل الكلاب ليواجه بذلك اهواءه كما يقول الصوفي..

(لا يكون الصوفي صوفياً حتى يجعل من زوجته ارملة، ومن اولاده ايتاماً، ويعيش على مزابل الكلاب)

وانما امره الى جانب الصدقة، والانفاق السري ان يصون لسانه من الكذب، والغيبة، ومن محاولات الظهور والثرثرة، وان تكون قاعدته الصمت الا في موارد الحاجة والضرورة، وان يتعلم الصوم المستحب.. الذي يكف به عن الشهوة ساعات. شهوة الجنس، وشهوة الطعام والشراب.. والصوم المستحب من اروع العبادات الاسلامية التي تربط الانسان بالله تعالى، وتنمي الارادة، وتصعد من ملكة الصبر.. ومن اهم مجالات الصوم المستحب، صوم ثلاثة ايام في الشهر.. (اول خميس من الشهر، وآخر خميس، والاربعاء الوسطى) وقد ورد الحث الشديد على ذلك في النصوص.. وهو من القدرات الروحية التي إن كانت مستحبة على

الانسان المسلم من زاوية شرعية، فهي الزامية على الداعية من ناحية المنطق الاخلاقي، والروحية الاسلامية.. لان الداعية يلزمه ان يعد نفسه لتحمل القول الثقيل، والسير في طريق ذات الشوكة، وان يعاني مرارة الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي، وكل هذا لا يتم الا من خلال التربية، والاعداد الروحي القائم على هذا، وامثاله.. ومن عناصر الداعية المسلم في هذا الميدان هو ان يتأمل ذاته، ويحسب نشاطاته، ويدرسها.. سيجد ان بعض التصرفات تقوم على اساس دواعي الهوى ولم يقصد الله فيها، ولم يذكره اصلاً.. هنا يجب عليه، أو ينبغي له ان يتوقف موقتاً، وان يتأمل قبل الاداء، فان كان تصرفه، وموقفه ضرورياً من الناحية الشرعية اقدم عليه، واداه مثاباً مأجوراً، وان لم يكن موقفه ضرورياً من الناحية الشرعية، والدعوتية تركه، واهمله.. خاصة في موارد التقييمات، والكلام على الناس، ومواجهتهم..

(٧) – المحاسبة، والنقد الذاتي

١) عن ابي الحسن الماضي (ع) قال :

(ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل حسناً استزاد الله، وان عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب اليه)

٢) – عن ابي ذر (ره) في وصية النبي صلى الله عليه وآله انه قال :

(يا ابا ذر حاسب نفسك، قبل ان تحاسب،

فانه اهون لحسابك غداً، وزن نفسك، قبل ان توزن.. وتجهز للعرض الاكبر يوم تعرض، لا تخفى على الله خافية.. يا ابا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه اشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من اين مطعمه ومن اين مشربه، ومن اين ملبسه، امن حلال أو من حرام، يا ابا ذر من لم يبال من اين اكتسب المال لم يبال الله من اين ادخله النار)

٣) عن علي (ع) عن النبي صلى الله عليه وآله قال :

(اكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت فقال رجل : يا أمير المؤمنين كيف يحاسب نفسه ؟ قال : اذا اصبح ثم امسى رجع الى نفسه وقال : يا نفسي ان هذا يوم مضى عليك لا يعود اليك ابداً.. والله يسألك عنه بما افنيته، فما الذي عملت فيه اذكرت الله ام حمدته، اقضيت حوائج مؤمن فيه، انفست عنه كربه احفظته بعد الموت في مخلفيه اكففت عن غيبة أخ مؤمن. اعنت مسلماً. ما الذي صنعت فيه ؟ فيذكر ما كان منه،

فان ذكر انه جرى منه خير حمد الله، وكبره على توفيقه وان ذكر معصية، أو تقصيراً استغفر الله، وعزم على ترك معاودته)

٤) علي بن طاوس روينا في الحديث النبوي المشهور :

(حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الاكبر)(٢١)

ان البناء الروحي.. وهو تمكين الايمان والارادة الربانية من النفس في فكرها، ووجدانها، ونشاطها.. لا يتم الا من خلال تقوية الايمان، والوجدان الاسلامية، والارادة الربانية من جهة.. والوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس، واساليبها في الدفاع، ونقاط ضعفها من جهة اخرى.. وذلك لان من الممكن ان تعمل الدوافع الذاتية في النفس من دون ان يشعر بها الانسان. والوعي الذاتي الشامل، ومعرفة النفس يتم من خلال ما يلي :

(١) – دراسة النفس دراسة شاملة.. حيث يقوم المؤمن هنا بملاحظة ذاته من خلال تجربتها السابقة، وخبرته الطويلة بها. ويدرسها دراسة كاملة.. ويحدد ما فيها من نقاط ضعف، ونقاط قوة.. ويركز ذلك في ذهنه، أو يسجله في مذكراته، وتشمل هذه الدراسة الحالات كافة، الجانب الثقافي، والجانب الروحي والجانب العلمي.. الخ.

(٢) – يراقب الانسان المؤمن ذاته، ويركز نظره عليها في نشاطها

اليومي.

(٣) – يحاسب ذاته محاسبة دورية يومية، أو اسبوعية، ويدرس في ذلك نشاطاته السابقة ما قدمه، وما خالف فيه، وما قصر عنه ويحدد ذلك. فيحمد الله، ان هو اطاع الله، وذكره

وتورع عن محارمه، ويتوب عما خالف.. ويعزم على الترك، ويبني نهجاً جديداً، وهكذا في كل دورة.

وليحذر المؤمن اثناء كل ذلك من خداع النفس، ومن غرورها، وعجبها فانها امارة بالسوء الا ما رحم الله. مهلكة لصاحبها الا ما وفق.

(٨) – الاعتكاف

عن ابي عبد الله (ع) :

(كان رسول الله صلى الله عليه وآله اذا كان العشر الاواخر (من رمضان) اعتكف في المسجد وضربت له قبة من شعر، وشمر المئزر وطوى فراشه)

وعنه (ع) عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

(اعتكاف عشرة في شهر رمضان تعدل حجتين، وعمرتين)(٢٢)

في الاعتكاف عناصر متعددة، وجهات كثيرة تمثل طابعه التربوي المتميز وفيه :

١) – التفرغ للعبادة وذكر الله. فالمؤمن في ايامه العادية يحكم ضرورات الحياة، وضرورات العمل لا يمكن ان يؤدي الكثير من المستحبات العبادية، ولهذا فهو يقتصر على مقدار قليل معين من العبادات اما الاعتكاف، فهو المكث في المساجد للعبادة.. فيه يتفرغ الانسان المؤمن، ويتنصل موقتاً عن الاشغال في الحياة الخاصة، والاعمال الاجتماعية ليؤدي لربه حقه.. ولنفسه حقها.. وهو عليه دورة تربوية ضرورية للانسان المسلم، يستزيد فيها من

ذكر الله، ومعايشة تصوراته عن الكون، والحياة، والوجود، ويتذكر فيها ايام الله الخالية فتعيش روحه، وقلبه، بالنشاط العبادي المكثف الجديد على النفس، الذي لم يتضرر بالالفة، وروتين العادة. واقتطاع هذه الايام المعدودة ضرورة تربوية من اجل الاعداد، والتركيز الروحي.. وهو نظام اختطه الله تعالى في منهجه التربوي لهذا الانسان.

٢) – مخالفة الاهواء.. متمثلة في الصوم اذ (لا اعتكاف الا بصوم) الذي يمثل مخالفة هوى النفس في الاكل والشرب والجماع.. وفي الامتناع عن المراء، والجدال.

٣) – العزلة المؤقتة عن الناس، واتاحة الفرصة لمراجعة النفس، ومحاسبتها واختبارها.. فانت في خضم العمل الاجتماعي مملوك لمهماتك الاجتماعية.. وهذا ما يضعف من اصالة الفعل، وايداع النشاط، ومن مراجعة الذات، وتقييمها وبالتنصل موقتاً من العمل الاجتماعي، وسفاسف الحياة الصغيرة، وحتى عن العمل الفكري يتيح للانسان ان يراجع ذاته، وينظر في عيوبها، ويقيمها تقييماً شاملاً، ولينطلق بعد ذلك

في مواقفه عن طواعية، واختيار، وتلقائية، واخلاص وليزيد من تثبته الديني، وتركيز علاقته بالله تعالى وانقطاع رجائه، وانشداده الى الناس، والاشياء، والاهداف المرحلية اليومية.

ومن هنا كان الاعتكاف.. احدى الضرورات الدورية المهمة للداعية يتخلى فيها عن رداءة التصرف، ويمحص ذاته من شوائب الرياء والسمعة والانشداد الى الناس ويتجلى فيها الاخلاص، والتثبت، والتركيز، الديني.. تركيز العلاقة بالله تعالى.. ونشير اخيراً.. الى ان الاسلام لا يشجع العزلة التامة المستمرة عن الناس فان في هذا اخطاراً كبيرة على النفس، وتتنافى مع ما يعده الاسلام للانسان المسلم من ادوار اجتماعية، وعطاء اجتماعي متميز..

ولهذا يؤكد الاسلام في نصوص كثيرة على ان لا يكون الاعتكاف الا في مسجد جامع تقام فيه الصلاة جماعة.

(٩) – نظرة عامة في الأساليب التربوية(٢٣)

نلاحظ ان اساليب الاسلام في التربية اكثر مما ذكرنا.. ونحن هنا لخصناها بايجاز..

عن علي بن ابي طالب (ع) :

(لا خير في العيش الا لرجلين : رجل يزداد في كل يوم خيراً، ورجل يتدارك منيته (سيئته) بالتوبة)

عن ابي عبد الله (ع) :

(من استوى يوماه فهو مغبون.. ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شره فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو الى النقصان.. ومن كان الى النقصان، فالموت خير له من الحياة)

«الختام»

ان موضوع (الاعداد الروحي) من اهم الموضوعات الاسلامية العاجلة، لانه الاساس الذي تقوم عليه التربية الاسلامية للانسان المسلم في كل جيل.. وإذ انهي هذا البحث بحمد الله فاني اشعر بنواقصه التي ارجو ان تتدارك في المستقبل ان شاء الله.. ان التجربة الروحية شرط

اساسي لنجاح مثل هذا البحث، وكذلك الاداء التربوي البليغ والمعاصرة الطويلة.. وكل هذه الشروط مما ينقص هذا البحث.. ولكن اتمنى ان يتناول هذا الموضوع رجال عرفناهم بتجربتهم الروحية السليمة، وقلمهم الاسلامي المعبر، وهمومهم الاسلامية وثقافتهم الواسعة.

واسأل الله تعالى في الختام ان يعصمنا من الزلل، وان لا يمقتنا لقول نطقنا به، ولم نفعله، وان لا يجعل اعمارنا مرتعاً للشيطان، وان يجعلنا من المعانين، والمجاهدين فيه والمهتدين الى سبيله.. انه سميع مجيب..

ليلة القدر المباركة ٢٣ / رمضان المبارك / ١٣٩٨ ه

هوامش الفصل الخامس

(١) – سورة الذاريات ١٥ – ١٨

(٢) – سورة الانسان / ٢٥

(٣) – الوسائل بقية الصلوات المندوبة باب ٣٩ و ٤٠

(٤) – في ظلال القرآن سيد قطب م ٨ ص ٣٤٧

(٥) – اصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩

(٦) – الوسائل ابواب الذكر من كتاب الصلاة باب ١٤

(٧) – نفس المصدر ص ٥٠١

(٨) – نفس المصدر ص ٥٠٢

(٩) – اصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩

(١٠) – الوسائل ابواب الذكر

(١١) – البيان من تفسير القرآن للسيد الخوئي ص ٢٦ – ٢٧

(١٢) – المرجع السابق ص ٢٩ – ٣٠

(١٣) – هذا مع انهم (الائمة) يفعلون العكس ويقولون (ما خالف كتاب الله فهو زخرف لم نقله) و(ما جائكم عني يخالف كتاب الله فلم اقله)، و(وكل شيء لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) و(وما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه)

(١٤) – الوسائل احكام المساجد باب ٣

(١٥) – الوسائل ابواب المزار من كتاب الحج باب ٢ و٢٥ و٣٧ و٣٨

(١٦) – اصول الكافي ج ٢ ص ٦٤٢

(١٧) – اصول الكافي ج ٢ ص ٦٤

(١٨) – اصول الكافي ج ٢ ص ١٧٥ – ١٧٩ وص ١٨٦ – ١٨٧

(١٩) – سورة آل عمران / ٧٩

(٢٠) – سورة الحشر / ١٣

(٢١) – الوسائل جهاد النفس ج ٦ ص ٣٧٩ – ٣٨٠

(٢٢) – الوسائل باب من كتاب الاعتكاف

(٢٣) – مما يؤسف له ان هذا الموضوع قد سقط من الكتاب من خلال نقله من العراق الى الكويت الى ايران.